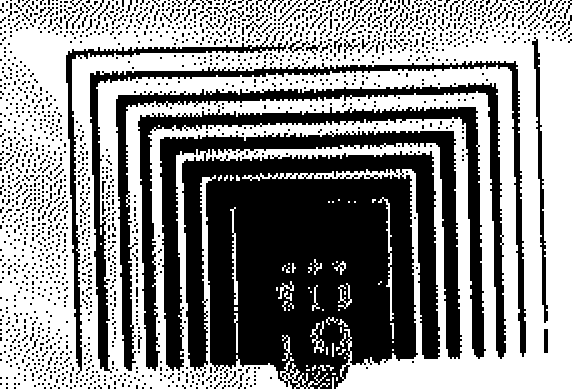
هبة الطوْطم

أساطير الهنود الحمر

ترجمة: راوية صادق

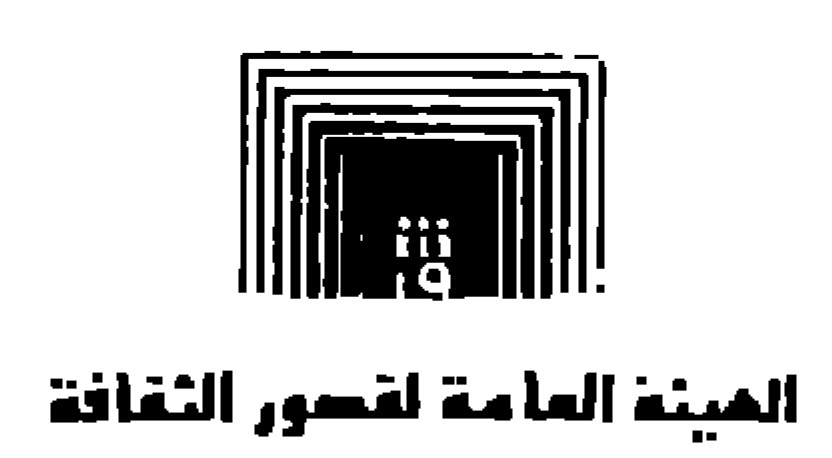




الهيئة العامة لقصور الثقافة



آفاق الترجمة





هبة الطوطم

أساطير الهنود الحمر

ترجمها عن الفرنسية:

راوية صادق

لوحة الغلاف

للفنانة راوية صادق

تصميم الغلاف

عمر جهان



آفاق الترجمة

شهرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

المراسلات باسم مدير
التحرير على العنوان التالى
١٦ شارع أمين سامى
القصر العينى - القاهرة
رقم بريدى ١١٥٦١

هذه الحكايات مترجمة عن الفرنسية من كتاب

Contes et Legendes

des Indiens D'amerique

جمعها

Vladimir Hulpach

وصدرت عن دار نشر *Grund*

باريس، الطبعة الثالثة ١٩٧١

حكايات الغليون الهندي

تقديم

• كان الهنود يعرفون أن الحياة متوازنة مع الأرض ومصادرها، وأن أمريكا كانت فردوسا. وكان مايعرفه «ساموست» هو أن الأرض قد جاءت من لدن «الروح الأعظم» وأنها كانت بلا حدود كالسماء، ولم تكن ملكا لأي من البشر».

دى براون

فى هذه الأساطير، يتبدى وجه الهندى الأحمر فى نصاعته التى كسرت أسوار الحصار الأمريكي الإعلامي: وجها عميق الإنسانية والجذور، يمتلك رؤية شاملة للعالم ولذاته، تتقاطع مع الكثير من الرؤى التى قدمتها الحضارات الإنسانية المختلفة، ومن بينها العربية، حيث يختلط التفسير الميتافيزيقى لأشياء العالم وحركته بالتفسير التجريبى، ويكشف عن حنو عميق على الإنسان ومصيره ، ويحث عن اكتماله الحقيقى.

وقد عاش سكان أمريكا الشمالية - الهنود الحمر- حياة اجتماعية بدائية وبسيطة، تعتمد - أساسا - على صيد الأسماك والحيوانات.

وتعود أهمية هذه الحكايات إلى أنها تقدم لنا تراث الهنود الحمر الشفاهى، دون وسيط، كما تناقلته قبائلهم، أبا عن جد، فتقدم لنا الصورة الأخرى - الحقيقية والأصيلة- لشعب باسل، تعرض لحملة إبادة على أرض وطنه، فى قنوات الإعلام المختلفة، على نحو ما ظهر - بشكل متميز- فى المسلسلات الأمريكية عن «العصر الذهبى»

للغرب، الذى يعنى فى حقيقة الأمر - عصر إبادة الهنود الحمر، وفى أفلام رعاة البقر، التى حاولت تبرير غزو «الرجل الأبيض» لهذه الأرض، ومجازره الدموية ، باعتباره عملا مشروعا، بل ضروريا، للقضاء على ما أسمته بربرية الإنسان الهندى .

وإذا ما افترشنا نسيج الأساطير الحى، لمحنا فيها - خاصة فى الليلة الأولى - محاولات لتفسير العالم، تأخذ شكل صورة شعرية - (كتفسير النشأة الأولى للإنسان، واكتساب بشرة الهنود للون الأحمر)، فيما نلمح المعادل الاجتماعى للمعتقدات الشائعة بين العامة (كالإعلاء من دور «الفعل» على حساب «الذهن» مثلما فى «من الذى أتى بالشمس؟») .

وتأخذ الأسطورة، باحتوائها على التفسير كأحد عناصرها، سطوة العقيدة ، فتسعى لترسيخ معتقدات وأطر فكرية تتوائم والظروف الاجتماعية لشعبها.

وتتطرق الليلة الثانية لعالم الحيوان والطيور. والحكايات عن هذا العالم من أقدم أشكال الحكايات الشعبية على مر العصور البشرية. وقد عكست - كامتداد للأسطورة - ارتباط الإنسان البدائي بالطبيعة، واعتبار أنه جزء لايتجزأ من كافة عناصرها .

ولاتشكل هذه الحكايات والأساطير الهندية ظاهرة ثقافية منعزلة عن تراث باقى شعوب العالم، إذ يمكن أن نرى فيها الكثير من الملامح المشتركة لتراث العالم كله ولتراثنا العربى بصفة خاصة. فالحيوانات الهندية - على سبيل المثال - تعيش - كما حيوانات «كليلة ودمنة» وحيوانات الشاعر الفرنسى «لافونتين» فى مجتمع ذى

طبيعة إنسانية، لتحمل – بدورها – بعض الملامح الإنسانية .

وتهدف حكايات الحيوان إلى تفسير الظواهر الطبيعية وتقديم الخبرة والنصيحة، بدرجات متفاوتة. ففى «البومة والفأرة الصفراء» – على سبيل المثال – يطغى بعد «العبرة» على الجانب التفسيرى، حيث «العناد يورث الكفر» كما فى مثلنا العربى .

وإذا كانت بعض الأساطير قد تم توظيفها فى دور النقد الاجتماعى غير المباشر، فإن حيوانات الهنود الحمر تعكس – فى المقام الأول – الإيمان بوحدة الوجود العام، وتلاحم الحيوانى والطبيعى والإنسانى، وانسجامهم فى كل واحد، فى روح الوجود المتجددة أبدا .

وفى الجزء الأخير ، يتبدى – فى كثير من الحكايات، وجه قبائل شعوب الهنود الحمر ، وجه مقدام: دحر رسول «البيض» المعتصم بالقراءة (كما فى حكاية «الصخرة المقدسة»)؛ يتمسك بقيمة الفعل، والفعل / المحاربة، والذى تصبح فيه الشهادة وحماية الوطن – حين تدق طبول الحرب – أقدس قيم الإنسانية وأسماها، فتعلو أغنية الشهيد (حكاية «الأغنية الأبدية»)، متحدية الموت والعدم، لتردد رسالتها أبدا .

ويجد الهندى الأحمر المحارب وجهه الآخرالإنسانى فى التواصل، والوحدة القائمة على الانتماء المشترك للأرض. ها هنا تتراجع الحرب، ويصبح السلام ضرورة وجود، فيماتصبح الوحدة هى الطريق إلى القوة، والحماية من الغزو الأجنبى الخارجى .

وفى هذه الحكايات أيضا ينفتح المشهد لعالم الجن والخرافة

والسحر، ومغامرات أبطال يعشقون الاكتشاف والجراءة .

وإذ يحط زمن الانكسار والهزيمة ، يجيء البطل الأسطورى، ذلك «الكشاف العظيم»، ليقود شعبه - عبر الوديان والجبال- إلى أن تحين الساعة، ويكون الرحيل إلى الأرض/ الوطن، حيث الجاموس، والأيائل، ومنطقة «الجبال السوداء» فكما يقول «تاشونكا ويتكو» «الحصان المجنون» : «إن المرء لايبيع الأرض التى يعيش فوقها الناس» .

وليس التراث انتماء كليا للماضى، فهو ذلك النهر المتجدد أبدا عبر الحاضر والمستقبل، وذلك ما يتبدى ، بوضوح ، فى حكاية «سر الغليون» تلك الحكاية الحبلى بالعناصر الأسطورية الماضية (الطبيعة، البطل الأسطورى ، المعجزات الخارقة) وبتلك الوثائقية والشهادة المعاصرة (عمليات طرد الهنود الحمر من أراضيهم) .

وباستكمال الدائرة، وبدئها بالغليون ، تتكشف أهميته الخاصة لدى الهنود، فى تقديسهم - تاريخيا - له «واعتباره وسيطا لهم بينهم وبين آلهتهم، وهو الشاهد الدائم فى اجتماعاتهم واحتفالاتهم ومجالس تشاورهم، ومباحثات السلام بين قبائلهم المتنازعة. فهو كما يعتبرونه، عن حق - «غليون السلام» .

أما تلك العلاقة الحميمة التى نشأت بين الصبى «الأبيض» والغليون «الهندى»، فهى ترديد ملحمى لإمكانية التواصل بين البشر، متى اتحد المنبع والهدف.

راوية صادق

الليلة الأولى

حكاية الغليون الهندى

ذات يوم بعيد، فى زمن أجدادنا الأوائل، عندما كان السلام لايزال سائدا فى وطن هنود أمريكا، وسفن الوجوه الشاحبة لم تكن قد ظهرت بعد فى أفق البحر الكبير، دعا «الروح الأعظم» زعماء كل القبائل إلى اجتماع رسمى هام. وبهذه المناسبة، قام بتكليف الحيوانات بإعداد موقع المعسكر، وبأن يأتوا بالأخشاب لإشعال النار.

تعاون الدب والثور الأمريكى «بيسون» معا، ليسحبا جذوع الأشجار الثقيلة. أما الرنة الكندية ذات القرون المدببة، فقد شقت الجذوع وقسمتها، وقام «الشره» برصها الواحد فوق الآخر. حتى السنجاب نفسه ساهم – قدر استطاعته– فى هذه المهمة، فاخترق الغابة من كافة الاتجاهات لحصد الغصون الدقيقة. أما أكثر الحيوانات طرافة، فقد كان الأرنب الذى أخذ يأتى من المراعى بخصلات من التبن. ولأنها كانت تخرج من طرفى فمه، فقد جعلته شبيها بالقضاعة «تالاجوا» . وأحيانا كانت الأعشاب تتدلى بليونة من ذقنه، مثل اللحية الصغيرة لماعز الجبال المتقلبة الأطوار .

أما المهمة الأكثر خطورة، فقد خصصها «الروح الأعظم» لنفسه . أخذ يتفحص بدقة، وهو جالس فوق عرشه بالكوخ الهندى المنصوب

فوق السحب، كتل الأحجار والطين التى أتوا بها له من كافة أرجاء البلد الهندى. كان يحتفظ ببعضها، ويلقى بالبعض الآخر. وفى نهاية الأمر، وبعد أن أخذ شهيقا عميقا، نفخ بكل قوته فى الكومة الصغيرة المتراصة أمامه، مما أدى إلى تحول الحجارة والطين إلى تراب ناعم. عندئذ ، بلل أطراف أصابعه بماء البحيرات والأنهار. ثم حول «الروح الأعظم» هذا التراب إلى عجين، شكّل منه ، وهو يتلو فى همس رقية سحرية، غليونا سحريا، فكان الغليون الهندى .

وفى اللحظة التى احتاج فيها القمر إلى مجرد هلال صغير ليصبح قمرا، أنجز «الروح الأعظم» مهمته، نزل إلى الأرض، فى نفس اللحظة التى أتى فيها زعيم «الداكوتاس» الباسل إلى مكان اللقاء. وعندما تعرّف على «الروح الأعظم» تسمّر من الذهول.

قال له «الروح الأعظم» «ياقائد شعب مقدام، لاتخش شيئا واقترب. لقد أتيت بهدية لمعسكركم: هذا الغليون الهندى السحرى. إنه سيسجل فى ذاكرته كل الكلمات التى ستنطقونها هذا المساء. وفيما بعد ، ولايهم بعد كم من السنوات، سيكررها على مسمع كل من سيسأله: فلتحرص على أن تحكى شفاهكم – بحكمة – تجربتكم عن حياة الناس والحيوانات فى العالم الحالى. خذ، ها هوالغليون السحرى» . وما أن تلقى الزعيم الغليون الهندى ، حتى تبدد «الروح الأعظم » إلى دخان فى نسيم الغروب.

ثم ذهبت الشمس لتنام . وفى السماء أخذ أخوها القمر دوره بدلا منها. وتحت غلالة أشعة القمر. أشعلت نار كبيرة فى السهل، حيث

يلتقى الجبل بالبرارى، وحيث الغابة المكسوة بالثلج تلمس الصحراء القاحلة. أخذت النار تطقطق، وتلقى بوميض ذهبى على وجوه الهنود الحكماء؛ المعتزين بأنفسهم. لاشك أنها كانت أكبر نار أشعلت فى معسكر بلاد الهنود. فقدت تدفقت شعلات النار أعلى من كل أشجار الهنود، وكأنها تريد أن تبلغ عنان السماء. تحلّق زعماء كل القبائل حول النار: التحف بالفراء زعماء الغابات المكسوة بالثلج الأبدى، أما محاربو الجنوب، فقد تسلحوا بالشمس، وأما صيادو المراعى ، ذوو الوجوه الساحرة ، فقد كانت تسريحاتهم ثرية بالريش.

وفى الوقت الذى سكنت فيه أحذية الهنود، والقمر يتجول فى السماء الليلية، كان الغليون الهندى ينتقل من فم لفم، وهو يسجل، فى ذاكرته – وبدون أن يضيع كل شىء– كل كلمة من كلمات الأساطير القديمة التى حُكيت فى هذه الليلة المأثورة . ليلة التجمع الكبير فى بلد الهنود.

ومنذ هذه اللحظة، شهدت أنهار الشمال فيضانات ربيعية متعددة، وعادت المراعى إلى الازدهار عدة مرات؛ ونشبت حروب لا حصر لها... وانتهت. لكن الوجوه الشاحبة ، فى النهاية، طردت الهنود من أراضى صيدهم القديمة. لقد سقط الغليون الهندى فى النسيان الكامل. وظل ممددا فى التراب، وحيدا ، لايمنحه أحد بادرة اهتمام .

ولكن، حدث ذات يوم أن صبيا صغيرا كان يلعب فى أرجاء منطقة البحر، فوقع فى شرك هذا الشىء الغريب، فالتقطه، وأخذه

معه إلى المنزل، وعمل على تنظيفه وصقله عدة مرات، بشكل جيد، إلى أن تمكن من أن يعيد إليه جماله الأول .

وحلّ المساء، وأشعل والد الصبي الصغير حطب أشجار الصنوبر المقدد في المدفأة، وامتلأت الغرفة برائحة الراتنج الطيبة، وبظلال غريبة ، وبدأ مناخ الحكي في السريان. كان الغليون الهندى يرقد فوق المائدة، فيما الولد الصغير يتأمله، واقعا في شركه. بدا له أن ما يرقد أمامه ليس ببايب مثل أى بايب آخر. أليس هو الذى يقوم – فجأة– بالتمطى، كما لو كان يستيقظ من نوم عميق؛ وبعد أن أطلق الغليون نفثة غير محسوسة من الدخان، شرع في الحديث بصوت خفيض .

الضوء الأول

فى بدء الأزمنة، قبل أن تولد أقدم الأساطير - تلك الأساطير التى حكتها لى الحيوانات، كانت أمنا الأرض واقعة تحت سحر «النوم العظيم» والعالم ضائع فى الظلام، وكل شيء يلتف بالظلمة. بدا العالم وكأن موجة كبيرة من الحبر الصينى قد ابتلعته، لم يكن ثمة أي صوت يخترق هذا الصمت المطبق .

ولاشك أن الأرض لم تكن لتصحو أبدا من نومها، لو لم توجد سحابة بيضاء صغيرة. فقد حدث ذات صباح جميل، أن فتحت السحابة البيضاء عينيها. ولأنها لم ترى شيئا سوى السواد، فقد تركت بيتها الشمالى، وسارت ببطء في طريقها إلى الشرق. لكن سحابة سوداء هائلة أخذت تهدد الجو. إنها حارسة «النوم الأعظم»، وهى وحدها القادرة على شق غياهب النظر. وكانت تترصد دائما لأقل حركة فى أنحاء منطقة البحر، وما أن لاحظت السحابة البيضاء، وهى تتحسس طريقها لتشق دربا فى السماء، حتى نفثت كقط متوحش عكس اتجاهها، للقاء هذه المتطفلة ومعاقبتها .

وحدث أن تصادمتا - بالضبط - فوق بلد الهنود. إذ هجمت السحابة السوداء على أختها بكل قواها، وأصابتها بالذهول، ثم وجهت لها وابلا من الضربات. أما السحابة البيضاء، فلم تفقد

شجاعتها، وقاومت هذا الهجوم في بسالة .

وحده الإله «مانيتو» يعرف كيف كان يمكن لهذه الملاكمة أن تنتهي، لو لم يحدث شيء غريب لا سابق له. فخلال هذه المعركة الضارية، شرعت السحابتان تتصببان عرقا، إلى الحد الذي تراكمت فيه ذرات قطرات العرق، فكونت في النهاية مطرا .

خلقت هذه المياه السماوية الحياة في بلد الهنود. وأسرعت الحيوانات لمغادرة مخابئها تحت الأرض، حيث كان «النوم العظيم» قد تركها سجينة، وعندما هوت الموجة من هذا الارتفاع الشاهق، حفرت في الأرض حفرة كبيرة خرجت منها كل الحيوانات فبدأوا، من هذه اللحظة ، بالحياة في سلام ومحبة. واقتسموا أراضي الصيد، من السهل الشاسع حتى حدود بلاد الثلج، واخترقوا الجبال وممراتها التي تواجههم. وقبل ذلك بقليل ، شرع كل كائن في بناء بيته. لكن شيئا ما ظل ناقصا حتى الآن في العالم، شيئا لم يكن أحد قد شاهده أبدا: الضوء ، إذ أن الأرواح الشريرة كانت قد حملته بعيدا، عندما كان الجميع مستسلمين للنوم العظيم، إلى حد أن العالم كله كان يعيش في غياهب الظلمات.

ولحسن الحظ، فإن جزءا صغيرا من السحابة البيضاء ظل هنا عاليا في السماء. كانت السحابة تشعر بقوتها تخور بعد هذه المعركة الكبيرة، فزخذت – لذلك– تتحرك بالكاد. عندئذ، نادت على صديقتيها تستجير بهما : السحابة الزرقاء والسحابة الصفراء .

كانت السحابة الزرقاء تسكن بعيدا عن هذا المكان، في أقصى

الاتجاه الآخر من البحر. أما السحابة الصفراء، فكانت تعيش في الشرق. فاستيقظتا على نداء السحابة البيضاء لهما، وطارتا نحو صديقتهما بأقصى ما يمكن للريح أن تحملهما .

وبدلا من كلمات الترحيب، عرضت السحابة البيضاء عليهما الوضع، وقالت: «لقد استيقظ العالم من نومه العظيم، وهو يحتاج إلى الضوء الآن. لهذا ، ناديت عليكما للمساعدة، يجب أن نضيء بلاد الهنود» .

فقالت السحابة الزرقاء محتجة : «آه ... ذلك سيرهقني» . وأضافت السحابة الصفراء «بالنسبة لي، أعتقد أنه من الصعب أن أظل طويلا في نفس المكان . فقالت لهما السحابة البيضاء بصوت حاسم : «هذا لايهم، وعلى أية حال، إن ضوءنا ، لن يكفي أحدا . افعلا ما أطلبه منكما، وسرعان ما ستتمكن، كما سترون بأنفسكما، من الاندفاع في السماء كما يروق لنا» .

لم تحتج الصديقتان أكثر من ذلك. فنزلتا إلى أسفل قدر استطاعتهما وألقتا – بكل قواهما، بقناديلهما الملونة نحو الأرض وهكذا، تكوّن ضوء شاحب صغير أضاء العالم كله إضاءة ضبابية. لكن الحيوانات عرفت – جيدا – أنها تواجه ، في ذلك الحين ،أول مهمة صعبة : أن تأتي بالضوء الحقيقي .

من الذى أتى بالشمس

كما سبق وأن رأينا، لم تكن الشمس ولا القمر - حتى ذلك الوقت- يتألقان على الأرض. وكان من المستحيل عمل أى شىء. ولم يستطع أحد أن يرى فى الظلام، عدا البومة التى تمكنت من تبديده بعينيها الشبيهتين بالفنار.

أما الذئب الأمريكى الصغير، فقد أخذ وزنه يتناقص بطريقة تفتت الأكباد فلقد حاول عبثا الذهاب للصيد كل صباح. ولكنه لم يتمكن من اصطياد صغار الأرانب، وأحيانا ، كان عليه أن يكتفى بجرادة يعثر عليها بالصدفة، ليخفف - للحظة- من آلام جوعه .

وفى أحد الأيام، وبينما كان الذئب مضطجعا أمام جحره، وهو يدير عينيه الجائعتين، سمع فجأة - هدير أجنحة قوية . كان النسر قد أتى لزيارته. فركع الذئب الأمريكى الصغير مطأطئا أمام ضيفه رفيع الشأن، وقال له : «يالها من سعادة لايمكننى حتى أن أحلم بها. أهلا ومرحبا بك، يا أخى . كم كان يسعدنى أن أدعوك إلى الغداء، ولكن لم يتبق لى فى خزانة الأطعمة ، للأسف، حتى مجرد عظمة بالية، إننى أتضور جوعا كما ترى، ولا أتمكن من جرجرة نفسى إلا بشق الأنفس، ولا شك أنك فى حالة أفضل. لكم كنت أحب أن أصحبك فى الصيد» .

فكر النسر وهو يتفحص الذئب الأمريكى الصغير من قدميه حتى رأسه قائلا فى نفسه : «إنه خيال مآتة حقيقى، مجرد جلد على عظم!» . غير أنه أجابه بصوت عال: «يمكننا المحاولة إذا أردت. لكن يجب أن تساعدنى جديا» .

قفز الذئب الأمريكي الصغير فوق رقبته، واحتضنه بفخذيه الصغيرتين بشكل كاد أن يخنقه فيما لو كان أكثر قوة، وصرخ بفرح : «اتفقنا يا أخى العزيز».

وفى اليوم التالى ، وعند بزوغ الفجر ، ذهب الشريكان للصيد معا. كان النسر يحلق عاليا فى السماء، ويرسم فيها الدوائر، وعندما يكتشف بنظره الثاقب الفريسة، ينقض عليها ورأسه للأمام. أما الذئب الأمريكى الصغير، فقد عاد خالى الوفاض. بل لم يحاول أن يصيد أى شىء. ولتواضع كرامته ، فإن اقتسام وليمة شريكه يكفيه تماما .

لكن النسر أنبه، مبديا عدم رضائه «لا أعرف ماذا أفعل مع مساعد كهذا؟» وأضاف «إنك حتى لاتتعب نفسك بدفن العظام التى قضمتها، وتترك كل شىء مبعثرا حولك»، فأجابه الذئب الأمريكى الصغير محاولا الاعتذار «ولكن كيف أستطيع القيام بهذا العمل؟ الظلام شديد لدرجة أننى لا أستطيع رؤية طرف أنفى. ما ينقصنا – كما ترى – هو الضوء».

فأيده النسر «أنت على حق، هذا هو ما نحتاج إليه» ، وأضاف: «لقد سمعتهم يقولون إن فى الشرق – بعيدا جدا عن هذا المكان–

يختبىء ضوءان كبيران، وهم يسمون أحدهما الشمس، والثانى القمر. هيا بنا نبحث فى هذا الاتجاه، فربما استطعنا اكتشافهما».

وصحبا القول بالفعل. وسرعان ما انطلقا فى الطريق. كان الذئب الأمريكى الصغير يسير، بينما النسر يحلق طائرا فى السماء. وها هما أمام نهر واسع، فتخطاه النسر بضربة من جناحيه، ثم حطَّ على الحافة الأخرى من النهر. أماالذئب الأمريكى ، فقد تردد أمام هذه المياه غير مأمونة الجانب، وقد شعر بالتوجس من فكرة العوم فيها. لكنه قرر فى نهاية الأمر ، أن يقفز فيها. أخذت رأسه – بين الحين والحين – تغطس فى العنصرالسائل، ثم تطفو من جديد، وعيناه تخرجان من محجريهما أثناء تجديفه بأرجله الأربعة.

وعندما شعر بنفسه على الأرض الصلبة، انفجر فى النسر ساخطا «كنت على وشك الغرق. وأنت هنا كما لو أن شيئا لم يحدث. لماذا لم تنتظرنى لأعبر النهر جوا؟» .

أجابه النسر ساخرا، وهو يصقل ريشه المتألق بحب «وأنت، لماذا لم تترك ريشك ينمو؟ فمع الأجنحة ستتمكن – مثلى تماما – من الطيران فوق النهر ، دون أن تتعرض لخطر الغرق» .

إلا أن الذئب الأمريكى الصغير لم يمنع نفسه من أن يقول له «إنك لأحمق كبير. أتمنى أن أراك وقتها!» .

لكنه تذكر – بعد تفكير– أنه ليس من الحكمة إثارة النسر، فوضع حدا للأمر، وأنهى مشاكساته ، وها هما – من جديد يسيران فى الطريق، أصدقاء كما كانا.

كانت المناظر الطبيعية تتغير، رويدا رويدا، وتتحول كليا. وبدا في استطاعة المرء أن يرى تدريجيا حدود الصخور والجبال، وهي مرسومة بشكل أوضح. كانا يقتربان من الضوء. وفجأة تحول النسر عن مساره، وأخذ يرسم دوائر تزداد انخفاضا. وبسرعة، تسلق الذئب الأمريكي الصغير - في فضوله- قمة هضبة كانت تحجب عنه الرؤية. وجد كوة واسعة تمتد عند بداية هذه الربوة، تلهو فيها مخلوقات غريبة وتمرح، تقفز وترقص على أنغام أغنية شاذة. وكانت وجوههم ملطخة بالألوان في بشاعة حتى أن وبر جلد الذئب الأمريكي الصغير وقف من الرعب.

«هس!» قال له النسر محذرا، بعد أن رسا بالقرب من صديقه، وأضاف هامسا «أنهم الكاتشيتيون، الأرواح الشريرة!».

سأله الذئب الأمريكي الصغير متلعثما وأسنانه تصطك من الرعب «أ.. أ.. ألن يؤذوننا».

قال النسر، مشيرا بحركة من منقاره إلى مركز الدائرة «لاتخش شيئا، إنهم يجهلون مجرد وجودنا. أترى هذين الصندوقين الموجودين هناك؟». وفي أقصى أرجاء المكان، قام أحد الراقصين برفع الغطاء عن أحد الصندوقين. فأضاء دفق النور الفتحة. فسأل الذئب الأمريكي الصغير مبهورا «ماهذا؟».

فشرح له النسر قائلا: «في أحد هذين الصندوقين خبأوا الشمس، وفي الآخر القمر».

- هل تعتقد أننا سننجح في...

- بالتأكيد ! لكن يجب أن ننتظر حتى يذهب الكاتشينيون للنوم. لكن بالله عليك، كف عن الارتجاف هكذا، فأنت تزعجني!».

فخبأ الذئب الأمريكي رأسه بين فخذيه من شدة الخوف.

وأخيرا، بعد مرور فترة من الوقت، انتهت الرقصة. وشرع أفراد الكاتشنيا، الواحد بعد الآخر، في التمدد- منهكي القوى- على الأرض ليستريحوا. وسرعان ما علا شخيرهم، حتى إن الصخور المحيطة بهم أخذت ترتج من شدة الصوت.

كانت تلك هي اللحظة التي انتظرها صديقانا. وبسرعة السنونو، هجم النسر على الصندوقين، وبضربة واحدة، اختطفهما- هما الاثنين، والتقطهما بين مخالبه، واختفى في السحب. أما الذئب الأمريكي الصغير، فقد وضع ذيله بين أسنانه، وركض بسرعة في نفس الاتجاه.

ولم يغامر الذئب الأمريكي الصغير بإلقاء مجرد نظرة صغيرة حوله، قبل أن يبلغ السفح الآخر لأول جبل في المنطقة. ولحسن حظهما لم يطاردهما أحد. فقد كان الكاتشينيون يغطون في النوم كفأر سنجابي، ولم يكن لديهم أدنى فكرة عما يحدث.

وأخذ الذئب الأمريكي الصغير يحدث نفسه «ترى، ما هو شكل الشمس؟ والقمر؟ لابد أن القمر جميل جدا. إنني أهفو إلى إلقاء نظرة على هذين الصندوقين!».

فرفع رأسه ونادى على رفيقه من بعيد:

- «ألست متعبا يا أخي الشقيق؟».

لكن النسر اكتفى بالضحك. ثم أجابه وسط ضحكاته «ليست إلا معركة صغيرة بالنسبة لى ! يمكننى أن أحمل هذين الصندوقين بسهولة حتى آخر الرحلة».

– «لكننى أعتقد أنه ليس من الملائم، بالنسبة للنسر، ملك الحيوانات، أن يتحول إلى مجرد حمال الحقائب» .

– «لاتشغل بالك: فأنا لا أهتم بالمظاهر».

فأجابه الذئب الأمريكى الصغير ملحا: «لكن ، ماذا سيقول الآخرون عندما يشاهدونك وأنت تجهد نفسك هكذا؟ لابد أنهم سيصبون جام غضبهم علىّ فى نهاية الأمر». وأخذ يدلى بالحجج ، وينمق فى أقواله، ويخترع كافة الأدلة، ليحمل النسر على تسليم الصندوقين له، ليتمكن من إشباع فضوله، وأخيرا، قررالنسر أن يضع حمولته الثمينة على الأرض، وقال له : «حسنا، أنت على حق، اتفقنا. ولكن كن حذرا وأنت تنقلهما، وكن حريصا ، وعلى وجه الخصوص : لاتفتح الصندوقين» ثم استأنف طيرانه من جديد.

وعندما رأى الذئب الصغير النسر وهو يحط على قمة جبل عال فى انتظاره، لم يستطع السيطرة على فضوله أكثر من ذلك. وبهدوء شديد، رفع غطاء الصندوق الأكبر .

«ياه! هتف الذئب الأمريكى «إنه جميل ! إنه شىء رائع ! كما لو كان ذهبا». وفكر وهو يدس بأفخاذه من خلال الفتحة «سأقوم بتدفئة يدى قليلا فى هذا الصندوق» .

إلا أنه سرعان ما صرخ، وهو ينتشل فخذيه» آى! إنها تحرق!»

لكنه أثناء اضطرابه هذا ، قام بحركة مباغتة، فسقط غطاء الصندوق عنه. وقبل أن يكون لديه الوقت لرد الفعل ، قفزت الشمس إلى الخارج، وبسرعة البرق، وصلت إلى ارتفاع شاهق يبعث على الدوار، فضم الذئب الأمريكي الصغير أفخاذه المسلوخة، وأخذ يتوسل إليها أن تعود. لكن الشمس استمرت في الصعود إلى مسافات أكثر ارتفاعا، دائما إلى أعلى، دون أن تعير توسلاته أدنى اهتمام.

عندئذ فكر الذئب الأمريكي «يجب أن أبعث بالقمر ليبحث عن الشمس». فرفع غطاء الصندوق الثاني، مدفوعا بهذه الرغبة. وقبل أن يتمكن من أن يعرض على القمر مايريده منه، نهض القمر وقفز في السماء. وذهب ليختبيء في ظل الشمس، دون إحساس بأي شفقة نحو الذئب الأمريكي، مثلما فعلت الشمس.

وأمام هذين الصندوقين الخاليين، ألقى الذئب الأمريكي الصغير بنظرة خائفة نحو النسر، فقام الطائر الامبراطوري بالتحليق إليه بسرعة، وعنّفه بعبارات خشنة :

- «أرأيت ما فعلت الآن، ؟ بدلا من الضوء الأبدي ، سنحصل على الليل والنهار اللذين سيتعاقبان بلا نهاية. والسبب الوحيد هو أنك تركت الشمس تهرب».

أحنى الذئب الأمريكي رأسه وهو يشعر بالذنب، وقال له في مسكنة : «إنني آسف. لم أفكر في ذلك... لكن لايمكن لأحد الآن أن يأخذ الشمس. إننا واثقون من أن الكاتشينيون لن يسجنوها أبدا».

وافقه النسر ، الأمير الطيب، على رأيه، وقال له :«إذا ما فكرنا

بعمق فيما تقول ، فإن فى قولك شيئا من الحق. وعلى أية حال، أنصحك بأن تحتفظ بهذه القصة لنفسك، إذ لن يصدقك أحد إذا ما حكيتها له».

وفتح النسر جناحيه، على أقصى اتساعهما، ليودعه، وعاد إلى الطيران نحو الجبل العالى .

أما الذئب الأمريكى، فقد استأنف سيره ليعود إلى منزله فى المراعى. كان يصفر فى مرح، ويتسلى بالفرجة، يمينا ويسارا - على المناظر بطريقة لم تحدث له من قبل. إذ، كما ترى ياصديقى، ففى هذه اللحظة الدقيقة كان أول يوم من أيام الصباح قد ولد لتوه فى بلاد الهنود الحمر .

أسطورة النار

فى هذا الوقت، كان بلد الهنود الحمر يستحم فى أشعة الشمس، عدا منطقة الوادى العميق. هناك ، كان الشتاء القاسى مستمرا فى الحكم دون راحة، والحيوانات - كلها- واقعة تحت رحمته. عدا الدب وحده، بفروته السميكة الغزيرة.

وفى ليلة لاتمحى ذكراها، انفجرت عاصفة رهيبة، جعلت الأشجار تتلوى وتنخلع من جذورها، وانتزعت الصخور، ودمرت كل شىء فى طريقها. وبالرغم من ذلك، ففوق جزيرة صغيرة، وسط المياه الكثيرة، أخذت شجرة جميز وحيدة تقاومها. كانت تسخر منها، ولا تولى العاصفة الهوجاء أدنى اعتبار، وهى تدندن - فرحة ، بأغنية عن جمال الصيف .

أدى هذا الزهو إلى مضاعفة غضب العاصفة، فصرخت قائلة : «سوف أقتلك» . وألقت بوميض من النار فى قلب شجرة الجميز الشجاعة.

ولكن، ياله من حدث رائع، بل أروع من أى شىء يحدث. فها هو الغناء المتحدى ما زال يصل إلى الأسماع. فقد استقبلت النار هذا الغناء من قلب شجرة الجميز ونقلته إلى أمواج البحيرة، التى نقلته بدورها إلى الشاطىء، ومن هنا انطلق بعيدا، عبر الحقول .

ومع مرور الوقت، هدأت العاصفة، وكان الفجر على وشك البزوغ. فتركت العاصفة عملية التدمير خلفها، وسارت فى طريقها نحو الشمال. وكان الرعد لايزال يتسحب - رويدا رويدا - فى لحاء الشجرة، ويترصد فريسته : شجرة الجميز المصعوقة.

لم تعد الشجرة تغنى . فقد أوشك جذعها وفروعها على الفناء، فى الوقت الذى كان فيه عمود من الدخان الأزرق يصعد نحو السماء .

وسرعان مالاحظت حيوانات الوادى العميق هذا الدخان.

فحلّق الصقر عاليا فى الفضاء، ليرى من أين يأتى الدخان. ثم صرخ فى الحيوانات الموجودة أسفل: «الحقوا النار. النار فى الجزيرة».

فسأله الآخرون - الذين لم يسبق لهم رؤية النار .« ما هو شكل النار؟» .

فأجابهم الصقر« إنها حمراء وصفراء وتغنى هذا كل ما أعرفه عنها» عندئذ، صرخ العنكبوت قائلا: «النار صديقتنا. وإذا أتينا بها هنا، فستجعلنا نشعر بالدفء، أتريدون أن أذهب لآتى بها؟» .

- «أنت ؟» انفجرت البومة ضاحكة بسخرية، «إن أفخاذك مثنية، لذا، فستستغرق منك رحلة الذهاب والعودة وقتا يساوى وقت نوم السلحفاة، سأذهب أنا بنفسى» .

وفتحت البومة جناحيها على أقصى اتساعهما، وطارت فى اتجاه الجزيرة. لكن اتضح، على أية حال، أن إحضار النار كان مهمة أصعب مما يعتقد أي مخلوق . فعندما أرادت البومة أن تلتقط جمرة

متوهجة، حرقت بومتنا مخالبها، فتركت غنيمتها على الفور. بل إن ريشها أحمرَّ قليلا. وكم كانت سعادتها بالعودة لبيت العائلة، دون خسائر. فحطت وهى آسفة على فرع شجرة، وقالت لمواطنيها فى اعتذار :«النار لاتريد أن تتعامل معنا؛ وهى لم تتفضل حتى بالكلام معى، وكانت على وشك أن تفتك بى».

– «أنا جلدى متين»، قال الثعلب ذو الجرس بفخر «سأذهب إلى هناك، وأرى ما الذى يمكن أن أفعله لآتى لكم بالنار».

لكنه هو الآخر عاد بسرعة، وقد طردته نهشات النار المتوحشة. «النار تملك قدرات خارقة»، قال الثعلب ذو الجرس للآخرين، الذين أصابتهم خيبة الأمل لرؤيته عائدا خالى الوفاض. «لقد أحرقت كل جسمى وجعلت لون جلدى يتحول إلى الأحمر. لن يتمكن أحد من أن يجعلها تغادر الجزيرة».

قال العنكبوت ساخطا:« وأنا هل نسيتمونى؟ أنا أيضا أملك قدرات خارقة. ومن يعلم، فربما أنجح. فأنا أعرف كيف أتصرف فى هذه المسألة».

والحق يقال، لم يصدق أحد من الحاضرين ما قاله العنكبوت. لكن لم يتمسك أحد بالسخرية منه. كلهم أصابه الفضول، وأرادوا رؤية كيف سيتصرف العنكبوت ليحقق وعده .

لم يبد على العنكبوت أنه يتعجل الرحيل. فقد ذهب أولا إلى ركن بعيد، وأخذ لفافة كبيرة، ربطها بعناية قبل أن يضعها على ظهره، ثم أقلع نحو الجزيرة، وهو فى زينته تلك .

كلّفه المشوار الكثير من الوقت والجهد، فقوائمه المثنية لاتمر بسهولة من بين العقبات. وعندما غطس فى البحيرة، تلقفته الأمواج بلا رحمة، وكان عليه - ولفافته الثقيلة فوق ظهره، أن يبذل الكثير من الجهد ليظل طافيا. باختصار، شعر براحة هائلة عندما أحس بالأرض الصلبة تحت قوائمه، ودون أن يسترد أنفاسه، توجه إلى وسط الجزيرة. وهناك، اضطر إلى أن يلتقط أنفاسه للحظة. وبعد ذلك، شرع فى مهمته بعزم وتصميم. فسحب من لفافته- وكانت كبة غزل- طرف خيط طويل جدا. وفى أناة، أخذ يلف الخيط حول جمرة اختارها من أقوى الجمرات. وكان يرقص - أثناء عمله هذا- إحدى الرقصات السحرية المعروفة بين العناكب لمنع النار من حرق الخيط، وعندما انتهى من لف الخيط حول الجمرة، وأحاطها به كما الطفل فى قماطة، وضعها فى أعماق لفافته، وبعد أن حمل غنيمته الثمينة، اتخذ طريق العودة.

كانت كل الحيوانات فى انتظاره بفارغ الصبر. وعندما وصل إليهم، أحاطوا به، والكل يتزاحم حوله ليكون أول من يعرف كيف تصرف فى هذه المسألة. هز العنكبوت لفافته، ليخرج منها الجمرة المتوهجة، وهو يقول لهم :«لقد تركت لنا شجرة الجميز الشجاعة صديقا سيبعث فينا الدفء علينا أن نعتنى به دائما وأن نغذيه ، وإلا ستنطفيء ناره».

- «إنه لايأكل كثيرا؟»» قال الهمستر بقلق ،لخوفه على مواده التموينية. فقال العنكبوت مطمئنا:«اطمئن بالا، فالنار لاتأكل سوى

الخشب الجاف».

«لكن الخشب كله مبلول بعد هذه العاصفة!» .

فقالت شجرة السندره سأعطى لها قشرة من جذعي، فهي تحترق جيدا، حتى وهي مبللة تماما»، وأثناء كلامها هذا ، أسقطت من جذعها قشرة كبيرة بيضاء . فانتزع السنجاب منها قطعة متوسطة، وقربها من الجمرة . فتشكل لسان من النار لونه أصفر محمر، سرعان ما أصبح أعلى و أوضح ، ليطرد - بهذه الطريقة - البرد .

ومنذ ذلك الحين، لم تنطفىء النار أبدا عن الوادى العميق. فالسنجاب يعتني بها خلال النار. وعندما يأتى الليل ، تجتمع كل الكائنات حول النار، وتغنى كلها فى صوت واحد هذه الأغنية، التي يمكنكم أن تسمعوها اذا ما أصغيتم جيدا :

عندما تشتعل النار، واضحة وعالية

فلنجتمع جميعا فى فتحة الغابة .

ولننشد - حول النار - جميعا فى صوت واحد،

إذ لاشيء أفضل من ذلك .

الطوفان

فى أحد أيام الشتاء، فى ذلك الزمن البعيد، حين كان العالم لايزال شابا فتيا لاخبرة له ، بدأ الثلج فى السقوط. أخذ الثلج يتساقط بشدة، بشدة كبيرة جدا وبلا انقطاع، ندفة وراء الأخرى ، من السماء. كان البلد قد تغيرت معالمه، حتى لم يعد من الممكن التعرف عليه أبدا بعد ذلك. فقد محا الثلج معالم الدروب المألوفة، وملأ الوديان، وغطى البحيرات، التى اختفت تحت معطفه الأبيض .

وكانت الحيوانات قد لجأت إلى خيمة مصنوعة من جلد الدواب، وتحلقت حول نار جميلة. كانوا يناقشون مشكلة خطيرة: كيف يستعيدون الجو الصحو الذى اختفى دون أن يعرف أحد منهم أين. بذلوا قصارى جهدهم فى التفكير، دون جدوى، ودون أن يعثروا على فكرة ما ذات قيمة. وأخيرا، اقترح عليهم السنجاب الاقتراح التالى:«لقد جاء الليل وتعبت النار ولم تعد تغنى،فلنخلد إلى النوم، فالليل يأتى بالنصيحة. وصباح غد، ستكون أفكارنا أكثر وضوحا» . فذهبت الحيوانات لتخلد للنوم، عدا السنجاب، الذى تمدد بالقرب من النار، ووضع ذقنه بين قائمتيه الأماميتين ؛ فيما بقايا النار الحارة تهدهده وهى تأفل، والهواء الرقيق يداعبه وهو يمر عبر الباب المفتوح. فتراءى له حلم غريب.

رأى دبا ينتقل بين أرجاء العالم. دب يشبه الدب الذى يعيش فى الناحية الأخرى من البحيرة، كأنه أخوه، رآه يكدس - فى جراب كبير- كل ما يجد في طريقه: كان يخفى فى جرابه عش الغراب، وعسل النحل، والجو الصحو. وكان مجرد أخذ الجراب من الدب يكفى لفتحه وتحرير الجو الصحو .

فرك السنجاب عينيه ليستيقظ. وبسرعة ، نادى زملاءه حتى لاينسى حلمه، وهو يقول لهم : «فلينهض الجميع. فأنا أعرف من أخذ منا الجو الصحو».

فاستيقظ الجميع على صوت السنجاب، بما فيهم «الغرير» المعروف بقدرته على النوم فى كافة الظروف. وكما الجميع، قام وأرهف السمع إلى كل ما كان السنجاب المنفعل يقوله : «لقد رأيت الدب فى الحلم وهو يخبىء الجو الصحو فى جراب فلنجر بسرعة لنمسك به» فاقترح الثعلب «لنأخذ قاربا نعبر به البحيرة» وفى وثبة واحدة، اندفعت الحيوانات خارج كوخ «الويجوام».

وألقوا بقاربهم فى أمواج البحيرة، وجدفوا بقوة نحو الضفة الأخرى. واستغرقوا وقتا أقل مما يستغرقه سردنا للحكاية .

بدا عرين الدب مهجورا ، فترددوا فى الدخول . لكن كل شىء كان يبدو ساكنا وهادئا بالداخل.

كان السنجاب أول من قرر إلقاء نظرة على الداخل. وعلى الفور، أطلق صيحات فرح. فقد وجد الجراب هناك، فى ركن بعيد مثلما فى الحلم الذى تراءى له. فنادى على الآخر وقال لهم : «تعالوا بسرعة

وساعدونى!» .

كان الجراب ثقيلا جدا . وحدها الرنة الكندية هى التى استطاعت رفعه، فحملته إلى القارب، يصحبها الآخرون.

فقال الثعلب: «عندمايعود الدب، سيفهم ماجرى! وسيجرى وراءنا . من منا يملك أسنانا قوية؟».

– «أنا» صاح صوت نحيل .

– «أنت ، يا فأرة»؟

– «نعم . أنا التى تملك أكثر الأسنان حدة»، كررت الفأرة بفخر .

– «حسنا إذن، اذهبى واقرضى مجداف الدب، ودبرى أمورك بحيث لايمكن رؤية المكان الذى قرضته».

فذهبت الفأرة لتقرض المجداف فورا ، لتثقبه فى جانبه العريض.

«بسرعة ، بسرعة» قالت لها الدواب الأخرى مستعجلة، فقد أصبح بالإمكان سماع نخير الدب العائد إلى البيت .

لم يكن لدى الفأرة الوقت الكافى لإنهاء عملها ، فقد بدأت خطوات الدب الثقيلة فى الاقتراب ، فهربت وقفزت فى القارب ، حيث ينتظرها أصدقاؤها فى شوق. كانوا قد غادروا الضفة لتوهم، عندما وصلت إلى مسامعهم زمجرات غاضبة، لقد اكتشف الدب السرقة .

فصاح الدب: «انتشروا حتى أقبض عليكم. وسترون!».

واختطف مجدافه بأحد فخذيه ، وألقى بقاربه بالفخذ الآخر، وأخذ يجدف عاليا ، فعاليا، ومع كل ضربة من مجدافه، كان يقطع شوطا كبيرا . وكادت تكفيه ضربة أخرى من مجدافه ليلحق بهم. ولحسن

حظ أصدقائنا ، انكسر المجداف المقروض فى هذه اللحظة، ففقد الدب توازنه وسقط فى الماء وغرق. بينما ظل قاع قاربه معلقا فى الهواء .

شعر أصدقاؤنا الصغار بالارتياح، وعندما وصلوا إلى ضفتهم، جرّت الرنة الكندية الجراب على الساحل الرملى، وحلت رباطه على الفور .

فقفز الجو الصحو بلا تردد فى الهواء الطلق، وأخذ يجرى فى أنحاء المنطقة، فذاب الجليد بسرعة. ولكن ، ها هو الماء يتكاثر، ويزداد بكثرة فى كل مكان، فالتقت الجداول بالأنهار وشكلت نهرا كبيرا غمر الوادى كله. وفاضت البحيرة أيضا، وحملت المياه كل ما كان قائما فى طريقها فتجمعت الحيوانات على قمة أعلى جبل، حيث أصبح الملجأ الوحيد المتبقى لهم .

إنه الطوفان! ظلت قمة هذا الجبل هى الشيء الوحيد الظاهر على سطح هذا الكم الهائل من المياه، فشرعت الحيوانات تتشاور فيما بينها وتبحث عن كيفية إنقاذ نفسها. كانوا – فى بادىء الأمر – يأملون أن تنسحب المياه رويدا رويدا. لكن شيئا من ذلك لم يحدث .

فتقدمت القضاعة بالاقتراح التالى: «سأغوص وآتى لكم بالطين. وإلا فسنموت كلنا هنا».

وبعد أن أخذت نفسا عميقا، اختفت تحت الماء، مكثت طويلا تحت الماء قبل أن تعاود الظهور على السطح؛ فبدأ أصدقاؤنا يشعرون بالقلق. وعندما انبثقت من الماء أخيرا، وهى تحمحم وتلفظ

الماء، قالت لهم :

«إننى آسفة، فلم أستطع الوصول إلى الأرض. فليحاول حيوان آخر».

فتطوع «الزنجور» للقيام بهذه المهمة، ومكث مدة أطول من المدة التى مكثتها القضاعة، إلا أنه لم ينجح هو أيضا فى المهمة.

عندئذ، جاء دور البطة. فغاصت فى الماء ونزلت مثل حجر، بدت رحلتها نحو الأعماق وكأنها بلا نهاية. وبدأت تراودها فكرة العودة، خالية الوفاض ، عندما شعرت فجأة بالأرض .

فوضعت فى راحتى يدها أقصى ما تستطيع من الطين، وصعدت بسرعة إلى السطح، إذ كانت على وشك الموت غرقا .

والحق يقال أنها لم تحتفظ إلا بكمية صغيرة جدا من الطين بين راحتيها ولكنها، على الأقل، وجدت المكان الملائم، وأصبح بإمكانها أن ترشد الآخرين.

وهكذا استطاعت الدواب المائية، عندما وحّدت جهودها ، أن تأتى بكل الأرض الهندية من أعماق المياه. ثم عادت كل واحدة منها إلى منزلها، سعيدة بانتصارها على الطوفان .

كيف أتى الهنود الحمر إلى العالم؟

قال الغليون الهندى للصبى الصغير : «ربما ظننت - الآن- أننى أحكى لك، فى حكاياتى تلك عن بلد الهنود، عن كل شىء سوى عن أهل البلد أنفسهم... اطمئن فأنا لا أنساهم، ولكنك تعلم أنه فى هذه الأوقات البعيدة- والبعيدة جدا، كان الهنود يعيشون في جنتهم، فوق السحب، دون أدنى فكرة عما يحدث هنا .

هناك فوق ،كانوايجدون كل مايحتاجون إليه. وانحصر همهم الوحيد فى العثور على سحابة صغيرة جميلة، مستديرة ومخملية، لتهدهدهم من الصباح للمساء، ومن المساء للصباح .

وعلى أية حال، فالناس لايشعرون بالسعادة والرضا بمصيرهم،كما هو معروف. فقد بدأ بعض الهنود يشعرون بالضجر من هذه الحياة الهادئة الصغيرة فوق السحب. وكانوا لايكفون عن التساؤل . فعلى سبيل المثال أرادوا أن يعرفوا لماذا تذهب الشمس ليلا إلى خيمتها؟ وما الذى تفعله طوال الوقت نارا؟

فقام «شاجوديوج» أشجع الهنود الحمر، وأرسل رواد استطلاع ليراقبوا عمليات ذهاب ومجىء الشمس. وعندماحصل على المعلومات المطلوبة، جمع الصيادين وقال لهم :

- «سنشيد فخا هائلا لنأسر الشمس. فقولوا للنساء أن يضفرن حبلا متينا من وبر السحب، حتى يكون لدينا ما نربط به الشمس».

غير أن خطة «شاجوديوج» - رغم هذا- لم تحظ بموافقة الجميع. فلم يرفع أحد عينيه عن الورق الذى يخربش فيه، أو عن الكتب التي يقرأها. وغمغم آخرون ببعض الملاحظات الساخرة عن الأفكار الغريبة التى يمكن أن تراود بعض الناس، وذهبوا وهم يهزون أكتافهم.

ورغم هذا الإخلال بالواجب، وجد «شاجوديوج» بعض الأنصار الحازمين. وكان رواد الاستطلاع قد عادوا لتوهم ومعهم معلومات قيمة: إن طريق الشمس طويل جدا جدا. فهى تذهب إلى أقصى الجهة الأخرى من السماء، وهناك، تختفى - دائما - فى حفرة كبيرة، تنبعث منها رائحة احتراق، ولاشك أنه أفضل مكان لنصب الفخ .

احتاجوا ليوم كامل - تقريبا - لينصبوا الفخ للشمس بين السحب. كان عملهم شاقا، فلم تكن هناك أرض صلبة، حيث مجرد صخرة متوسطة الحجم ستكفى لتثبيت الفخ. وفى هذه الظروف السماوية، كان عليهم تجميع كومة كبيرة من السحب، وتبديل اتجاه الهواء الخبيث لمنعه من محاولة هدم الفخ .

ولم ينتظر الصيادون فى مكمنهم إلا لحظة اقتراب الشمس من فتحة منزلها الليلى. وكانت أشعتها التى تشبه - فى نعومتها - ملمس الفراء الحريرى، قد بدأت تحرق وجوههم . وأصبحت حرارتها غير محتملة. ورغم ذلك، فلم يترك أى صياد موقعه ، وها هى الشمس تقترب أكثر فأكثر، تقترب جدا، جدا.

«كلاك»! وها هو الفخ ينغلق محدثا صوتا هائلا. فقفز الصيادون

نحو فريستهم بسرعة البرق، وقبل أن تدرك الشمس العملاقة ما جرى لها، كانت قد أصبحت مقيدة تماما .

وعندما رأت الشمس أنها وقعت فى الأسر، انتابها غيظ لايوصف، فأخذت تطلق نار أشعتهاعلى الأغلال دون هدف، وتنفث النار - بحنق شديد- فى كافة الاتجاهات . لكن دون جدوى.

كان «شاجوديوج» يستحث محاربيه، وكانوا كلهم - بما فيهم النساء والأطفال، يشدون بكل قوتهم على الحبل، ليهدئوا من فريستهم الهائجة.

ولشعورها بالغيظ، فلم تستطع الشمس الركون إلى السكون، بينما السماء تهتز فى طرفى الأفق. وبدأ الفخ فى التراخى، فأصبحت المعركة أكثر خطورة. وكان الهنود يسقطون وينهضون من جديد، فى الوقت الذى احتجّت فيه السماء -نفسها - مثل فرس السهول البرى.

أما الأرواح الحائرة، الشاحبة من الخوف، فقد ظلت متبلدة فوق السحابة، وهى تخفى وجوهها خلف أوراقها. وفجأة، التقطت إحداها فأسا، وألقت بها فى السماء ، فأحدثت انفجارا قصيرا، فسقط الجميع: الشمس والصيادون، وأخذوا يهبطون نحو الأرض .

ولفظت الوجوه الشاحبة تنهيدة ارتياح، والتقطت وريقاتها المبعثرة، وعادت إلى الجلوس - بشكل مريح - فوق سحبها. واستأنفت قراءاتها ، كأن شيئا لم يكن .

وفى هذه الأثناء ، كان «شاجوديوج» وأصدقاؤه، المعلقون فى السماوات، يتشبثون- فى يأس- بالحبل الذى أرادوا أن يربطوا به الشمس، وقد اعتقدوا أن ساعتهم الأخيرة قد حانت .

ولكن الشمس ، والتى هى الأخرى محاربة عظيمة. أبدت مشاعر التسامح، وقالت لهم :«لقد حاربتم بشجاعة، بالرغم من حرارتى الرهيبة، والتى تسببت فى احمرار بشرتكم. وكمكافأة لبسالتكم، سأقدم لكم هدية: بلدا يحمل اسمكم، اسم نوى البشرة الحمراء الشجعان، بلد الهنود الحمر» .

وعندما لمس آخر هندى الأرض، وقف «شاجوديوج» – أول زعيم هندى – أمامهم وقال لهم هذا الخطاب المأثور :

«إن عينى تكتشفان بلدا رائعا. اذهبوا وتفرقوا، وازرعوا خيامكم، واشعلوا ناركم، وتعاملوا مع بعضكم بعضا، أنتم وكافة المخلوقات الأخرى الحية، باعتباركم جميعا أخوة. وكلما تزايدت بيوتكم أصبحت بلادكم أكثر ترحيبا وحرارة، وكلما تزايدت وتوثقت روابط الأخوة بينكم واشتد تماسكها وقوتها، كلما تضاعفت وعظمت قوتكم. ولكن، الويل لكم اذا تركتم شعلة منزلكم تنطفىء ! عندئذ، ستكفى مجرد حفنة من «الوجوه الشاحبة» لتسيطر عليكم، مثلما رأينا هناك؛ فوق».

وقد حرص الهنود الحمر على ألا ينسوا نصيحة زعيمهم الحكيمة. وكثيرا ما رددوها لأطفالهم، وهم يحكون لهم حكاية تواجدهم فى بلادهم، وعندما كان الأطفال يكبرون، ويصبحون آباء ، كانوا يرددون – بدورهم – كلمات آبائهم لأطفالهم هم. وهكذا دواليك ، جيلا بعد جيل، وقد انتقلت هذه الأساطير — عبر العصور– لتصل إلىّ ، أنا الغليون الهندى السحرى، وها أنا أحكيها لك، أيها الصبى

الحلبة البيضاء فى السماء

لايذكر أحد بالضبط، ما الذى حدث عندما انتصر الدب الأسود «واكينى» على الدب الرمادى «واكينو».

وطبقا لأقوال الدببة السوداء كان «واكينى» مشغولا، فى يوم من الأيام، بالاستمتاع بما يحتويه عش النحل، عندما ظهر «واكينو». وبدون أن يهتم بقواعد اللياقة، غمس القادم الجديد بقائمته – هو الآخر – فى الطبق. فكانت مناسبة لمعركة كبرى، تطاير فيها الشعر الأسود والشعر الرمادى فى كافة الأرجاء. وبطبيعة الحال، كان «واكينى» محقا ، إذ لاتملك أية دابة حق لمس غنيمة دابة أخرى .

ماحدث هو أن «واكينو» تلقى التأديب الذى يستحقه تماما. لكن هذا ليس كل شيء! فقد كان عليه، كمحارب مهزوم، أن يغادر قبيلته، وللأبد.

وعبثا حاول استعطاف قبيلته وهو يبكى، ويشكو ويرجو. إن قوانين الهنود لافكاك منها. فكان المنفى، لقد تخطى «الجدول» الصديق من الناحية المنخفضة، وألقى بنظرة أخيرة على أشجار الصنوبر التى ألفها، وودّع الوادى العزيز– الذى قضى فيه كل حياته – وداعه الأخير .

أخذ يبكى – خلال سيره – بحرقة فحجبت دموعه الرؤية عنه، ولهذا السبب، لم يلاحظ أنه يتجه – مباشرة – نحو بلد الثلوج .

«بلوف» وها هو يسقط فى ركام ثلج ضخم فخرج منه بصعوبة، ثم أخذ يفرك عينيه. وأخيرا ، نظر حوله وهو يتساءل أين يكون.

كان كل شىء أبيض. لاشىء سوى الأبيض ! ثلوج ناصعة البياض فى كل مكان .

«بقليل من الحظ، سأجد موطنا لى» قال الدب لنفسه، واستأنف سيره من جديد. لقد تأثر فراؤه بالجليد والثلج والهواء اللاذع، فأصبح لونه الرمادى أبيض تماما. ورغم هذا ، لم يلاحظ «واكينو» أي شىء. كان لايبالى بأى شىء. أخذ يسير ، ويسير باستمرار. وانتهى به الأمر إلى الوصول لبلد غريب يسوده ظلام عميق، ظلام ثلجى وياله من صمت! وفى مكان ما ، بعيدا جدا عن هذا المكان، كان يمكن سماع صراخ العاصفة. ولكن ، لاوجود هنا لأي صوت، سوى صوت الثلج المجمد وهو يتكسر تحت وقع خطواته .

كانت السماء الليلية تسطع فوق رأسه. وفى الأفق ، حيث يلتقى بلد الثلج بالسموات، أمكنه أن يلاحظ حلبة ناصعة بيضاء، تصعد حتى قبة السماء.

وجد «واكينو» نفسه وقد أُخذ ببهاء وروعة هذا الطريق، فجرى جريا شديدا، لدرجة أن قوائمه كادت تلمس الأرض لمسا. ثم قفز قفزة أخيرة، وها هو فى الأجواء يهز فروته الممتلئة بالثلج. لقد أصبح خفيفا كالريشة ، فانطلق عاليا ، وأخذ يحلق وهو يتوارى

بعيدا .

وكانت بعض الدواب مستيقظة فى تلك الليلة. ومن كان منهم يرقب السماء – وقتئذ – رأى للمرة الأولى، الدب الرمادى وهو يندفع نحو الحلبة البيضاء.

فقال «واكينى» الدب الأسود الحكيم: إنه «واكينو» .لقد عثر على جسر الأرواح الميتة، وهو يواصل طريقه نحو أراضى الصيد الأبدى».

والحق أن الدب الرمادي كان قد ذهب إلى العالم الآخر، والشىء الوحيد الذى خلفه وراءه. كان هو الثلج الذى نفضه عن معطفه، وها هو الثلج الأبيض لايزال هناك فى السماء ، يمكنك أن تنظر للسماء وستراه!.

إن «الوجوه الشاحبة» يطلقون على هذا المكان اسم طريق المجرّة، لكن كل هندى يعلم أنه الطريق نحو أراضى الصيد الأبدى ، ذلك الطريق الذى سار فيه الدب الرمادى «واكينو» .

الثعبان القوسى قزحى

عندما نرى قوس قزح مرسوما فى السماء أمام أعيننا، تعجبنا ألوانه، الرائعة دائما، فنقع فى أسره، ونرغب فى أن نعرف من أين يأتى جماله الآسر، وهو سر يعرفه هنود أمريكا الغربيون فقط. وتشرح أحد أقدم أساطيرهم مولد أول قوس قزح فى السماء.

حدث هذا خلال فترة موجة حارة، شديدة الحرارة بدرجة لم تحدث من قبل. كان المرء يختنق بالمعنى الحرفى للكلمة، والدواب والناس يبحثون عن مأوى عابر فى ظل الأوراق الصغيرة .

وأخذ سكان ركن معين فى الشكوى والتذمر :

«واأسفاه، سنموت كلنا».

«إن القطعان تتركنا، لقد ذهبت لتبحث عن الماء!»

«لقد رحلت الأسماك مع رحيل آخر كمية من مياه أنهارنا».

«حتى الورد نفسه لم يترك لنا حتى مجرد حبة صغيرة نقضمها. إنه يذبل قبل أن يتفتح».

فتأثر الثعبان الحرشفى الصغير بهذه الشكاوى. لم يكن ثعبانا عاديا.

فخرج من مكمنه وحدث هؤلاء البائسين بصوت إنسانى فأدهشهم تماما. قال لهم الثعبان بلا تصنع :

«إننى أملك قدرات سحرية كبيرة. وقد قررت أن آتى لمساعدتكم. كل ما عليكم أن تفعلوه هو أن تلقوا بى فى السماء» .

فأجابه ساحر القرية : «لكنك ستسقط من جديد؛ وستتكسر فقرات ظهرك» وكان أهل القرية يعتبرونه أكبر ساحر فى المنطقة. لكنه لم يثق فى الثعبان، هذا بالإضافة إلى أنه كان يخشى أن ينافسه في نفوذه .

فأجابه الثعبان : «لن ينكسر عمودى الفقرى على الإطلاق! سأثبت نفسى فى السماء مستخدما حراشيفى، وفى نفس الوقت ، سأنزع بحرافيشى قليلا من المطر والثلج لكم. فالمرعى- هناك فى الأعالى - مصنوع من الجليد الأزرق».

لكن الساحر لم يتخل عن معارضته: «لكنك صغير جدا»، قال للثعبان محتجا .

«هذا لايهم! أنا أستطيع أن أفترش الأفق على طول امتداد طرفيه. هيا! اقذف بكل قواك، ولأعلى مستوى تستطيعه!».

فلم ينبس الساحر بكلمة أخرى، وأخذ الثعبان، الذى كان قد التف حول نفسه، وألقى به - بغضب شديد- نحو السماء بكل قواه! كأنه يريد التخلص منه للأبد.

وانبسط جسم الثعبان، خلال تحليقه فى السماء، فأصبح أطول وأطول، وتمدد جسمه حتى إن رأسه وذيله لامسا الأرض فى النهاية،

فى كل طرف من طرفى الأفق، بينما تقوّس عموده الفقرى ليلائم القبة السماوية. وكان يتحرك لينزع جليد السماء بحراشيفه.

ولأنه كرر حركته ، أخذت ألوان جسده تتغير متحولة من اللون الأحمر إلى الأصفر، إلى الأخضر، إلى الأزرق، إلى البنفسجى، وبدأ جليد السحاب فى الذوبان، فسقطت قطرات المطر على الأرض، قطرات مطر نافعة.

فولد كل شيء من جديد. وعادت المياه للأنهار، وأخذت الينابيع تغنى، وعادت الحيوانات إلى موطنها الأصلى، وتفتحت الورود... والهنود؟

لقد رفع الهنود وجوههم نحو السماء من شدة الفرح. وتركوا المطر يروى جسدهم ويمنحه الحيوية، وأخذوا يرقصون تحت الرذاذ السماوى؛ تكريما للثعبان الذى لايزال ، منذ ذلك اليوم، مقوسا فى السماء، فنجده ، بجسده المطاط ، مثل شريط ملون، فى كل يوم تمطر فيه السماء بصحبة الشمس.

الأطفال الضائعون

كانت قطعان الجاموس تهيم عبر المرعى كله على هواها. ولم يكن باستطاعة أحد أن يوقفها، ولكنها كانت تتجنب منزلا فقيرا جدا - على حافة النهر- كما لو أنه كان مسكونا .

في هذا المنزل الفقير جدا، عاش سبعة صبية، فقراء مثل فئران الحقول. ولأنه من النادر أن يعود والدهم حاملا غنيمة من الصيد، فقد كانوا يكتفون بالرقص والغناء بدلا من الطعام .

ولم يكن لديهم ما يرتدونه. وبينما صبية القرية المجاورة يحصلون على رداء جديد من جلد العجول كل ربيع، كان الإخوة السبعة يسيرون عرايا؛ فيهربون من نظرات الآخرين ، ويخافون سخريتهم .

وعندما يحل الليل، كانوا يغامرون بالخروج من كهوفهم، فيتسلون - عندئذ- بألعاب مختلفة، لينسوا معدتهم الخاوية. كانوا يزحفون بصمت خارج منزلهم الفقير جدا، ويتزحلقون عبرالمرعى النائم، إلى أن يبلغوا مكانا آمنا جدا، أرضه صلبة وخشنة وعارية ، وقبل أن يبدأوا اللعب، كانوا يشعلون -دائما - نارا كبيرة ليطردوا عنهم البرد.

وفى إحدى الأمسيات، إثر يوم طويل لم يضعوا فيه أية لقمة تحت الضرس. أرادوا أن ينسوا همومهم بإقامة مأدبة كبيرة، كان الأمر مجرد تمثيل طبعا، فهى مأدبة طعام لايوجد فيها أى شىء يؤكل! أخذوا يتخيلون، وهم يتأملون لهب النار ، أنهم يشوون فخذ ثور شهى. ثم رقصوا حتى أرسلهم الفجر للنوم.

وهكذا، ظل الإخوة السبعة – الليلة تلو الليلة –جائعين وفقراء. كان «الروح الأعظم» مشغولا بمسائل أخرى : فالهنود فى حالة استعداد للحرب. ولم تخطر بباله – ولا حتى مرة – فكرة وجود أطفال يعيشون فى بؤس شديد.

وقرب نهاية شهر «العجل الأصفر» بلغ الأطفال درجة من النحافة والضعف جعلتهم يفقدون الرغبة فى اللعب والرقص.

فقال لهم الأخ الأكبر : هيا، قوموا، ولنُشعل نار «النصيحة»، ولا شك أنها ستساعدنا فى العثور على فكرة ما!» .

إننى لاأعرف عدد النيران التى أشعلت خلال هذه الليلة فى البلد الهندى. ماأعرفه هو أن نارا كبيرة أخذت تشتعل فى طرف المرعى. وأن الصبية السبعة جلسوا حولها، مكثوا طويلا هناك، دون حراك، ودون أن ينبسوا بكلمة واحدة. ثم قطع أصغرهم حاجز الصمت، فقال وقد انبعثت من صوته رنة الخطر: «هذا العالم مكان ردىء. ربما أحسنّا صنعا إذا غادرناه. يمكننا أن نتحول إلى ... حسنا، إلى صلصال – على سبيل المثال– عندئذ، سنحصل على السكينة، ولن نحتاج لشىء بعد ذلك».

«لا. إن الصلصال هوالموت. فلنصبح صخرا». اقترح الأخ الثانى

«لا. الصخر يتفتت. من الأفضل أن نصبح أشجارا كبيرة»، كانت هذه هى فكرة الأخ الثالث. غير أن الأخ الرابع كانت لديه فكرة أخرى، فقال :

«يمكن للزوبعة أن تقضى علينا. فلنصبح ماء، عندئذ، سنصبح فى مأمن، ولن يمكن لأحد أن يؤذينا».

ولم يكد ينهى جملته تلك، حتى قاطعه أخوه الخامس قائلا :

«والشمس ماذا ستفعل بها؟ إذا ما راودتها الرغبة، فبإمكانها أن تجفف أية مياه ! لنصبح الليل، لقد حمانا الليل دائما».

فجعلهم هذا الاقتراح يستغرقون فى تفكير طويل، وكانوا على وشك الموافقة عليه، عندما رفع الأخ السادس يده، ليعلن أنه سيتكلم بدوره، فقال لهم :

« لا . حتى الليل ليس بذى قدرة مطلقة، فالنهار يطرده بلا ملل؛ فما الذى سنصبح عليه، أعتقد أنه من الأفضل أن نصبح النهار، بدلا من أن نكون الليل».

فأخذوا يقرعون الحجج المؤيدة والمعارضة، ثم التزموا الصمت فترة طويلة، إلى أن قاطعهم الأخ الأكبر قائلا :

«تعرفون جيدا أن النهار – هوالآخر – لايدوم أبدا. فقط السماء الزرقاء هى الأبدية. ونحن لانستطيع أن نصبح السماء الزرقاء، فسماء واحدة تكفى الهنود. لكن، يوجد فى السماء أشياء رائعة، مثل النجوم، وأعتقد أنها سترحب بنا بينها ».

وعندما سمع الصبية هذه الكلمات الحكيمة، ابتهجوا جدا. نعم! كانت أقواله هى الرد المطلوب: سيتحولون ويصبحون نجوما! فألقوا بكل ما تبقى من الحطب فى النار دفعة واحدة، فأصبحت هائلة وشديدة الوضوح، وأخذت تضيء الغابة كلها .

وكان هذا هو ما ينتظره الإخوة. فوقفوا فى قفزة واحدة، وأمسكوا أيدى بعضهم البعض، وأخذوا يرقصون فى حلقة ببطء، ببطء شديد.

وفى كل مرة كانوا يرقصون فيها، بدا تعبهم وكأنه يتبدد، وأخذت كعوب أقدامهم تدق الأرض بلا توقف وبسرعة متزايدة. وها هم الآن يلمسون الأرض لمسا. وها هم الآن يمسكون أيدى بعضهم وهم يدورون فى الحلقة ويرتفعون فى الأجواء، وقد حملتهم سخونة النار إلى أعلى. ثم رأوا النار وقد أصبحت تحتهم، ورأوا أنفسهم يرتفعون ويرتفعون دائما. لقد ارتفعوا عاليا، عاليا جدا، هناك فوق، إلى أن بلغوا حلبة «واكينو» الكبرى البيضاء.

كم هو كبير وهائل الحجم هذا السهل المرصّع بالنجوم فوق بلد الهنود!

وعندما أحاطتهم السماء الليلية بعجائبها، توقف الإخوة -أخيرا- عن الرقص، وأخذوا ينظرون حولهم وقد أخذهم الإعجاب. فرأوا سبع خيام سحرية، وكأنها فى انتظارهم. فجروا نحوها، كل واحد منهم نحو كوخه.

وجدوا مفاجآت تنتظر كل واحد منهم بالداخل.

لقد انتشرت أشياء رائعة بالداخل. على الحيطان، وعلى الأرض، وفي كل مكان يقع عليه بصرهم، فشعروا وكأنهم عاجزون عن التنفس أمام كل هذه الأشياء الثمينة المسخرة لهم. هناك، كانت الملابس الجيدة والمطرزة تطريزا جميلا، وزينة رأس القادة ذات اللون الأحمر الزاهي، وأفضل أنواع أحذية الهنود الحمر، وبجوارهم قرن الخصب الحقيقي، ليغنيهم عن أفضل أنواع الأطعمة.

فارتدى كل صبي رداءه بسرعة، وخرج ليشاهده إخوته، وليقتسم معهم حظه السعيد.

وكانت مفاجأة جديدة في انتظارهم: فملابسهم جميعا متشابهة، وزينة رؤوسهم كلهم ذات بريق ذهبي . فأخذ الأخوة يتأملون بعضهم بعضا بدهشة لاحدود لها وهم يتساءلون عما حدث لهم. فوجد أكبرهم الإجابة على سؤالهم الصامت :

«لقد حقق «الروح الأعظم» رغبتنا. لقد نادى علينا وأصبحنا نجوما».

وكان هذا حقيقيا. ومنذ ذلك الحين، وعندما يأتي الخريف، ويتحول وبر الجاموس إلى اللون الأسمر، يرفع أطفال البلد الهندي رؤوسهم نحو السماء، ويحسبون أن الإخوة الضائعين في ثريا هذه الكوكبة الرائعة. وعلى أية حال، فنادرا ما ينجحون في عدهم هم السبعة. ذلك لأن خيمة الأخ الأكبر معلقة أعلى بكثير من خيام الآخرين. لذا ، يضيع بريقها في الاتساع الهائل للسماء .

عروس الماء البيضاء

يحكى ذات يوم، قبل أن تدق طبول الحرب فى بلد الهنود الحمر بفترة طويلة، أنه كانت هناك قرية جميلة تقع فى أحد المراعى. كان الرجال يخرجون للصيد كل صباح، ويعودون محملين بغنائمهم الثمينة كل ليلة، والنساء يعددن الطعام ويحكن الملابس، والأطفال يلعبون من مطلع الشمس حتى مغربها، والكل يعيش سعيدا وراضيا. وربما كانت سعادتهم أكبر من سعادة أى شعب آخر فى العالم.

وكانت الشمس تتألق حتى فترة متأخرة من بعد الظهيرة، وتبتسم للرجال ذوى البشرة النحاسية، والمطر يسقط وقت الضرورة، ليملأ الينابيع والجداول وليروى الأشجار والأزهار .

والآن، إليك ما حدث ذات ليلة جميلة

فقد وصل إلى علم النجوم، التى تتلألأ كل ليلة فوق المعسكر، نبأ وجود الهنود الحمر فيه، لم تكن النجوم قد رأت الأرض أبدا، إذ أن قناديلها ضعيفة جدا. عندئذ، توسلت إلى زعيمها أن يسمح لها بالذهاب لرؤية هذه القرية التى شُغفت بها عن قرب .

كان القمر هو الذي يقود السماء الليلية، والقمر - عموما - لم

يكن معجبا برؤية هؤلاء الناس وهم يهيمون ليلا، ويعودون فجرا، مثلما اعتادت «فينوس» نجمة المساء والصباح. لكن مزاجه كان - بالصدفة - صافيا هذه الليلة، فوافق على طلب النجوم. ولم تُضع النجوم وقتا طويلا فى الاستعداد للسفر، وها هن فى الطريق، يضحكن، ويتحادثن، ويتمازحن فى مرح. ولم يبدين اهتماما كبيرا بنصيحة القمر الأخيرة، عندما قال لهن :

«اذهبن حيث شئتن، لكن احذرن من ملامسة الأرض. إذ ستضطررن - عندئذ- إلى البقاء هناك، وستحرقكن الشمس فى الصباح إلى أن تمتن، تذكرن أن أشعة الشمس- بالنسبة لنا - شيء مميت».

كانت المسافة بين السماء والأرض طويلة جدا، لذا استغرق سفر النجوم مدة طويلة. ولحسن الحظ، أن القمر كان بدرا ، وإلا كن سيتعرضن للتوهان فى الطريق ، وها هن - أخيرا - فوق القرية الهندية . فأخذن فى تفحصها من كافة جوانبها. أما الهنود، فكانوا نائمين ، عدا صبى صغير ، ظل مستيقظا، حيث يقيم على حدود المعسكر بالضبط، عندما تراءت له أصوات غريبة فوق سقف خيمته، أرهف السمع، ثم تسلق فراشه الصغير ليلقى نظرة عبر الثقب المخصص للدخان فى السقف، وعندما رأى هذه الأشياء أمامه، أوشك قلبه على التوقف عن الخفقان، كل هذه النجوم، وبهذا القرب الشديد ! وبسرعة ، تسلق سقف الخيمة، ولكنه أثناء تعلقه بوتد الخيمة ليتمكن من الوقوف والرؤية بشكل أفضل، سقط واصطدم

بشيء كان يتأرجح بالقرب منه. «كراك»! وتحطمت على الأرض أصغر نجمة وأشدهن فضولا، كانت تمر - في هذه اللحظة بالذات- فوق الخيمة، لكن على ارتفاع منخفض جدا. والآن، وقد لامست الأرض، تحولت إلى فتاة جميلة. لكن ذلك لم يمنعها من الانخراط فى البكاء.

وقالت النجمة وهى تؤنب الصبى: «أرأيت ما فعلت أيها الشرير؟ الآن لن أستطيع أبدا العودة إلى السماء مع شقيقاتى، وما أن يحل الفجر، ستكتشفنى أشعة الشمس وعندئذ، سأموت».

أخذ الهندى الصغير يتأملها مندهشا. وفى هذا الحين، اتجهت النجوم الاخرى، اللاتى شعرن بالخوف الشديد، نحو طريق العودة فورا. فهن يعلمن أنهن - مهما كانت الظروف- لن يستطعن إنقاذ أختهن التعيسة الحظ.

كانت الدموع تغرق وجه الفتاة الجميل. وعندما رأى الهندى الصغير هذا المشهد، فاض قلبه بالحنان.

فقال لها: «لاتبكى أيتها الفتاة الجميلة. غدا، طوال اليوم، وطوال سطوع الشمس، سأخبئك فى خيمتى، ولن تراك الشمس. ولكن ماذا ستفعل بعد ذلك؟».

- «إذا استطعت أن أظل على قيد الحياة حتى مساء اليوم الأول، فسأتمكن، عندئذ، من التحول إلى وردة، وسأذهب إلى هناك، إلى الشاطيء الصخرى لأتمكن من رؤيتكم، أنت وكل أهل قريتك. إننى أحب أسلوب حياتكم الهندى».

وذلك ما حدث، فقد ظل الصبى -طوال اليوم- فى خيمته، مراعيا

ألا يتسلل أي شعاع فضولى إلى داخل الخيمة. وعندما حل الغروب، تسللت الفتاة الجميلة إلى الخارج، من فتحة الدخان، وأسرعت إلى أعلى قمة الشاطىء الصخرى المجاور. وفى صباح اليوم التالى، أمكن للمرء أن يرى – فى ذلك المكان – وردة بيضاء رائعة، مزدهرة ومتفتحة .

أعجب الهنود بهذه الوردة. وحده الصبى الصغير كان يعلم أنها النجمة الصغيرة التى خبأها فى خيمته، ليمنع عنها أشعة الشمس القاتلة.

وسرعان ما بدأت النجمة – الصبية فى الإحساس بالملل، وهى وحيدة هناك فوق، بالطبع يمكنها أن ترى إلى مسافات بعيدة، وأن تراقب كل ما يحدث فى معسكر الهنود الحمر. لكن ، لا أحد كان يتسلق الربوة ليصل إليها ويتحدث معها ببعض الكلمات. وحدها العصافير هى التى كانت تصاحبها – أحيانا– لأنها تقيم أعشاشها بالقرب منها. وذات يوم، عندما أتى عصفور «الصفوة» ، أخذت الوردة تشكو له :

«أشعر أننى وحيدة تماما هنا، وتنقصنى مصاحبة الناس. فإذا أمكننى – فقط– أن أختار بيتا هناك، فى المراعى!».

فأجابها العصفور الظريف: «لو هذا هو ما ينقصك – فقط– أستطيع مساعدتك بسهولة. احنى رأسك قليلا، لألتقطك بمنقارى».

فأطاعته الوردة. والتقطها العصفور برقة كى لا يؤذيها ، وطار بها حتى المراعى، حيث الحياة أكثر مرحا. فكثيرا ما كان الهنود ، ودواب المناطق المجاورة، يأتون ليحكوا للوردة البيضاء الأخبار

الكبيرة والصغيرة ولكن ، ذات صباح، سمع الناس صوت زمجرة صماء من بعيد، فصرخ الناس من كل الجهات :

«أسرعوا ! أسرعوا! أسرعوا ! أنقذوا ما تستطيعون إنقاذه. إنه الجاموس» رأت الوردة البيضاء سحابة دخان ترتفع في الأفق وتتسع على مرمى البصر، فشعرت برعب هائل. ولأنها لم تستطع الهرب، فقد أخفت نوارتها بين الأوراق. وتدفق القطيع فوق السهل، مثل عاصفة هوجاء، بينما أصوات الحوافر الكثيرة تصدر صوتا أقوى من صوت الرعد .

وعندما عاد الهدوء إلى المرعى، غامرت الوردة البيضاء بإلقاء نظرة خائفة، من بين أوراقها التي تحميها . لم تعد في المرعى أية علامة على الحياة .

فقالت الوردة – النجمة لنفسها: «مؤكد أنني لايمكنني البقاء هنا؛ فهو مكان خطر . سأكون أفضل حالا وسط إحدى البحيرات».

فرفعت جذعها، ونزعت جذرها بنفسها، ثم زحفت على الأرض في اتجاه اعتقدت أنها رأت فيه انعكاسا لبحيرة، وسرعان ما اكتشفت – فعلا – سطح المياه اللامعة، وكزورق هندى، انزلقت في هدوء، وتركت نفسها تعوم في البحيرة .

وعندما ذهب الهنود، صباح اليوم التالي ، للصيد، فوجئوا باكتشاف الوردة البيضاء الرائعة في البحيرة .

فقال الأطفال : «لقد أزهرت النجوم» ، ولكن الرجال، الأكثر خبرة، قالوا لهم :«إنها النجمة البيضاء الصغيرة التي أتت لتعيش بيننا» . وكانوا محقين .

ومنذ ذلك الحين، والنجمة تعيش في البحيرة، في شكل «عروس الماء البيضاء»، وقد أسماها الهنود «واهبيجواني»، أي الوردة البيضاء.

المرض والطب

كانت الدواب والناس يعيشون معا في سلام، دون أن يزعج أحدهم الآخر، إلى أن جاء اليوم المشؤوم، الذي بدأ فيه أوائل الهنود الجشعون في قتل الحيوانات، ليبيعوا لحمها وفراءها.

وشهد القندس والقضاعة والأيل، والثور الأمريكي «بيسون» أعدادهم وهي تتناقص بسرعة، وأصبح الوضع من الخطورة، حتى إن الدب الأبيض دعا الحيوانات إلى مجلس موسع للشورى.

وقد أراد الحاضرون الانتقام من البشر، لكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى اتفاق حول أفضل طريقة يستخدمونها في ذلك .

رفعت الدببة شعار الحرب، وهي تلوح بالأقواس والسهام. لكن، عليهم الاعتراف بأن مخالبهم الطويلة، قد تمنعهم من التصويب بشكل جيد. واقترحت العصافير أن تحمل خيام الصيادين من الهنود الأشرار بعيدا. أما القندس، فقد رأى أنه يكفي قرض أرضية قواريهم.

بل إن الذباب – هو الآخر – شارك في بحث المشكلة، وهو في غاية الانفعال، فشرع يطنطن في حفرة بأحد جذوع الأشجار

المجاورة، وعندما لم تعد الأفكار الجديدة تراود الحيوانات ، قام أكبر الذباب سنا ، وأكثرهم حكمة، وأخذ الكلمة وسط كل الحيوانات المجتمعة ، فقال :

«سنطلب من الأرواح، أن ترسل المـــرض إلى الهنود الذين يؤذوننا، ونحن الذباب ، سنتكفل بنشر المرض».

وبعد الموافقة على الاقتراح، رفع الدب الأبيض الجلسة.. وتفرق الجميع، وعاد كل حيوان إلى بيته، الواحد تلو الآخر، وهم يتساءلون عما سيحدث .

وسرعان ما عرفوا ماحدث. لم يتأخر المرض عن إصابة القرية الهندية. لكنه لم يكن يختار ضحاياه، فأخذ يهاجم كل من يقابله. ومنذ ذلك الوقت، لم يعد هناك أي هندى يذهب للصـيـد. كـانوا يتمددون فى بيوتهم، ويموتون بأعداد كبيرة، الطيب منهم والشرير.

وألم هذا الأمر الحيوانات، لأنهم لم يرغبوا فى إصابة جميع الهنود بالمرض بلا تمييز. عندئذ، أخذوا يفكرون فى وسيلة لإنقاذ الناس.

فتشاوروا وتبادلوا الآراء، غير أن الحل جاء من جهة غير متوقعة: من النباتات. قالت الورود وأعشاب الغابة والمراعى «نحن نملك القدرة على الشفاء. سنشفى المرضى».

وعندما علم الهنود بهذا النبأ السار، غادروا بيوتهم، وأسرعوا يقطفون الزعتر البرى، والقنطريون، وأوراق توت الأرض، وجذور السرخس، وكافة أنواع الأعشاب الأخرى، آملين أن تتمكن هذه الكائنات البسيطة من شفائهم .

وعندما كان الهنود يترددون أمام عشب ما لاستخدامه فى علاج أحد الأمراض، كانت الأرواح الطيبة، وهى على هيئة وردة تهمس لهم فى أذنهم بما يلائمهم من عشب.

وهكذا اكتشف الناس الطب.

شجرة الهندب البرية

كان أطفال الإقليم الشمالي يسألون دائما لماذا لايمكث ريح الجنوب «شاوندازى» مدة أطول لديهم، ولماذا لايدفع بريح الشمال.. «كابيبونوكا» نحوالمناطق التى أتى منها، نحو بلد الجليد فى منطقة «الشمال الأكبر».

كم سيكون من الممتع الاستمتاع بالصيف طوال العام! وردا على هذا السؤال، كان القدماء يحكون :

«إن «شاوندازى» كسول جدا . كل ما يعرفه هو أن يظل ممددا ويدخن ولاشك أنه بهذه الطريقة يطرد حزنه الخاص، لكنه لن يتمكن أبدا من مواجهة «كابيبونوكا».

عندئذ ، يسأل الأطفال: «ولماذا «شاوندازى» حزين؟» .

وكانوا يجدونه - دائما - شديد الاطلاع، يجيبهم قائلا: «لماذا؟ سأشرح لكم السبب . فهكذا جرت الأمور: «إن «شاوندازى» - كما تعرفون يا أطفالى - هو الذى يأتى لنا بالصيف. وفى يوم من الأيام، عندما كان لا يزال شابا فتيا فى هذا الوقت، نظر نحو الشمال، فوق المراعى، فى اتجاهنا تماما . كان الهواء مشبعا بروائح الصيف، وبأغانى العصافير، والسماء صافية وزرقاء. كان يوما رائعا! وفجأة، في غبطته تلك ، لمح «شاوندازى» شابة جميلة، صغيرة ووحيدة بين

الأزهار، ورقيقة مثل ساق الوردة. لقد فتنه بريق شعرها الذهبى.

سعد «شاوندازى» بتأملاته، ولم تراوده - للحظة واحدة - فكرة الذهاب ليرى الفتاة عن قرب، كان كسولا جدا، حتى وهو شاب، كل ما فعله هو أن تأمل الشابة، حتى أوشكت عيناه على الخروج من محجريهما؛ ثم عاد للنوم، وكلما استيقظ من نومه، أدار رأسه نحو المراعى ليستمتع بمنظر الفتاة الجذابة، وكثيرا ما راودته الرغبة فى الذهاب لمحبوبته، والتى كانت دائما هناك، أمام عينيه؛ مثل الحلم الساحر، لكن كسله كان يغلبه كل مرة ؛ فيعاود النوم. لقد دفع ثمن كسله غاليا! .

ذات صباح جميل، أدار رأسه مرة أخرى نحوالشمال. فماذا رأى؟ رأى الشعر الذهبى - الذى طالما أحبه - وقد أصبح فضيا! لقد بدا شعرها وكأن طبقة من الجليد قد غطته.

وبطبيعة الحال، فكر فى «كابيبونوكا» على الفور. لاشك أن ريح الشمال قد أسرت الجميلة بحكايات منتصف الليل، وسجنتها فى فخاخ صقيعه الأبيض .

فانهار «شاوندازى » باكيا وأخذ يشكو وهو يأسف - بحرارة - على كسله. أخذ يتنهد ويتنهد - بدرجات كبيرة - فانتشر تنفسه الساخن بعيدا . عندئذ، انفجرت عاصفة فى المراعى، وتطايرت أجسام بيضاء شبيهة بنتف الجليد الأبيض فى الأجواء، واختفت الشابة للأبد.

فيسأل الأطفال الفضوليون : «كيف حدث هذا؟ وكيف استطاعت

الاختفاء!».

فيواصل الجد كلامه مبتسما: «اصغوا إلىّ جيدا وسأوضح لكم. الأمر. من كان يقف فى المراعى لم يكن فتاة جميلة، إنها زهرة الهندب البرية، بلونها الأصفر الذهبى الجميل. ولأن «شاوندازى» لم يكن فقط كسولا، بل وتنقصه روح التأمل ، اعتقد أن ما رآه فتاة شابة، وكما تعرفون، عندما ظنت ريح الجنوب أن ريح الشمال قد خدعتها، أخذ يتنفس بشدة لدرجة أنها بعثرت زغبها الخفيف عبر المرعى كله. وبعد هذا، عبثا حاولت البحث عن الجميلة ذات الشعر الذهبى ! فعلى من يقع الخطأ؟ اذهبوا واطلبوا من هذا الكسول أن يقدح زناد فكره ليتعمق فى فهم الأشياء ! الهنود الحمر - فقط- هم الذين يعلمون أنه عندما تهب ريح الكآبة، فى نهاية الصيف، فإن هذا يعنى أن «شاوندازى » لازال يتنهد حزنا، وأنه يأسف على محبوبته... والتى لم تكن شيئا آخر سوى ما ابتدعه خياله!» .

شعر السيدة العجوز

منذ زمن بعيد جدا، والهنود الحمر يستخدمون الذرة بدلا من القمح والبُر والحنطة، فهم لم يعرفوا هذه الحبوب، ومن دقيق الذرة، صنعوا كل شيء : الخبز والحلوى. وهناك أسطورة هندية جميلة عن ظهور الذرة في العالم.

فيحكى أنه - ذات يوم - كانت سيدة عجوز تهيم عبر أرجاء البلد الهندى ومعها حفيدها الصغير. لا أحد يعرف من أين أتت ولا لى أين تذهب. ولا أحد دعا هذين المسافرين ليتدفئا أمام النار، بالرغم من كل توسلاتهما. حدث هذا عندما استل أغلب الهنود فأسهم «التوما هاوك» وأعلنوا الحرب بين القبائل بعضها البعض. لذا، أصبحوا يتشككون في كل قادم جديد، ويخشون أن يكون جاسوسا.

وكانت الجدة تقول لحفيدها لتشد من أزره: «لايهم، سينتهى بنا المطاف لدى رجال شجعان يرحبون بنا».

وبعد ذلك، كانا يواصلان طريقهما عبر الجبال والوديان الفسيحة. وأخيرا، توقفا ذات يوم أمام معسكر قبيلة «التمساح»؛ وهم من أفقر الهنود، لكن قلوبهم رحيمة، فدعوا الزائرين ليتدفئا بنارهم، وليقتسما معهم ما يملكون من طعام قليل. ثم قال لهما زعيمهم «سن التمساح

الأمريكى» ما يلى :

«يمكنكما الإقامة معنا، إذا كانت تلك هى رغبتكما ، لكن اعلما أننا نعانى كثيرا من الجوع، ولا نملك أراضى صيد وفيرة، بالإضافة إلى أنه علينا أن نضحى بأفضل ما نصطاده للتماسيح، إذا أردنا ألا نفقد حمايتهم لنا».

فأجابته العجوز قائلة : «يسعدنا أن نقتسم معكم مصيركم؛ أيا كان هذا المصير. وبالمقابل، سأسهر على أطفالكم، وهكذا، لن أكون عبئا لا فائدة منه».

ومنذ فجر اليوم التالى، غادر الصيادون المعسكر، وتبعهم – على الفور– جميع النساء. وظل الأطفال وحدهم مع العجوز.

والحق يقال إن الأطفال اعتادوا البقاء وحدهم طوال اليوم. كانوا يلعبون معا دون مبالاة بوحدتهم. لكن ، ما لم يكن بمقدورهم أن يفعلوه هو حل مشكلة الطعام. لذا، فكانوا يستمرون – طوال اليوم– دون طعام – إلى أن يعود أهلهم ليلا .

والآن، أصبح الحال أفضل. كان الأطفال يلتصقون بتنورة العجوز، مثلما تلتصق الكتاكيت بأمها الدجاجة؛ فتحكى لهم الحكايات. كانت هناك حكاية تعجبهم أكثر من غيرها: تلك الحكاية التى تشرح لماذا تكسو الأعشاب والأزهار الأرض، ويكسوها الشجر العالى كذلك: ففى يوم من الأيام، أراد الإله «مانيتو» – المسيطر على الطبيعة – أن يلاطف الورد الذى يراه وهو يتأرجح مع الهواء فوق ساقه النحيفة. وعبثا حاول الانحناء – من فوق سمائه – لم يكن

باستطاعته الوصول إليه، فالورد قصير جدا، وبعيد جدا عن متناول يده. عندئذ، أعرب عن رغبته في أن تنمو السيقان إلى أن تصل الأزهار - في ارتفاعها - إلى راحة يده. فاندفعت أشجار الصنوبر والتنوب والقيقب ونَمَت . نمت عاليا، فبلغت قممها الرائعة عنان السماء. وهكذا، استطاع «مانيتو» أن يلاطف الأشجار متى شاء؛ فيكفيه أن يمد يده ليلاطفها، ويمكننا أن نرى الأشجار وهي تتماوج - برقة- تحت مداعباته، وهي تحدث خريرا رقيقا .

لم تكن العجوز مجرد راوية رائعة للحكايات والأساطير؛ فهي تعرف في أي ساعة - بالضبط- يبدأ الأطفال في الشعور بالجوع. عندئذ، كانت تختفي - لحظة - لتعود فورا وهي تحمل آنية هائلة، يخرج منها دخان شهي.

وكانت تشرح لهم قائلة. «إنه حساء حبوب الذرة. وطالما أنكم أطفال طيبون ، فستحصلون منه كما تشاءون».

وهكذا مرت الأسابيع والشهور، حتى آخر شهر في السنة: شهر «الليل الطويل»، والعجوز لاتزال تقدم للأطفال حساء الذرة ببطء، مثلما يتلاشى الدخان فوق الإناء. وذات صباح، شعرت بالضعف الشديد، حتى أنها لم تستطع النهوض. عندئذ ، نادت على حفيدها وقالت له :

«يابني ، أشعر أنني سأغادر هذا العالم قريبا، وحبوب الذرة التي بذرتها قد امتدت بجذورها في الأرض وستنمو قريبا؛ لقد أنهيت مهمتي، والآن ، يقع على عاتقك، وعلى عاتق الأطفال الآخرين،

العناية بالذرة. يجب رى الذرة، وعزق الأرض ، ونزع الأعشاب الضارة من بينها ، وإلا فلن تحصلوا على محصول» .

كانت هذه هى آخر كلمات العجوز الطيبة. لكنها أخذت تعطى حفيدها - ظهر كل يوم - إناء من حساء الذرة. لكن ، فى اليوم الذى بدأ فيه أول كوز ذرة - خلف خيمتها - فى النضج فوق الأغصان، اختفت العجوز، ولم يعد يراها أحد بعد ذلك .

فقال «سن التمساح» : «لن نراها - للأسف- بعد ذلك أبدا لكنها ستظل بيننا كما ترون»، وأشار بيده إلى الذرة التى نضجت حول المعسكر. «لقد تحولت السيدة العجوز وأخذت هيئة هذه النباتات التى أتت بها لنا حتى لانعانى بعد ذلك من الجوع».

هكذا كان أسلوب العجوز الطيبة فى الرد على حسن ضيافة القبيلة لها. ومنذ ذلك الوقت، والهنود يعتنون دائما بالذرة العزيزة، وعندما تخرج شعور الذرة من أغطية الكيزان الخضراء، يعتقد الهنود أنهم يرون شعر العجوز الطيبة الأبيض .

هبة الطوطم

بعيدا جدا، فيما وراء الجبال الأربعة والأنهار الأربعة، وعلى ضفة المحيط الذى لا حدود له، كانت توجد قرية الطوطم، أطلقوا عليها هذا الاسم بسبب الطواطم الهائلة المشيدة خلف كل خيمة، لتحمى السكان خلال مغامراتهم فى عرض البحر، أثناء صيدهم الكبير للحيتان .

فقد اعتقد الصيادون أن هذه الصوارى - المنحوتة والمرسومة- تبعد عنهم الأرواح الشريرة. لذا، كنوا لها احتراما شديدا، وفى كل مرة يعودون فيها من صيد ثمين، كانوا يقيمون - بانتظام - حفلا كبيرا تكريما لها ؛ يطلقون عليه اسم «بوتلاش».

وفى إحدى الأمسيات التى تسبق حفل «البوتلاش» ، نام أحد الغربان فوق شجرة بالقرب من الطواطم، وربما حلم بكابوس، وربما شعر بالبرد، لكن ماحدث هو أنه استيقظ فجأة فى منتصف الليل، فأصاخ السمع، معتقدا أنه سمع صوتا غريبا . قال لنفسه، ربما يكون هذا هو ما أقلق نومى. فقد سمع أصواتا خافتة، كأنها فروع الأشجار وهى تتحدث معا ويهزها الهواء. عندئذ، مد الغراب الفضولى رقبته، فأصبحت الأصوات أكثر وضوحا . لم يخطىء كثيرا: كانت الطواطم تتحدث معا :

– «وما رأيك أنت أيها الطوطم الكبير؟»

– «إن روح «سمك المورة الكبير» قد باح لى بأن الهنود سيحصلون على هدية. وستكون مادة معدنية صفراء، تلمع مثل الذهب. فهل أنا محق أيها الطوطم الكبير؟» .

– «قال لى روح «سمك الرنجة» سرا: هذه المادة لن تكون أكثر صلابة من الذهب، وإلا أصبحت قلوب ذوى البشرة الحمراء قاسية، فما الذى تعتقده أنت يا أحكم الطواطم؟».

– «للأسف همس لى روح «الحوت الأم» – فى أذنى – أن الهنود سيصنعون – من هذه المادة – رؤوس حرابهم وسهامهم وخطاطيفهم».

ولكن الغراب لم يتمكن من سماع المزيد من حوار الطواطم الهامس، بالرغم من أنه كان يسترق السمع بانتباه.

فقال الغراب لنفسه : «ورغم كل شىء، فأنا أعرف ما فيه الكفاية» ثم شرع يفكر – بجدية – فى طريقة لاستغلال معرفته هذه خلال حفلة الطواطم. فلا شك أنه لن يسمح لهؤلاء الهنود الأغبياء بالحصول على كل شىء ويظل هو صفر اليدين .

وبدأت حفلة «البوتلاش» قبل أن تصل الشمس إلى منتصف جولتها ، كان هنود المناطق المجاورة قد وصلوا إلى المكان منذ الفجر – الواحد تلو الآخر – على متن مراكبهم ذات المقدمات الممشوقة، وقد أتوا بقارب ثمين : أغطية مخططة بألوان كثيرة، وأطعمة ممتازة، ومشروبات شهية، دون أن ينسوا الأسلحة المختلفة.

وبعد أن حيّا الضيوف الطواطم، وتحلقوا فى دائرة حول نار كبيرة، وقع حادث غير متوقع: لقد تحرك الجو فجأة، كأن أجنحة آلاف العصافير قد نفضته، وارتفع منسوب المياه. وبعيدا جدا، فوق قمة الأمواج، أخذ جسم غريب يلمع ويبرق، مقتربا فى اتجاه مرمى البصر. عندئذ-- وكم كانت دهشة الهنود المجتمعين - تحدث إليهم «الطوطم الأعظم» بصوت إنسانى قائلا لهم :

«إن الأرواح الطيبة قد أتت لكم بهبة هامة. «النحاس الأبيض» به ستزينون أطراف سهامكم وخطاطيفكم وحرابكم، وهو سيفيدكم أكثر من حجر السيلكس، الذى لا زلتم تستخدمونه حتى الآن» .

كان الهنود ينصتون - فى صمت وإجلال - لأقوال «الطوطم الأعظم» الذى لم يتمكن من مواصلة خطبته القصيرة. إذ أن الغراب خرج، لا أحد يعرف من أين، وحلق فوق رؤوسهم ، وانقض على الجسم اللامع الذى يحلق فى السماء. كان يريد - بلا شك - أن يلتقطه أثناء طيرانه ويحمله معه بعيدا .

فاجأ الغراب الهنود ، فرفعوا عيونهم نحو هذا الطائر الوقح، وقد بهرهم - فى نفس الوقت - بريق المعدن. لقد ساءتهم مؤامرةالغراب، لكن الأرواح الطيبة كانت ترعاهم، فلم تسمح لهذا اللص بالاستيلاء على هبتها لهم.

سار كل شيء على ما يرام، وبدا على الغراب وكأنه أدرك عبث محاولته، فطار فى لمح البصر، لكن طيران هذا لم يكن سوى خدعة. فقد قام فجأة، وبسرعة خاطفة، بانعطافة نحو جهة لم يتوقعها أحد،

ولا حتى الأرواح الطيبة حاملة الهبة، وعاد ليستولى على كرة النحاس الأبيض، وفاجأهم بانتزاعها منهم. وها هو يطير ممسكا بغنيمته الثمينة بين قوائمه .

لكن، اتضح أن النحاس الأبيض أثقل بكثير من قدرة الغراب. لذا، لم يحمله إلا لبرهة ، ثم اضطر إلى تركه فوق البحر تماما. فطوت أعماق البحر هذا الشيء الثمين. فتساءل الهنود : «ما العمل الآن؟» واتجهوا بأنظارهم نحو الطواطم، على أمل أن يحصلوا منها على نصيحة طيبة، لكن الصوارى المقدسة ظلت ساكنة ومحافظة على صمتها المعتاد.

وأخيرا ، قطع زعيم القبيلة حاجز الصمت الواجم والمخيم على المجتمعين؛ وقال: «ربما كان بينكم صياد ماهر، يستطيع أن يستعيد – بفضل خطاطيفه – هذه الهبة الثمينة. فمن ينجح ويأت بها، فسأزوجه ابنتى الوحيدة».

وإثر الكلمات التى نطق بها الأب، أخذت الفتاة ترتجف وانفجرت فى البكاء، فقد أقسمت – منذ فترة طويلة – أن تتزوج صيادا شجاعا من أهل القرية؛ ذهب ليأتى لها بهدية العرس، فبرّت بقسمها، وظلت تنتظره .

كان من المستحيل معارضة قرار الأب. وأعلن مجلس الشورى موافقته على الاقتراح، وبدأ العديد من الشبان فى الإبحار.

أما ابنة الزعيم الجميلة – واسمها «زهرة البحيرة» فقد ذهبت حزينة، إلى الطواطم، ثم ركعت أمام الطوطم «الحكيم» وأخذت تشكو

حالها إليه:

– «ماذا أفعل؟ أتضرع إليك يا أكثرهم حكمة، ساعدني » فأشفق عليها الطوطم الرحيم. وعندما رأى قلبها يفيض حزنا، حدثها بصوت هامس، حتى لايسمعه أحد غيرها :

– «ارتدى ملابس الرجال، واذهبى إلى الساحل الرملى. هناك ستسيرين حتى مصب بحيرة «سمك السلمون»، وستجدين فيه قاربا صغيرا، بداخله خطاف ، فاشرعى بالإبحار، فى عرض البحر، ولا تخافى الموج الغاضب، الذى يتلاعب بقاربك، إلى الدرجة التي ستعرفين فيها – حقا – ما هو الخوف.

وسيحملك القارب حتى المكان الذى غاصت فيه كرة النحاس الأبيض فى أعماق البحر. وعندما يتوقف القارب، خذى الخطاف واغرزيه فى النحاس بكل قواك. وبعد أن تسحبيه ، عودى إلى مصب بحيرة «سمك السلمون». وإذا لم تتبعى تعليماتى حرفيا، فستحطم الأمواج قاربك، وستموتين فى عرض البحر والآن، اذهبى!».

ولم تتردد الفتاة لحظة واحدة. وبسرعة ، ارتدت رداء أحد أشقائها، ودهنت وجهها بالطين الصلصالى حتى لايعرفها أحد. ثم أسرعت إلى مصب بحيرة «سمك السلمون» . وهناك ، وجدت القارب والخطاف، وانطلقت – فى شجاعة– إلى غياهب البحر .

لم يمر وقت طويل لتعرف أن البحر هائج حقا. كانت أمواج خائنة تهددها بأن تغرق القارب الضعيف. لكن «زهرة البحيرة» واصلت طريقها – فى بسالة– نحو هدفها المصيرى .

شاهدت ابنة الزعيم - وهى فى البحر - زوارق الذين حاولوا من قبلها خوض هذه التجربة . كانت الزوارق مقلوبة. ولم يتمكن أى منهم من الذهاب بعيدا. لقد قدموا - جميعا - حياتهم ثمنا لرغبتهم فى الزواج من «زهرة البحيرة» . وقد أدركوا - فى لحظاتهم الأخيرة أن البحر لن يتخلى أبدا عن رغبته فيما تمكن من أخذه.

ثم توقف القارب، فالتقطت الفتاة الخطاف، واستلته وهى تغوص ببصرها فى المياه الهادرة، أخذت يدها ترتعش؛ لكن التفكير فى حبيبها أعطاها طاقة التغلب على اليأس، فاستجمعت قواها، وغرزت الخطاف إلى أبعد مكان تستطيع الوصول إليه، وفور أن أحست بأنها قد اختطفت شيئا ما، رفعت ذراعها.

منذ بداية الصيد، وأمواج البحر الهائجة تهز القارب فى عنف. لكن الأمر أصبح الآن أسوأ، عندما أدرك البحر أن الفتاة الشابة تنتزع منه غنيمته. أخذ المحيط يصرخ مثل فرس السهل البرى المتوحش، والفتاة - مع كل وثبة للقارب- تشعر أن ساعتها الأخيرة قد دنت. لكن القارب كان دائما مايعود إلى العوم، والظهور على قمة كل موجة. ثم سرعان ما أصبح فى مصب بحيرة «سمك السلمون».

وعندما وصلت البطلة الشابة إلى الشاطىء، استقبلتها صرخات الفرح من الأهالى، الذين هرعوا للقائها. وقام زعيم القبيلة - شخصيا - وانحنى على القارب ليسحب منه هبة الأرواح. وفيما هو يرفعها عاليا ليراها الناس المحتشدون، هجم عليه الغراب، وانتزعها منه، وهو ينعق فى صوت يصم الآذان! انتزعها من يد الزعيم

المذهول، وحملها إلى ذروة أعلى شجرة من أشجار الصنوبر. ومن ير الغراب – وقتئذ– يعتقد أن الأرواح الشريرة – نفسها – قد نفخت فيه ومنحته هذه القوة .

أخذ الغراب ينعق، متحديا الحاضرين، وهو يقول لهم : «لقد حصلت على هبتكم هذه المرة! يمكنكم دائما أن تنتظروا لأرجعها لكم». وفي كل مرة كان السهم يصفر في أذنيه،كان الغراب يكرر قوله : «لن أرجعها لكم أبدا».

حاول الهنود استرداد ثروتهم من الغراب، حتى الفتاة – هي الأخرى– أخذت تصوب في اتجاه اللص. والآن، انكشفت شخصيتها أمام الجميع. فقد انزلق غطاء رأسها، فأسفر عن شعرها الأسود الزرقاوي، الذي تناثر على ظهرها. غير أن الغراب بدا وكأن قوة ما تحميه: فلم يصل سهم واحد إلى طرف شجرة الصنوبر، التي وقف فوقها.

عندئذ، سمعوا صوت خطوات سريعة قادمة من بحيرة «سمك السلمون». كان شاب يافع يأتي منها ركضا، خفيفا كالغزال. وما أن أصبح قريبا على مرمى البصر، حتى اندفعت «زهرة البحيرة» للقائه، وألقت بنفسها بين ذراعيه.

وهتفت «زهرة البحيرة» بفرح : «ها أنت أخيرا ياحبيبي!» وأخذت تداعبه وتلاطفه وهي تحكي له – باختصار – ما حدث. فأخرج «عصفور الأمواج» – هكذا كان اسمه لمهارته في قيادة زورقه – أخرج سهما من جعبته ورشقه في قوسه، ثم أخذ وضع التصويب،

وظل ينتظر إلى أن قام الغراب السفيه بإخراج رأسه من بين أغصان الشجرة. عندئذ ، ترك «عصفور الأمواج» الوتر المصوب فجأة.

كان الصمت يخيم على المكان، فانعدمت الأصوات سوى صوت صفير السهم، ثم صحبته صرخة الطائر الذى أصيب فى مقتل. وبعد ذلك، طقطقت أغصان أشجار الصنوبر، وتهشمت الكرة الرائعة على الأرض.

لقد تحطمت الكرة إلى ألف قطعة ! ففكر الهنود «لقد كان للغراب الكلمة الأخيرة! فقد حطم هديتنا وجعلها غير صالحة للاستخدام».

عندئذ، سمع الحاضرون صوتا يخرج من مكان «أعقل الطواطم» : «هذه الشظايا - بالتحديد- هى التى ستمكنكم من صنع رؤوس رماحكم وسهامكم المشحوذة جيدا».

وفى الوقت الذى انهمك فيه الهنود فى التقاط كل شظايا النحاس الأبيض حتى آخرها، استدارت «زهرة البحيرة» إلى رامى السهام القدير، وقالت له وهى تمد إليه يدها : «أية هدية أتيت بها لى؟».

فأجابها الشاب اليافع: «هى - فى الحقيقة - هدية صغيرة . صحيح أننى صدت حوتا ضخما، ربما كان أكبر حوت فى العالم. ولكن ماحدث هو أننى أعطيته هدية لهنود كانوا يموتون جوعا فى «خليج الحيتان» وهذا كل ما احتفظت به: إن اسمه «العنبر الرمادى».

وبعد أن أنهى «عصفور الأمواج» كلامه، قدم إلى «زهرة البحيرة» علبة من الخشب ممتلئة بمعجون عذب الرائحة.

فخضبت الفتاة وجهها ويديها به، ثم رافقت زوجها الموعود - محط أنظار الجميع - إلى الطواطم، وسار وراء الزوجين السعيدين كل أهل القرية، يقودهم زعيمهم . لم يستطع الزعيم رفع عينيه عن هذين الشابين اللذين كانا يتقدمانه. ومن سار بالقرب منه، أمكنه أن يسمعه وهو يهمس قائلا : «لقد أحسنت الاختيار يا ابنتى، «إن عصفور الأمواج» سيصبح زوجا طيبا، وشجاعا، ومخلصا لك، طالما كنت على قيد الحياة».

الهنود الحمر والموت

في بداية الأزمنة، لم يتعرض الهنود، ولا الحيوانات : للموت. كانوا يعيشون جميعا أبدا. وكان ثمة مكان يكفي الجميع. لكن الذئب الأمريكي الصغير، المزاجي والمتذمر والمستاء دائما، أخذ يشكو في كل مكان: «لماذا يجب أن ينهرس الواحد منا فوق الآخر، سيكون أفضل بكثير للجميع أن يموت العجائز» وراح ينشر فكرته عبر المراعي، وكان صوته من القوة إلى درجة سماعه بدءا من الغابة وحتى الصحراء. ولم يعر أحد أي اهتمام لأقواله؛ حتى هذه اللحظة. فقد اشتهر الذئب الأمريكي الصغير- عن حق- بأنه ليس سوى حيوان غادر ، لايبحث إلا عن إثارة المتاعب في كل مناسبة .

لكنه بدا - هذه المرة - مصرا على الفكرة التي اختمرت في رأسه - الصاخب ذي القرنين - بسهولة. وما حدث أنه في هذا العام - بالتحديد - هطل الجليد لمدة أطول من المعتاد. وأخذ شبح المجاعة يهدد الحيوانات. فاستغل الذئب الأمريكي الفرصة، وبدأ يقول لكل من يصادفه :

«المسألة كما ترونها . لقد قلت لكم من قبل! عددنا كبير جدا، لذا نعاني الجوع. ولكن إذا مات العجائز ، سيكون لنا جميعا ما يكفينا من الطعام».

وأخيرا. سمع «شامان الأعظم» - نو القوة الخفية - باقتراح الذئب الأمريكى الصغير، فحزن العجوز الحكيم حزنا شديدا. وفى البداية، أراد معاقبة الفاسق ذى النية السيئة. ثم ، وبعد أن فكر فى الأمر، قرر عقد مجلس موسع للشورى، لقد آمل أن يثبت بهذه الطريقة - للذئب الأنانى- أن اقتراحه يثير اشمئزاز الجميع. وقال لنفسه :«من يعلم؟ ربما يغير الذئب الأمريكى الصغير ما يفكر فيه أمام الإنكار العام».

وهكذا، اجتمع الهنود والحيوانات - ذات يوم على «سفح الصخرة المقدسة»، جلس «شامان الأكبر» على عرشه، فوق جذع شجرة، على قمة الصخرة، وريش زينته يرتسم فوق السماء، فبدا وكأنه سيبلغ عنانها، عندما رفع رأسه ليحدث شعبه بهذه العبارات :

«يا أبنائي ، لايمكن أن تستمر معاناتى أكثر من ذلك، وأنا أسمع الذئب الأمريكى الصغير وهو يعوى -فى كل جهة- بفكرته الخاصة بإدخال الموت إلى العالم. ولهذا جمعتكم . فقولوا للذئب الأمريكى رأيكم فى اقتراحه، ليستخلص منه العظة والعبرة».

أخذت الحيوانات تناقش المشكلة فى هدوء، بينما ظل الذئب الأمريكى الصغير منزويا جانبا. كان يهرش ما خلف أذنه، وهو يشعر بقليل من الذنب، ثم ينتقل من حيوان لآخر ليستمع إلى ما يقال .

وفجأة صرخ الذئب الأمريكى الصغير . «أيها الشامان الكبير» أنا لم أقصد الإساءة إلى أحد، الأمر يتلخص فقط - فى أنه لايوجد

ما يكفى من الطعام لكل الناس، ونحن لانستطيع أن نحيا جميعا» وكانت عيناه الخبيثتان الضيقتان قد أصبحتا مجرد فتحتين صغيرتين. وأضاف قائلا :

«لم يدر بخلدى - أبدا - أن من سيموت لن يتمكن من العودة لهذا العالم».

وكان السنجاب أول من رفع صوته قائلا :

- «إذن ، ما الذى تقترحه؟»

فقال لهم الذئب الأمريكى الصغير: سأقول لكم... لكن لا أحد منكم يثق فىّ، فما فائدة الكلام؟».

فألح الهنود قائلين : «هيا، وقل لنا ما الذى يفكر فيه» ، بينما انحنى «الشامان الأكبر» ليسمعه بشكل أفضل.

فقال الذئب الأمريكى : «إذن ، إليكم وجهة نظرى. أقترح أن نصنع ثقبا فى السماء، يذهب إليه كل العجائز خلال فترة زمنية معينة . وبعد ذلك، عندما يذهب الجليد، ويصبح الطعام وفيرا، ننادى عليهم من جديد».

فهمس الدب: «لكن ، لاتوجد شجرة مرتفعة ارتفاعا شديدا لتصل إلى السماء».

فأجاب الشريك المتواطىء الماكر :«لقد فكرت فى كل شىء يمكن لسهم من سهام الهنود أن يصل إلى السماء ويتعلق بها، وبعد ذلك، يمكننا أن نبعث بسهم ثان يتشبث بالأول، ثم سهم ثالث ورابع، وهكذا ، إلى أن نقيم بالسهام وسيلة ربط بين السماء والأرض.

عندئذ، سيتمكن كل واحد من تسلقه ليصعد إلى هناك. وسيكون الهبوط عليه أسهل بكثير ».

بدا الاقتراح - للوهلة الأولى - منطقيا تماما. لكن «الشامان الأكبر» يحس أن بالأمر خديعة ما. وعبثا تأمل فى الموضوع، لم يجد فيه مايعترض عليه. بل إن أكثر أعضاء مجلس الشورى تشككا وافقوا على فكرة الذئب الأمريكى الصغير، الذى أخذ يبتسم - فى لزوجة- وهو يقول فى داخله . «لو يعرفون!».

كان الهنود قد اندفعوا - دون أن يضيعوا الوقت- وأخذوا أقواسهم وجعباتهم، وجمعوا أكبر عدد ممكن من السهام، وراح أمهر الرماة يصوبون عاليا فى السماء.

«ز...ز...ز» وصفّر أول سهم فوق رؤوسهم، ثم اخترق سحابة كثيفة، وتلاه - على الفور- سهم ثان التصق به، فى منتصف زينته المرصعة بالريش.

كانت الحيوانات مفتونة من الإعجاب وهى ترى استعراض المهارة فى الرماية. بينما الذئب الأمريكى الصغير لايكف عن التمثيل، فيجرى بين أقدام الرماة، وكأنه هو الذى يعلمهم التصويب .

وها هو خيط طويل من السهام يهبط حتى «الصخرة المقدسة». فقام «الشامان الأكبر» من مجلسه فوق جذع الشجرة، وأخذ الحبل بيديه الاثنتين ، وراح يشده بقوة ليختبر صلابته. كان متينا جدا. كان من المتانة التى تمكنه من تحمل ثقل الدب.

وكان الغروب قد حل. ففرق «الشامان الأكبر» الحشد بحركة من

يده، ليعود كل واحد إلى بيته، ورغم هذا وجه إليهم الحديث التالى :

«اذهبوا إلى النوم ياأولادى، ولكن، اعتبارا من اليوم – للأسف– سيصبح الموت بيننا. أنتم أنفسكم قررتم ذلك. والآن، سأفتح باب «الصخرة المقدسة»؛ لأسمح للموت بالمرور، ومن سيختارهم ، سيتسلقون الحبل حتى السماء، ويمكثون فيها فترة معينة».

واحتوى الليل البلاد. أول ليلة يمكن للموت فيها أن يتجول فى الأراضى الهندية، الليلة الأولى مات فيها عجوز فى حفرته، وصياد وحيد فى كوخه، ونسر فى أجوائه عاليا، هناك، فوق الجبل. لقد حملهم الموت – فى *الظلام*– حتى «*الصخرة المقدسة*». وقبل حلول الفجر، كان آخرهم قد اختفى فى ثقب السماء المرصعة بالنجوم.

ثم مر الوقت. وأمكن سماع – فى كل مكان – بكاء العائلات التى تعيش الحداد. وذهب أقارب المتوفى إلى «الشامان الأكبر» يطلبون منه المشورة. لكن، حتى هو نفسه، لم يعد قادرا على إعانتهم فى ظل تلك الظروف.

فكان يقول لمن يأتى لاستشارته : «علينا أن ننتظر إلى أن تصبح النجوم أكثر انخفاضا، فهى لن تتمكن ، فى ارتفاعها الحالي، من سماع صرخاتنا».

وهكذا استمر الحال ليلة إثر ليلة، وكانت الدواب والناس تمكث وهى مسمرة عيونها فى اتجاه السماء، وهى تأمل أن ترى عودة الراحلين.

وحده الذئب الأمريكى الصغير لم يعد أحد يراه، فقد اختبأ، تحت

الأرض في حجرة، ومن كان يمر بالقرب منه يسمع أصواتا غريبة صادرة عن خرفشة فى الحفرة، أخذوا يتساءلون عما يمكن أن يحيكه قاطع الطرق العجوز من مؤامرات، أو اعتقدوا – فى أغلب الأحوال – أن الذئب الأمريكي الصغير يخشى أن يعاقب على مزاجه السيء الذى انقلب إلى كارثة، وأنه، لهذا السبب، يختبىء تحت الأرض، بعيدا عن متناول أنظارهم.

لكن الأمر لم يكن كذلك: فذهن الذئب المخادع يرسم خطة جديدة أكثر سوءا . فبعد أن خزن كمية من أحجار السيلكس فى جحره، قضى أياما فى شحذ أسنانه، فأصبحت أنيابه أكثر حدة من فأس «التوما هاوك» وكان عمله هذا هوالسبب فى الخرفشة التى تسمع من الخارج .

وعندما أصبحت أسنانه حادة تماما، إلى درجة أنه من الممكن أن يقطع لسانه هونفسه – لدى أقل حركة – رأى الذئب الأمريكى الصغير أنه أصبح مهيئا لخوض مهمته الجديدة، التى أوكلها إلى نفسه، فخرج – بهدوء– فى الليل .

أوشك الفجر على البزوغ، والصمت كان مطلقا . فزحف الذئب الأمريكى الصغير – خلسة – حتى «الصخرة المقدسة»، وقد حرص على ألا يترك خلفه أى أثر . فتجنّب أن يطأ الأعشاب. ثم توقف – لحظة– على سطح «الصخرة المقدسة» وهو يصيخ السمع. وعدا صفيرالريح فى ثغرات الصخرة، كان الصمت مطلقا، ولم يمنعه أى شيء من تنفيذ خطته الجهنمية. وقف على قائمتيه الخلفيتين، والتقط

آخر سهم بين أسنانه، ثم أخذ يقرضه. وسرعان ما تبعثر الخشب اللين، لكن باقى السهام ظلت مثبتة فى السماء فأهاج ذلك غضب الذئب الأمريكي الصغير ، فأخذ يهز - مسعورا-حبل السهام، على أمل نزع أول سهم عن السحابة التى التصق بها.

وكان نجاحه باهرا: لقد تحطمت السهام حوله، مصدرة دويا كدوى الرعد، وسقط بعضهم فوق ظهره، فلم يستطع أن يمنع نفسه من الصراخ متألما .

وبسرعة، زحف إلى حفرته. وحدث رعب حقيقى فى المكان . أيقظ الصوت الدب، فجرى وذهب بسرعة ليوقظ الآخرين، دون أن يستثنى «الشامان الأكبر».

لكن، لم يعد من الممكن عمل أي شيء. ومن الآن - فصاعدا- لم يعد بإمكان الموتى العودة بين الأحياء ..

تملك «الشامان الأكبر» غضب هائل، وعلى الفور ، نطق بالحكم الرهيب على الذئب الأمريكى المذنب :

«سيكون عقابك الطرد من بين صفوفنا. لقد صبرنا أكثر من اللازم. وكنا نأمل - دائما- أن تغير ما بنفسك. لكن كل شيء ذهب عبثا. والآن، اذهب إلى المراعي، ستعيش وحيدا هناك، وهكذا لن تسبب أذى لأي مخلوق».

أخذ يسير ويهيم طوال اليوم؛ وربما أكثر من ذلك، خوفا من «الشامان الأكبر». ثم استقر فى مكان مهجور ، حيث لا حياة لأى مخلوق حول المكان .

وهناك ، بدأ - وحيدا- يشعر حقا بالأسف على سلوكه الشرير. ومنذ ذلك الوقت وهو لايكف عن الشكوى والرجاء بأن يتركوه يعود بينهم. ورغم أن شكواه قد تردد صداها بعيدا، فلم يشفق عليه أحد، ولم يناد عليه أحد. ومثله ، مثل الموت الذى أدخله - بلا روية- إلى هذا العالم، لم يعد أبدا إلى حفرته على سفح «الصخرة المقدسة».

الأغنية الأبدية

كان الليل ، وبلد الهنود الحمر يلتف بظلام شديد حالك، حتى إن أحدا لم يجرؤ على إخراج طرف إصبعه خارج منزله. وحدها الريح كانت تتنهد – وحيدة – خلال الأعالي البعيدة .

ورغم ذلك، أخذت مجموعة من الرجال تتقدم عبر الدرب الممتد على طول «خليج الثعابين» مختبئين تحت الأحراج الكثيفة. كانوا يتقدمون بخطوة الذئب، ويتجنبون وطء الأغصان الصغيرة، دون أن يهمسوا بكلمة. فقد اندفع «الداكوتاش» لساحة الحرب، وها هي مجموعة من المحاربين تسرع لمفاجأة العدو قبل حلول الصباح .

ساروا وركضوا في صمت، تتقدمهم قوة استطلاعية، فيما ظلت إحدى الفرق في المؤخرة لتحميهم من أية مفاجأة .

وانحرف الدرب عن المرعى، ليقودهم نحو أيكة صغيرة.

– «لنسترح هنا»، قال لهم زعيمهم، رافعا صوته للمرة الأولى. وأضاف:«المكان معزول، ويمكننا حتى أن نشعل نارا». وعلى الفور ، جمع المحاربون كومة من الأعشاب الجافة والخشب المتساقط وسرعان ما لمعت النيران : فجلسوا حولها في استرخاء وأخذ البعض يصلح حذاءه المقطوع، بينما راجع بعضهم الأقواس والسهام؛ فيما أخذ آخرون يعدون الطعام .

وأثناء انتظارهم للعشاء، أخذ العجائز يقصون الحكايات. كانت – بالطبع – حكايات معارك ومغامرات غريبة، حدثت منذ زمن بعيد جدا، تحدثوا عن طلسم ذى قوة خارقة، حافظ على حياة العديد من المحاربين ، وحكوا عن فتيات جميلات أتين من «بلاد الظلمات» ليغرين أشجع المحاربين، ويقدنهم إلى المناطق التى لاعودة منها .

أصغت النار – فى صمت – لتلك الحكايات وهى تطلق دخانها حتى أطراف الأوراق الخضراء. ولكن، فى اللحظة التى قام فيها عجوز أشيب ليؤدى الصلاة الرسمية، أخذت النار تقرقع وتصطك، وهى تلقى بالشرر، فى كل الاتجاهات. وفى نفس اللحظة ، حدثت ظاهرة أكثر غرابة.

فقد ارتفع غناء من بين الأشجار المجاورة .

ارتفع الصوت، واتسع إلى أن ملأ الأيكة بترنيمة حزينة، ثم رق وامتد رقيقا، ليختلط بتنهيدات الريح.

فهمس الزعيم : «اطفئوا النار» وابتعد فى الظلام .

وبدا كأن القمر يستجيب لأوامر سرية، فخرج عندئذ من بين السحب، فأضاء انعكاس نوره الشاحب جذوع البتولا الفضية. وتقدم المحاربون فى حرص بين الأعشاب الرطبة، وهم يراقبون – بحذر – ظلال الأشجار المنحنية، التى أخذت تتأرجح مع الريح. كان الغناء مستمرا أبدا، ويزداد وضوحا كلما اقتربوا من شجرة دردار أعلى من الأشجار الأخرى، فى الحد الأقصى من الغابة الصغيرة .

عندئذ، تحلق المحاربون فى دائرة واسعة حول الشجرة

الغامضة، وأخذوا يتقدمون ببطء، خطوة خطوة، وأخذت دائرتهم تضيق، والغناء يتصاعد ويتصاعد، إلى أن بلغ أعلى الذرى، فانطفأ بالسرعة التي بدأ بها. وبدأ المحاربون - الذين تجمعوا تحت جذع شجرة الدردار الجليلة - يفحصونها من أعلى لأسفل، وهم ينقبون جذعها الذي أتلفته تقلبات الجو، وجذورها المزدحمة بالعقد.

عندئذ اكتشفوا - داخل تجويف بين الجذور- كومة صغيرة من عظام بيضاء. كانت بقايا محارب مجهول. وبجوار الجمجمة، رقد قوسه المحطم، وعن بعد قليل، كانت بعض السهام مبعثرة .

فقال لهم الزعيم، محطما الصمت المستتب بالمكان: «ما سمعناه وما رأيناه يشير إلى أن هذا المكان هو آخر مكان ارتاح فيه بطل ضحى بحياته من أجل الآخرين». ثم واصل كلامه «الموت نفسه لايمكن أن يخرس صوت بطل كهذا . سيتسمر غناؤه بلا كلل. إلى أن تسمعه آذان الأحياء، في نهاية المطاف، ويلتقطون رسالته. وهو ماحدث توا، والآن ، يقع على عاتقنا أن نكون لسان حال هذه الأغنية والرسالة التي ترددها عن أكثر الواجبات الإنسانية قداسة، واجب التضحية بالنفس فداء الآخرين » علينا أن نصون هذه الترنيمة في ذاكرتنا، وأن نركع لأوامرها، إلى أن يحين اليوم الذي نصل فيه إلى «بلد الظلمات». عندئذ ، لن تموت أغنيتنا نحن - هي الأخرى - مثل هذه الترنيمة .وسيظل صداها أبديا!».

الصخرة المقدسة

«لقد تأخر الوقت جدا وأنت متعب» قال الغليون الهندى بعد وقفة قصيرة . ثم بعث بنفثة من الدخان ، وأضاف:

فتوسل إليه الصبى الصغير : «آه لا ! ليس الآن ! فكم أحب أن أسألك سؤالا ...»

فقال الغليون : «موافق ، اسأل ماتريد، ولكن كن مقتضبا. إذ أن تبغى يوشك على النفاد وصوتى ينزوى».

فسأله الصبى الصغير: «قل لى، من هو «الروح الأعظم»، وأين يعيش؟» فأجابه الغليون:«الروح الأعظم» هو أقوى الأرواح الهندية. وهو يقطن خيمة كبيرة فى السماء، رغم إمكانه أن يكون فى كل مكان وفى نفس اللحظة».

– «ولم يره أحد؟» .

– «لا أحد رآه. غير أنه – منذ زمن بعيد جدا – أرسلت الوجوه الشاحبة ساحرا ليطرد «الروح الأعظم» من البلد الهندى، ولكن «مانيتو» انتصر فى هذا الصراع» .

فقال له الصبى: كن لطيفا، واحك لى كيف حدث ذلك!».

–«حسنا، سأحكى لك الحكاية كما حكاها لى «الهيرون» بأنفسهم. ولكن هذه الحكاية ستكون – حقا – آخر حكاية هذه الليلة،

فانصت...كان «الروح الأعظم» يستريح على قمة «الصخرة المقدسة» عندما جاء رسول «البيض».

فحياه «مانيتو» بأدب قائلا: «حوا» . غير أن القادم الجديد لم يتفضل حتى بالرد عليه . واكتفى بالنظر حوله وهيئته كالحة .

فسأله «الروح الأعظم» : «لماذا أنت صامت؟».

- «إنني أقوى منك. وسأطردك من هنا» ، هكذا أجابه. ولنعترف أنها إجابة غير مهذبة .

- «حاول وسترى».

فقام الآخر وجلس -صامتا- على الأرض، وأخذ يتلو من كتاب كان قد أخرجه من جيبه، ويهمهم بعبارات لم يفهمها «مانيتو» ولأن الأمر استغرق وقتا طويلا حقا، ولم يحدث أى شيء، اقترح عليه «مانيتو» الاقتراح التالى :

- «إذا كنت تأمل قياس قوتنا بهذه الطريقة، فأنت مخطىء، ولن نصل إلى شيء. ولكن ، هل ترى هذه الصخرة التى أجلس عليها؟».

فأشار الوجه الشاحب - وهو ساهم- بعلامة الموافقة.

فقال له «مانيتو» : «من سيتمكن منا من زحزحة الصخرة، سيظل سيد البلد الهندى، إنها «صخرة مقدسة» هيا، وحاول . لك شرف بدء المحاولة !».

عندئذ ، أخذ القادم الجديد فى التلاوة، والتلاوة ، حتى وصل إلى الصفحة الأخيرة، لكن الصخرة لم تتحرك أبدا .

عندئذ، قام «الروح الأعظم» وانتصب واقفا، وألقى بنعله الجلدى،

وغرس قدميه جيدا فى الأرض، ليثبت نفسه جيدا . وأخذ يدفع، ويدفع بكل قواه... «كراك» ، وتردد الصوت هائلا، وتراجعت الصخرة خطوة كبيرة للوراء .

فسأل «مانيتو» خصمه: «أرأيت؟» ..لكن هذا الأخير لم يكن هناك ليجيب عن سؤاله. لقد رحل منذ فترة. أخذ يجرى ويجرى بأقصى سرعة له، حاملا خلف خطواته سحابة من الدخان. ولم يره أحد – بعد ذلك – فى البلد الهندى.

الليلة الثانية

فى الليلة الثانية، وعندما أتى الصبى الصغير ليجلس بالقرب من النار المشتعلة، قال له الغليون الهندى، وهو ينفث سحابة من الدخان فى الهواء :

«كنت أنتظرك» وكان المطر يطرق النوافذ والسقف، بينما الدفء يشع بالداخل .

قال له الغليون، وهو يمهد لحكاياته: «لقد عاش الهنود - دائما - فى الهواء الطلق، وعرفوا لغة الحيوانات والنباتات. فقد كان يمكن لجدول ماء فى الغابة- مثلا- أن يقول لهم : أغنى عندما ترتوون من مائي» وعندما تنعكس السحب الجميلة أو النجوم فى مرآتى، أغنى.

وتقول النار للصياد الهندى: أنا أختك ، أنا أحميك من البرد والحيوانات الضارية.

وتهتف له الأعشاب، فى خجل،: أنا أختك، ويمكن لك أن تقرأنى كما تقرأ فى كتاب .

فسأله الصبى غير المتشكك نوعا ما: «وهل كان ذوو البشرة الحمراء يفهمون كل ذلك حقا؟».

فقال له الغليون: «بالتأكيد، بل ويفهمون أشياء أخرى كذلك، فهم يعرفون عادات الحيوانات جيدا، مثل معرفتهم بقدرة الأعشاب على الشفاء. إنهم - بكلمة واحدة - يعرفون الغابة مثل معرفتهم بما فى جيوبهم. وسأحكى لك - هذه الليلة - بعض الحكايات التى حكوها لى عن الطبيعة والحيوانات، فاسمعنى جيدا ...».

كيف أصبح للهنود أحصنة

فى قرية هندية تقع على حافة «النهر الكبير»، عاش شاب يتيم وفقير. كان كوخه الطينى أصغر الأكواخ كلها، ولأنه كان لايزال صغيرا وضعيفا على حمل السلاح، كان يتسول قوت يومه، وللأسف، فكثيرا ماكانوا يطردونه والناس تقول له :« لماذا علينا أن نطعمك؟ أنت لا تفيدنا فى شىء» ثم يضيفون ساخرين: «حتى الطفل الرضيع يمكنه أن يهزمك فى حمل الأشياء!».

فى ذلك الوقت، لم يملك الهنود الأحصنة، لا شك أن «تيراوا» - «الروح الأعظم» - قد نسى منحهم ذلك الحيوان العظيم النفع، إذ كانوا يستخدمون - فى تنقلاتهم - الكلاب، أو ظهورهم هم..

ورغم هذا، فلم يرفض زعيم القبيلة منح اليتيم شيئا ليأكله، بل، وفى أحد الأيام، أهداه زوجا من الأحذية «الموكاسان»؛ وأخذ يدعو سكان القبيلة لمساعدة الصغير، ويقول لهم : «إن «تيراوا» يعلم لماذا أتى هذا الصبى الصغير إلى العالم وربما أصبح ذات يوما بطلا كبيرا وصانع مجد «القرية»، ورغم ذلك فقليلون هم الذين صدقوا قول الزعيم، إذ أن الناس أخذوا يتساءلون عن نوع الأبطال الذى يمكن لهذا الولد النحيل أن يكونه .

وفى الربيع، وعندما سمع دقات كعوب الثيران الأمريكية «البيسون» عن بعد، وبدأ أول عرف أسود يرتسم جانبيا فى الأفق،

كان الهنود يغادرون القرية فى حشود كبيرة، ليطاردوا القطعان التى تعطيهم اللحم والفراء طوال الشتاء. وكانت تلك هى الأيام التى يخشاها اليتيم. فوقتئذ يتركه الجميع وحيدا. وكان من الصعب عليه الحصول على الطعام وحده. وقد سبق وحدث- أكثر من مرة - أن وجدوه- عند عودتهم - شبه ميت من الجوع.

وذات صباح جميل من «شهر الورود»، لاحظ الحراس العرف الأسود المألوف من بعيد، وانطلقت الصيحات فى كل مكان : «البيسون، البيسون». وقبل أن تتمكن أشعة الشمس الأولى من تبديد شابورة الصباح، كانت القرية قد أصبحت شبه خالية .

كم هو مسكين هذا الصبى! فقد جلس وحيدا على عتبة الكوخ، وظلت نظراته تغلفها سحب الغبار التى كونها رحيل آخر الصيادين وكلابهم؛ والتى أخذت تهبط ببطء، كان لايزال من الممكن تمييز الصراخ ونباح الكلاب لكن الظلال اختفت فى المراعى .

لقد تركوه وحيدا تماما! فانفجرت الدموع المرة من عينيه وسقطت حتى نعليه، كم أحب أن يتبع الآخرين. ولكن، لا أحد يريده.

وسرعان ما أغرقت دموعه التراب. وفجأة، بدا له أنه يسمع صوتا رقيقا وهامسا يأمره :

« هيا، أفق، وكفى بكاء، العب! وأرنى ما الذى تقدر عليه أصابعك النحيلة!».

من الذى تكلم؟ وبماذا عليه أن يلعب؟ ظلت نظرته محنية على كوم التراب الذى حولته دموعه إلى طين بين رجليه. بدا وكأنه جاهز

للتشكيل.

فقال لنفسه، وهو يأخذ الطين ويحاول أن يشكل بين أصابعه قطعة الأرض الطرية: «سأصنع لنفسي كلبا، وهكذا، لن أشعر بالوحدة بعد الآن». ولكن. ما الذى يحدث؟ فبدلا من أن يصنع قوائم الكلب القصيرة، صنع أربع قوائم تنتهي بحوافر. حتى الرأس، كانت أكبر من أن تكون رأس كلب. فلها أذنان مدببتان ومنتصبتان، أشبه بعُرف «البيسون» الملتف حول رقبته! وفى الخلف. أما الذيل، فلا يشبه ذيل الكلب أبدا، مالذى صنعه؟ إنه لم ير أبدا حيوانا كهذا!

« ياله من كلب غريب ! سأعيد المحاولة من جديد. ولكن، هذه المرة، سأكون حريصا!» وعبثا حاول الانتباه. بدا وكأن شيئا ما يقود أصابعه، فصنع – مرة ثانية، ورغما عنه، حيوانا يشبه الحيوان الأول.

فأخذ يتأمل – حائرا – تمثاليه الصغيرين، وقد وضعهما أمامه على الأرض. وفجأة، شعر الصبى بالملل الشديد. فتمدد – كما هو – على الأرض، ونام سريعا فرأى حلما:

لقد غادر «تيراوا» منزله البعيد، ليأتى إليه – بنفسه– ويقول له:

« أنا الذى أمرتك باللعب، وبتحريض منى، شكلت أصابعك الأحصنة التى يمكنك – ابتداء من الآن– أن تستخدمها فى جر الأحمال، أو فى حملك ولأنهما لايزالان صغيرين، عليك أن تحملهما إلى المراعى ليأكلا ويشربا– طوال أربعة أيام وأربع ليال – على طول «النهر الأكبر». عندئذ، سيكبران ويعودان عليك بمنافع كثيرة!».

ثم صمت «تيراوا» ، وتبدد فى الفضاء ، مثل ارتعاشة على سطح الماء. فاستيقظ الصبى، وأخذ التمثالين الصغيرين، وجرى بهما إلى «النهر الأكبر» . فقد كان يعرف أين توجد الأعشاب الغضة الوفيرة. ثم وضع تمثاليه الصغيرين - بحذر شديد - حتى لايفسدهما. وما أن لمسا الأرض، حتى أخذا فى الصهيل. ولم يصدق الفتى اليتيم عينيه. وبمعجزة ، كبر الحصانان فى سرعة كبيرة .

فتركهما يرعيان العشب ويشربان ماء «النهر الأكبر» كما يشاءان. وفى المساء، عاد بهما إلى القرية. لقد كبرا بسرعة كبيرة - وفى وقت قصير - فأصبحا يدخلان كوخه بمشقة كبيرة. واضطر فى الليلة التالية أن يؤويهما فى خيمة الزعيم؛ فهى أكثر ارتفاعا واتساعا من خيمته.

شعر الصبى بفرحة غامرة وهو يرى حصانيه يصبحان أكبر وأقوى! وفى صباح اليوم الثالث، تجول خلال القرية، والرغبة تراوده فى أن يلحق بجيرانه وأصدقائه ليصيد معهم الثيران الأمريكية. ولم يستطع مقاومة رغبته، فنسى نصيحة «تيراوا» القوى، واندفع فى اتجاههم؛ فعبر «النهر الأكبر» وقاد حصانيه الصغيرين متتبعا آثار قطيع الثيران الأمريكية .

لم تكن له خبرة فى الأحصنة. ولم يسبق له رؤية حصان من قبل. لذا، اعتقد أنهما - على أية حال - لن يكبرا فى اليوم الرابع أكثر من ذلك. لكن «تيراوا» الكبير كان يراقبه، وفى البداية، شعر بقليل من الحيرة ، إذ أن رغبته الأولى كانت أن يمنح الهنود حصانا كبيرا فى

حجم حصان ذوى «الوجوه الشاحبة». ثم قال لنفسه إن حصانا صغيرا - رغم كل شىء - أكثر رشاقة ، لذا سيؤدى خدمات أفضل فى مجال الصيد، ولهذا ، يسمون الحصان الهندى «بونى»، أى «الحصان الصغير».

وبعد فترة من السير، رأى الفارس الشاب دخان معسكر الصيادين يرتفع عاليا من بعيد، وبدا له الطريق قصيرا وهو يمتطى الحصان.

وعندما رآه الزعيم والآخرون، أصابتهم الدهشة الكبيرة. ولم يتمكنوا من رفع عيونهم عن الحصانين الصغيرين. أما فيما يتعلق ببطلنا، فإنه لم يعد - منذ ذلك الوقت - طفلا فقيرا وضعيفا ومهجورا ، كان فى طريقه ليصبح شابا يافعا وشجاعا، وهو الذى سيصبح - لاشك - زعيم القبيلة خلال بضعة أعوام.

والحق يقال ، هذا ماحدث، فهو لم يستغرق وقتا طويلا ليهزم الآخرين فى العدو، والتصويب بالسهام والصيد. وأصبح من المهارة حتى أن القبيلة أجمعت - عندما ذهب زعيمها ليلحق بأسلافه - على اختياره هو اليتيم الفقير فيما مضى ، ليخدمهم كأب لهم جميعا، فقادهم بحكمته الواسعة، خلال امتداد السنين الطويلة.

البومة والفأرة الصفراء

كانت البومة تحاول أن تنام نومة القيلولة، فى ساعة الظهيرة الحارة. لكنها لم تتمكن من النوم، فأخذت تتساءل عما يجرى فى الخارج، فيما الجميع يعتقدون أنها نائمة.

كانت هذه البومة شديدة الزهو بنفسها، وتتمنى أن يخشاها الجميع. ولكنها، لسوء الحظ، تنام طوال النهار، فى الوقت الذى يخرج فيه أغلب الحيوانات، وطوال الليل، ومهما أجهدت نفسها فى النعيب، فلم تكن لتوقظ سوى الصدى، وعدا ذلك، فلا أحد يخرج من مكمنه، ويظل كل شىء هادئا.

فكانت تضحك ساخرة، وهى تقول : «ها... ها...!» إنهم يختبئون، إنهم يخافوننى». ثم تصرخ بملء رئتيها : «هوو! هوو هوو هووا».

ولكن ذلك كله لم يعد كافيا لإرضاء غرورها .

فقالت البومة فى سرها، فى ذلك اليوم الجميل من أيام الصيف، والذى لم تتمكن خلاله من النوم : «حسنا ماذا أصنع لو ذهبت إلى الحيوانات لأسألهم رأيهم فىّ، وعلى أية حال، فلن أحتاج إلى الذهاب بعيدا، فثمة قطيع من الفئران يعيش أسفل هذه الصخرة، سأذهب وأسألهم».

أخذت تتقافز قليلا - هنا وهناك - فى جحرها، وباختصار، لم ترغب حقا فى التعرض لضوء النهار القاسي، وأخيرا، اتخذت قرارها وخرجت من ظلمتها العزيزة .

صرخت الفئران عندما رأت البومة : «بومة ! بومة!» وأسرعت تعدو إلى الحفرة بأقصى سرعة تصل إليها قوائمها الصغيرة.

. كان ذلك هو ما يعجب البومة، ذلك الهروب المضطرب لحظة اقترابها من الحيوانات! عندئذ، جاءت وحطت بالقرب من أقرب حفرة للفئران، وانحنت لتنظر بالداخل، غير أن وضعها هذا لم يكن مريحا .

- «هيه! يا فأرة ، يا فئيرة، هل أنت هنا؟ لاتخافى» فأجابتها فأرة صغيرة: «نعم ؛ أنا هنا» كانت الفأرة تعرف أن البومة لاتستطيع إيذاءها، طالما أنها بالداخل، وبرغم ذلك ، فلم تشعر بالارتياح. عندئذ ، قالت لها البومة بنبرة متلهفة، مطمئنة قلب الحيوان الصغير الذى أعلن لها عن وجوده : «إننى أريد- فقط- أن أسألك سؤالا . قولى لى ما الذى يحكونه عنى فى منطقة البحر».

فـفكرت الفأرة : «أهذا هو السبب الذى جعل هذه العجوز المجنونة تحوم حول جحرى فى وضح النهار؟» ولكنها أجابتها بصوت عال : «يقولون إنك زعيمة الليل».

كانت هذه هى النغمة المطلوبة، التى تحب البومة المغرورة سماعها .

- «ما الذى يقولونه؟ كررى لى - من فضلك- ولكن لاتكررى القول بسرعة». فقالت الفأرة، وهى ترتعش غضبا : زعيـ..مـة.. الـ..ليل..» وأخذت تفكر «يالها من حيوان معجب بنفسه ومتعجرف ! يالها من مسخ كريه الهيئة».

ولم تعد البومة بقادرة على التماسك من شدة الفرح. فكررت طلبها على الفأرة « والآن ، اهمسى لى بهذه الكلمات فى أذنى»، واجتهدت لتلصق أذنها بباب جحر الفأرة.

لكن ذلك قد تجاوز حدود الفأرة الصفراء الصغيرة، فاقتربت بجرأة من الفتحة وصرخت بكل قواها: «أنت عجوز مجنونة، وحيوان مزعج، هذا هو أنت!» ،بسرعة تراجعت إلى أعماق مأواها، لتصبح بعيدة عن متناول البومة.

تسمرت البومة مذهولة، وأخذت ترمش بأهدابها غير مصدقة أذنيها. ثم انتابتها موجة غضب هائلة، فصرخت فيها :

«انتظرى حتى أمسك بك». وصرخت فيها بلهجة تهديد: «ستنالين جزاء تصرفك هذا معى بدون احترام ! لن أتحرك من هنا إلى أن تخرجى من الحفرة». ثم غرست منقارها، بغضب شديد، فى فتحة جحر الفأرة.

لكن الفأرة لم تلح عليها أكثر من ذلك، ونحن – طبعا– نفهم سبب سلوكها هذا. فقد تسللت من الممر الخلفي، ولحقت بصديقاتها، وحكت لهن ماحدث للتو.

أما البومة الطائشة، فقد ظلت هناك أمام مدخل الباب الأمامى! أخذت تضرب الأرض برجليها، ولكنها ظلت تنتظر، وقد كلفها كبرياؤها وعنادها ثمنا باهظا! على أية حال: فقد ظلت هناك، تنتظر طويلا مثل طائر الكركى طوال باقى اليوم ، ثم الليل، ثم صباح اليوم التالى، والذى يليه ، ولا أعرف كم عدد الأيام الأخرى أيضا. وفى النهاية، ماتت البومة فى مكانها، جوعا وعطشا ،ضحية جنونها الخاص.

الأيل المسحور

عندما يوشك الشتاء على الأفول، فى المنطقة التى ينمو فيها شجر «القيقب» يغادر الأطفال خيامهم الواطئة، ويسرعون متعثرين فى الثلج الذائب، غير قادرين على الانتظار، ليقطفوا ثمار شجرة «القيقب»، فيحصلوا على عصيرها العذب، الذى تمنحه الشجرة فى الربيع.

تكون هذه الأيام أيام فرحة ومسلية.

وكان الصغيران «كاتو» و«وابى» ينتظران - كل عام - مجىء هذه الأيام بفارغ الصبر، لكنهما ظلا - رغم هذا - وعكس ما اعتادا عليه- تعيسين وهادئين هذا العام. فسألهما الأطفال الآخرون، عندما رأوهما فى هذا الموقف الغريب:

- ماذا جرى لكما؟ لماذا لا تأتيان لتلعبا معنا؟».

وكانت «كاتو» تنهمر فى البكاء ردا على أى سؤال يوجه لهما، أما «وابى» فقد أوضح لهم الأمر :

- « لكن أين ستذهبان؟ فالغابة مليئة بالحيوانات المتوحشة والزرواح الخبيثة».

«لقد طردتنا زوجة أبينا من المنزل، فهى تقول أننا كبار بما يكفى لصيد الحيوانات، ولم تعد تريد الاهتمام بنا. فماالعمل ؟ لم يبق

أمامنا سوى مغادرة القرية ».

- « لكن أين ستذهبان؟ فالغابة مليئة بالحيوانات المتوحشة والأرواح الخبيثة».

فقال لهم «وابى» مؤكدا : «هه ! أنا لا أخاف، فلدى قوس مشدود جيدا، وسهام جيدة الصنع» ثم قال لأخته : «هيا يا «كاتو» ، تعالى. لقد حان وقت رحيلنا إذا أردنا أن ننصب خيمتنا قبل حلول الليل».

أخذ «وابى» بيد أخته ، وها هما يرحلان سويا هما الاثنان، عبر الدروب الضيقة المؤدية إلى الغابة العميقة.

سارا طويلا ، وكان الدرب ينمحى - فى بعض الأماكن- ليعاود الظهور من جديد، فى مكان آخر، وبعد ذلك، بعد مسافة أطول - وأثناء سيرهما - سمعا أصواتا غامضة قادمة من الغابة، وصرخات العصافير الحادة، وحفيف الأشجار، وطقطقة قشرة ما... كان الظلام يسود المناطق السفلية من الغابة، وفى كل لحظة، ظنا أنهما يريان وجوها مكشرة فى غياهب الظلمات، أو عصفور أسود مثل الظل يمر بسرعة بين جذوع الأشجار.

شعرت «كاتو» بخوف شديد ، فتشبثت بيد أخيها، الذى شعر بها وهى ترتعد بكل جسدها. فأخذ يقول لها ليطمئنها:

- «سرعان ما نصبح خارج الغابة».

« آبا.. آبا.. آبا..» ، أجابهما الصدى الساخر.

فقال لها «وابى» مقترحا: «لاتنظرى حولك» لقد احتفظت أخته بعينيها مطأطئة. أما الأخ، الأكثر جرأة، فشرع يتفقد كل شىء

حولهما يمينا ويسارا، اعتقد أنه يرى وجوها صفراء وخضراء وحمراء تقفز من شجرة لأخرى، ومن دغل لآخر، وهى تمد نحوهما أذرعا طويلة عارية من اللحم.

وصرخت الفتاة فجأة وهى تشير للأرض : « انظر. آثار حيوان».

وكانت على حق، فتحت قدميها كانت هناك آثار أيل قد مر قبلهما منذ وقت قصير.

قال الأخ وقد شعر بالارتياح : «ستقودنا هذه الآثار إلى خارج الغابة».

وما أن بدءا يتتبعان آثار الأيل حتى اختفت الأشباح المرعبة. وأخيرا، اتسعت المسافات بين الأشجار، وسرعان ما وجد الطفلان نفسهما فى فرجة واسعة، حيث الظلام أقل شدة، ويمكن رؤية العشب بخضرته الجميلة، وقد اختفى الثلج من المكان تماما. كانت آثار الأيل لاتزال واضحة ، فقادتهم نحو شجرة بلوط عجوز تمتد فروع أوراقها وسط الفرجة.

وعندما توقفا أمام موطىء الشجرة، أخذ «وابى» يشكو قائلا: «أنا عطشان» . وما أن نطق بهذه الكلمات حتى تحول آخر أثر تركه الأيل على الأرض الرطبة، وامتلأ بمياه شفافة، فركع الصبى الصغير على الأرض ليشرب منها.

فأخذت «كاتو» ترجوه: « لاتشرب من هذه المياه يا «وابى» . هذا الأثر غير طبيعى!» .

ولأنه لم يفهم سبب إنذار أخته، فقد روى «وابى» عطشه.

وعلى الفور، استولى عليه خدر غريب، فأصبحت رأسه ثقيلة، بينما شعرت يداه وساقاه بالرغبة فى القفز.

فأخذت «كاتو» تتحسر وتقول «ياه! ماهذا ؟ ماذا يحدث لك؟ ها أنت تتغطى بفراء أبيض، وتظهر لك فروع خشب فوق جبهتك!».

فحاول «وابى» الوقوف، لكن يداه كانتا مخدرتين. وهاهو يرى حوافر بدلا من أصابعه. وعبثا حاول أن يتعلق بجذع شجرة البلوط. ولم يعد قادرا على الكلام أيضا، والصوت الوحيد الذى أصدره هو صوت أشبه بصوت النفير، لقد تحول «وابى» إلى أيل أبيض.

وعبثا أرادت «كاتو» مساعدته. أخذت تحادثه، بل وحاولت انتزاع قرون الجبهة. وأخيرا، وعندما شعرت بالتعب من المشوار الطويل، ومن كل هذه الانفعالات، وضعت رأسها فوق فروة الأيل الناعمة ونامت.

وفى منتصف الليل- بالضبط - استيقظت فجأة. فسمعت همس النسيم بين أفرع الشجرة الوحيدة . لكنها سرعان ما ميزت صوتا إنسانيا يقول: «أخيرا، لقد تخلصت منهما مرة واحدة وللأبد!».

إنه صوت زوجة والدهما!

« ومن الآن فصاعدا لن يتمكن أحد من مساعدة « وابى» عدا من سيتمكن من تحطيم هذه الشجرة».

فضحك صوت آخر - أكثر قبحا من الأول - وهو يجيبها : «ها ! ها! ها! هذا لن يحدث أبدا».

فرفعت «كاتو» عينيها، غير أنها لم ترى شيئا بين أوراق شجرة

البلوط الكثيفة في الليل. وسكت النسيم فجأة، مع توقف الصوتين عن الكلام، وارتفع قمر بارد في السماء الليلية، ونامت الفتاة الصغيرة.

وفي الصباح ، تذكرت ما سمعته بالأمس، ودون أن تتفوه بكلمة للأيل الأبيض، صنعت لنفسها فأسا صغيرا من حجر السيلكس، وبدأت تحاول أن تقطع به الشجرة، ولكن، وما أن التصق فأسها «التوماهاوك» الصغير - والذي لاتملك غيره - بجذع الشجرة الضخم، حتى تفتت إلى ألف قطعة. سقطت على العشب، فاقترب منها الأيل وكأنه يواسيها. فقالت له وهي تلاطف رأسه : «لو تعرف يا «وابي» ، لن أملك أبدا القوة لأسقط هذه الشجرة، وأنت لا تستطيع مساعدتي».

أخذت تتساءل كيف ستتمكن من إسقاط هذه الشجرة العملاقة، ولأنها كانت عاجزة عن ذلك، لم يتبق لها حل آخر سوى أن تنصب خيمة وأن تنتظر. كان الأيل يرحل طوال النهار ليرعى، ويعود- دائما- ليكون بالقرب منها كل مساء.

وذات يوم ، قرب الظهيرة، سمعت «كاتو» صرخات تتردد في الغابة. ورأت - على إثرها فورا - الأيل - يجري مقبلا نحوها والصيادون يطاردونه. كانت السهام تصفر وهي تحاول الوصول إليه، وببسالة، وقفت «كاتو» أمام الأيل وهي ترتعد لتحميه بجسدها.

فأنزل الهنود أقواسهم عندما رأوا الفتاة الصغيرة. وعندما اقتربوا أكثر من الثنائي الغريب، المكون منها ومن أخيها الأيل، تعرفت «كاتو» على أبيها من بينهم.

فصرخ الأب وهو يرفعها بين ذراعيه: «كاتو! ما الذي تفعلينه هنا؟

وأخوك؟ أين هو؟».

فأشارت «كاتو» إلى الأيل الأبيض، وحكت له كل ماحدث.

وكان الرجال ينصتون للحكاية بانتباه شديد، وعندما أنهت «كاتو» حكايتها، التقطوا فؤوسهم بحزم، وأخذوا يضربون الشجرة الملعونة ضربات متلاحقة، أخذت قطع الخشب تطير في كل الاتجاهات ، لكن الشجرة كانت تقاوم. حتى هؤلاء الرجال الأشداء، لم يستطيعوا أن يلقوا بالشجرة أرضا .

اقترح واحد منهم قائلا : «لنشعل فيها النار».

فاندفعوا بنشاط، وأحاطوا جذع الشجرة بالفروع الجافة. وبدأ اللهب يلعق اللحاء الخشن، والنار تنهش شجرة البلوط، وتغوص في أعماقها، عندئذ، سمعوا صوت طرقعة هائلة، وترنحت الشجرة العملاقة، ثم انهارت بعظمة عبر فتحة الغابة.

وأخذت «كاتو» المذهولة تراقب أخاها · أخذت قرون رأسه ورداؤه الأبيض في الاختفاء شيئا فشيئا مع موت الشجرة التدريجي، والآن، ها هو الصبي الصغير «وابي» أمامها من جديد، في المكان الذي كان الأيل الأبيض يقف فيه من ثوان مضت.

فخرجت سحابة دخان أسود من النار وهي تدوم، ورأى الجميع بومة سوداء تقفز منها وتطير هاربة نحو الغابة وهي تسب وتلعن.

فصرخ الصيادون : «ساحرة! ساحرة شريرة»!.

فقال: «وابي» بصوت هامس : «نعم . هذا حقيقي، إن زوجة أبينا ساحرة. والآن، وقد تحولت إلى بومة، عليها أن تخضع للعقاب المفروض عليها، وهو أن تعيش مع كافة أرواح الغابة الشريرة».

طائر الكركى الذهبى

بعيدا جدا عن هذا المكان، على بعد ألف يوم من بلد «النهر ذى الجداول الكثيرة»، كان سرب من الطيور الذهبية يعيش هناك . إنها طيـور الكركى، والتى منحـهـا «الإله مـانيـتـو» الحكيم هذا الريش الذهبى. وفى أحد الأيام، دعا «مانيتو» زعيمهم «لاتاكينى» وقال له :

- «يا « لاتاكينى»، أنت زعيم أكثر الطيورجمالا، ولم أمنح طائرا آخر ريشا ذهبيا مثل ما منحتكم، غير أننى أفرض عليكم الشرط التـــالى: عليك أنت وســـربك ألا تغـــادروا - أبدا- الأرض التى خصصتها لكم».

فسأله «لاتاكينى»: «لماذا يحظر علينا الطيران نحو مكان آخر؟» فـأجابه «الروح الأعظم» : «ذلك أن أجنحـتكم سـتفقـد انعكاسـاتها الجميلة ذات اللون الذهبى المشوب بالسمرة». وكان «مانيتو» - وهو يقول كلماته تلك - يذوب فى الهواء، فتتماوج قمم أشجار الصنوبر مع مروره بالقرب منها.

نفش «لاتاكينى» ريشه بمنقاره الطويل، ثم بسط جناحيه القويين وطار فى مهابة، ليعلن قرار «مانيتو» على شعبه.

أوشك الصـيف على الانتـهـاء، وبدأت أول أسـراب الإوز الكندى والبط البرى ، وطير الغرة تتجمع فى بلدة «لاتاكينى» فى الشمال.

كانت كل الطيور المهاجرة تضرب بأجنحتها، لتذكر الجميع بساعة الريح، وبرحلتهم المعتادة إلى الجنوب.

وسرعان ما تزايد ضيق «لاتاكينى» وشعوره بالقلق. أخذ يراقب - أياما وأياما - أسراب الطيور الهائلة وهى تختفى فى الأفق، ويسمع - ليلة وراء ليلة - ضربات أجنحة الطيور، عندما كانت الجماعات المحلقة فى الفضاء تعبر السماء المظلمة. وذات صباح، لاحظ «لاتاكينى» أنه لم يتبق فى المنطقة سواه هو وسربه، فلم يستطع مقاومة الإغراء أكثر من ذلك، فقرر الانطلاق، وأعطى سربه إشارة الرحيل.

. وكم كان غضب «مانيتو» هائلا إزاء عصيان طائر الكركى الذهبى له. كان يعلم أنهم سيتجهون إلى بلدة «الجداول الكثيرة» فأمر مياه هذه المنطقة أن تمحو ذهب أجنحة هؤلاء العصاة .

كانت طيور الكركى الذهبية تطير ليل نهار، وتعبر - بلا توقف- بلادا مجهولة. وأخيرا، وأسفل المنطقة التى حلقوا فوقها - رأوا مرعى تتلألأ فيه الشمس، ويتموج فيه شريط فضى لأحد الأنهار، وتتلألأ فيه مياه البحيرات ، لقد بلغوا مكانهم.

فطوى «لاتاكينى» جناحيه ، ورسم دائرة بجسمه فوق إحدى البحيرات، ثم أخذ يغطس فيها ببطء، وتبعته بقية الطيور، وما أن حطت الطيور بالقرب من مياه البحيرة، حتى انفجرت العاصفة، وارتفعت الأمواج عالية جدا، حتى أوشكوا على الغرق، بينما المياه الهائجة تنتزع أجنحتهم الذهبية وتحملها بعيدا، تنفيذا لأوامر

«مانيتو».

فأصدر «لاتاكيني» إشارة الطيران الجماعي لسربه . لكن الإشارة كانت متأخرة تماما. فبدلا من أن يشكلوا سحابة صغيرة من الكركي الذهبي، التي تلمع تحت شمس الجنوب، أصبحوا مجرد سحابة من طيور بيضاء .

عندئذ، تذكر «لاتاكيني» تحذير «الروح الأعظم» له .

فأخذ «لاتاكيني» يواسي نفسه ويقول : «ربما يمنحنا «مانيتو». عندما نعود إلى منازلنا في الشمال - ريشا ذهبيا جديدا في الربيع. وإذا ماحدث ومنحه لنا، فلن نعصي أوامره أبدا، ولن نغادر المنطقة التي خصصها لنا أبدا».

انتظر «لاتاكيني» قدوم الربيع بفارغ الصبر، وما أن بدأت أول الطيور المهاجرة في العودة إلى بلادها، حتى نادى على طيوره لتبدأ رحلة الطيران إلى مسقط رأسها .

وطارت طيور الكركي أياما وليال مرة أخرى. ولم تسترح قبل أن تبلغ هدفها. وما أن حطت الطيور فوق أحد المروج، حتى بدا وكأن الثلوج قد عادت للمكان من جديد. لقد ظل ريش الكركي أبيض اللون.

عندئذ، فهم «لاتاكيني» أن ريشه لن يعود ذهبيا أبدا، وذلك لأنه خالف رغبة «الروح الأعظم».

عندما يتشاجر الأصدقاء

تلقى «الخلد الأوروبى» يوما ما – رسالة غريبة؛ عبارة عن خيط طويل من الأعشاب مليء بالعقد المتنوعة، كل عقدة منها تمثل كلمة من لغة الدواب. فهذه هى وسيلة تراسلهم فى ذلك الزمن الماضى. وبعد أن فك رموز الرسالة بشىء من الصعوبة، علم «الخلد الأوروبى» أنها دعوة. كانوا يرجونه أن يذهب إلى «الجزيرة الصحراوية». وقرأ – فى دهشة عظيمة – توقيع أربعة زعماء : الثعلب، والغراب، والأرنب البرى، والدب .

فقال «الخلد الأوروبى» لنفسه «فلأسرع . يبدو أن الأمر يتعلق بمسألة هامة، واستعد – على الفور – للانطلاق فى الطريق.

وبعد أن نسق منزله الموجود بالقرب من شجرة «قيقب» عجوز، مرر الفرشاة على معطفه القطيفى، وانطلق على الطريق دون تأخير. وعندما بلغ حافة البحيرة، كانت أنفاسه قد تقطعت، فوجد صعوبة فى اجتيازها لشدة تعبه، وأخيرا، وصل منهكا إلى «الجزيرة الصحراوية»، لكنه كان سالما ومعافى .

وجد الحيوانات الأربعة فى انتظاره هناك.

فقال الدب : «والآن، وبعد أن اجتمعنا كلنا، يمكننا أن نبدأ» ، ثم أضاف قائلا :«الكلمة للثعلب».

فـهـجم الثـعلب، دون أية مـقـدمـات، وقـال : «لقـد قـررنا – نحن الزعماء الأربعة – أن ننقل مسكنك . فـهو يقع فى منتصف طريق كل الحيوانات».

فـفكر «الخلد الأوروبى» فى نفـسـه «هذا مـا تقـوله أنت، أيهـا المحتال البائس»، لكنه لم يجرؤ إلا على الاحتجاج فى خجل، وقال له

«ولكن... لمـاذا؟ إننى مـرتاح فى المكان الذى أسكن فـيـه، فى الخيمة المجاورة لشجرة القيقب العجوز».

فنعق الغراب قائلا:« مرتاح أو مستاء، لست سوى حيوان أسود قذر، فهل تعتقد أنه يسرنا رؤيتك كل لحظة؟».

قال «الخلد الأوروبى فى نفسه: «وأنت نفسك لست ملك جمال! كل أمهات العصافير تتجنب رؤيتك قبل أن تبيض، خشية أن ينجبن أطفالا على هيئتك »

ولكن، وقبل أن ينبس بكلمة، أنبه الأرنب البرى، بدوره قائلا:

« أنت تقـضى كل وقـتك فى التنقـيب فى الأرض، ولاتكف عن التنقيب، حتى أثناء الليل، فـهل تجـهل أن نومى خفيف جدا إلى حد أن عملك هذا يمنعنى من النوم؟».

وكانت عينا «الخلد الأوروبى» المـاكرتان، واللتان تلمعان مع تألق الشمس، تنظران فى سخرية للأرنب البرى، وكأنهما تقولان له :

«الأمور تسير معك سيرا حسنا! أتعتقد أننى أصدق أننى أمنعك من النوم؟ مـا يـدنعاه من النوم هو الخـوف! إنك جـبـان، وسـتظل

جبانا».

لكن «الخلد الأوروبى» لم يعبر عن هذا الرد إلا بعينيه، ولم يفلت من شفتيه سوى دفاع مشوش :

«إننى آسف حقا ، وأعدك - مستقبلا - بالحرص على عدم إزعاجك أثناء عملى».

ثم تدخل الدب - بدوره - بصوته الجسيم:

«أنا أريد أن أرسم طريقا آخر لى، وكومة منزلك الصغير تقع فى طريقى بالضبط. وأنت لاتتوقع - آمل ذلك - أن أتحول عن طريقى من أجلك؟».

ظل «الخلد الأوروبى» صامتا، وهو ينظر إليهم الواحد تلو الآخر، كان لايزال يأمل أن يجعلهم يغيرون رأيهم، فقال وهو يئن :«يالى من حيوان مسكين . ماالذى سأصبح عليه؟ إن أبى وجدى، وكل جدود أجدادى عاشوا فى هذا البيت قبلى. و«مانيتو» الكبير - نفسه - هو الذى سمح لهم ببناء منزلهم فى ذلك المكان. فأين أذهب إذا طردتمونى؟».

فقطع عليه الثعلب حديثه وقال: «كفى نحيبا. إذا لم تذهب مختارا، فسنقتلك فى يوم من الأيام. وهكذا، سنكون قد تخلصنا منك».

«لكن ماهذا اللغط، كله، » قال صوت غريب جاء فجأة ليقطع هذا الجدل وبحركة واحدة، أداروا كلهم رؤوسهم فى اتجاه الصوت، ففوجئوا برؤية السلحفاة وهى تنظر إليهم فى حنق.

وأمرتهم السلحفاة قائلة : «ارحلوا من هنا، وبسرعة، إنها

جزيرتى ، ولا شأن لكم ببيتى هنا».

فاحتج الغراب قائلا: «لكننا نعقد مؤتمرا».

– «وما علاقتى أنا بهذا؟ اجروا بسرعة قبل أن أسلخ جلدكم برمالى الحارقة ، وداعا»

والحق الحق أن سخونة الرمال أخذت تتزايد فى شدتها تحت قوائمهم. فهرب الزعماء الأربعة بجلدهم بأقصى سرعة، وغطسوا فى البحيرة، وغادروا الجزيرة قبل أن تشويهم الرمال مثلما يشوون «أبو فرو» فوق الجمر، لكن «الخلد الأوروبى» لم يتبعهم، فقد حفر لنفسه ممرا فى أعماق الجزيرة، حيث لم تكن الرمال حارقة إلى هذا الحد، وعندما اعتقد أن الخطر قد زال، أخرج أنفه من حفرته، فرأى السلحفاة، فشكرها بهذه العبارات :

– «لقد تأكدت أنك قوية جدا . هل يمكن لى أن أطلب منك معروفا؟».

– « اطلب ولاتخف. فسأساعدك قدر استطاعتى، فقطاع الطرق الأربعة هؤلاء يريدون أن يؤذونك، لن أتركهم يفعلون ذلك. فدرعى متين، وأنا لا أخشاهم، لاهم، ولا أسلحتهم».

– «هم يريدون طردى من منزلى، ويهددون بقتلى إذا لم أطع أمرهم. هل تسمحى لى بالسكن معك هنا؟».

– « للأسف ، هذا غير ممكن. فلا شجر هنا، ولا عشب، ولاشىء ينمو فى الجزيرة، لكن ، سأقول لك شيئا: فلنصبح أصدقاء، وطالما مكثنا أوفياء لبعضنا البعض، فلن يجرؤ أحد على رفع أصغر إصبع

ضدك، أنا أضمن لك ذلك».

فوافقها «الخلد الأوروبى» مسرورا . وكان علمه بأن له الآن صديقا يحميه، يملأ قلبه بالثقة والأمل. فلم يعد هناك ما يخشاه اعتبارا من الآن. وعندما افترق الصديقان الجديدان، تواعدا على التزاور بين الحين والحين .

وسرعان ما علم الزعماء الأربعة بروابط الصداقة الجديدة التي توثقت عراها بين «الخلد الأوروبى» والسلحفاة الشديدة البأس. فحرصوا على ألا يقلقوا الحيوان الذى تحميه، ولكنهم شرعوا يخططون – سرا– للأخذ بالثأر؛ وخاصة الثعلب، فهو الذى حبك الخطة الشيطانية التالية :

قال لهم وهو يفرك يديه : «أنا أعرف ما سأفعله ، علىّ أن أتصرف بحيث أجعل هذين الاثنين لايلتقيان أبدا، عندئذ، سنرى ما سنراه!».

ثم جاء اليوم المشؤوم، كانت السلحفاة قد أبلغت «الخلد الأوروبى» بأنها ستأتى لزيارته . وفجأة ، وبشكل غير متوقع أبدا، أخذت طبول الحرب تدق فى الغابة، وصل قرعها اللاهث، والمنذر بالخطر، إلى الجزيرة الصحراوية، فى نفس اللحظة التى تهيأت السلحفاة فيها لرؤية صديقها.

ففكرت السلحفاة قائلة : «هذا الصوت لايعنى لى شيئا ذا قيمة»، وظلت تنتظر توقف الطبول لتعبر المياه. لكن الطبول كان يتزايد قرعها ويشتد صوتها أكثر فأكثر .

أما «الخلد الأوروبى» فقد اعتقد أن العالم كله ذهب لساحة الحرب. فأخذ يتساءل «ماذا يحدث؟» وهو متربص فى أعماق منزله،

ثم – بين الحين والحين– يذهب لإلقاء نظرة خائفة عبر الباب الموارب، أملا في رؤية صديقته السلحفاة قادمة. فبصحبتها سيشعر بمزيد من الاطمئنان .

لكن السلحفاة لم تأت.

وعندما رأى «الخلد الأوروبى» أن موعد السلحفاة قد فات، لم يعد بقادر على التماسك من نفاد صبره وقلقه. فقد اعتقد أن وجوده فى بيته يعرضه للخطر، خاصة وأن أعداءه يعرفون مكانه.

ففكر قائلا : «سأذهب لأنتظر حلول الليل فوق الصخرة هناك، بدلا من البقاء هنا كما لو كنت فى فخ». وذلك ما فعله . وكان الشفق قد مرت عليه فترة طويلة عندما أخذ طريق العودة. وأثناء عودته لمنزله، قابل الثعلب.

وبدلا من أن يلقى عليه بتحية المساء، قال له الثعلب : «يالها من مفاجأة! ونحن الذين كنا نعتقد أنك قد متّ حرقا». كان المكر على هيئته ، وعيناه تتلألأن خبثا.

فسأله «الخلد الأوروبى» وهو حائر : «لماذا ، بحق الإله، كنت سأموت محترقا؟».

– «كيف ؟ ألا تعرف؟ جاءت السلحفاة إليك لتستوضح – منك– حسب قولها – ما قيل لها حول غدرك بها، ولأنك لم تكن هناك، وفى لحظة غضب، أشعلت النار فى منزلك».

وعندما سمع «الخلد» هذا، أوشك أن يغمى عليه، لقد انقلب كل شيء ضده . حتى أفضل صديق له يعامله هكذا! المسكين . فشكر الثعلب مرة ثانية لأنه أبلغه النبأ وغادره، دون أن يرى ابتسامته الشريرة التي ارتسمت على شفتيه .

وفى هذه الليلة ، لم يستطع «الخلد الأوروبى» النوم أمام حطام بيته. كان يجتر انتقاما مساويا لما فعلته صديقته السابقة.

وعند فجر اليوم التالى، عبر البحيرة عوما. وعندما بلغ «الجزيرة الصحراوية»، نادى على السلحفاة بصوت ثاقب، يختلط فيه الحزن بالغضب :

« تعالى، اظهرى لى أيتها الخائنة! تعالى لنتصارع حتى الموت».

ولم يجبه سوى الصمت ! كانت خيمة السلحفاة ، خاوية، إذ أنها – صدفة – ذهبت للصيد – هذا الصباح- فى وقت أبكر من المعتاد.

« هذا لايهم، سأرد لك الصاع الذى منحته لى »، وقرن القول بالفعل، فأشعل النيران فى أركان البيت الأربعة.

وأنذرت رائحة النيران السلحفاة، فتعجلت العودة لمنزلها، وكان «الخلد الأوروبى» هناك يتأمل صنيعه. فقالت له السلحفاة:«أهكذا تشكرنى على مساعدتى وصداقتى؟» وبدون انتظار أي إيضاح، هوت على «الخلد» بكل قواها ليصبح تحت رحمتها.

كان الاثنان يشتعلان غضبا، فشرعا يتعاركان فترة طويلة ، وبعنف، وهما يبعثران الرمال حولهما، وفى النهاية، غضبت الرمال هى الأخرى، فدفنتهما سويا، وماتا هما الاثنان .

وعندما علم الزعماء الأربعة بهذا النبأ، سخروا منهما. فقد كانوا هم الذين أحرقوا منزل «الخلد الأوروبى» ولم يتبق للثعلب سوى إلقاء اللوم على السلحفاة. ولم يتردد «الخلد » بدوره – فى تصديق ما قاله الثعلب.

فعندما يتشاجر الأصدقاء ، يسعد الأعداء .

صداقة القضاعة

أخذ الثلج يتساقط بلا كلل منذ أيام وليال، فى شهر «النوم الأكبر»، وعاصفة مخيفة تركض عبر البلاد، وقد امتطت الهواء حصانا. وأخذت تمحو كل آثار الحيوانات التى كانت تهرب منها وتأوى فى جحورها ومخابئها.

وما لبث الجوع، ذلك الضيف ثقيل الظل، أن أوى إلى بيوت ذوى البشرة الحمراء، فأجبر الصيادين على مواجهة تقلبات الجو. لكنهم كانوا يعودون صفرى اليدين، وقد أصابتهم خيبة الأمل نتيجة بحثهم - بلا جدوى - عن آثار صيد بين الثلوج.

واختلط عواء الذئاب الجائعة بصخب الريح، مجمدا دم الرجال فى عروقهم، وما أخافهم أكثر من ذلك، هو بكاء أطفالهم الذين يتضورون جوعا.

عندئذ، أتى ساحر القبيلة، الشامان «دادا وات» القوى بحقيبته السحرية، وقال للصيادين المجتمعين :

« إنها تحتوى على سحر قوى، يكفيكم أن تلمسوها، وستأتى لكم بالحيوان الذى تتمنون قتله، ورغم هذا، احذروا نزع قلب الفريسة - عندما تقطعونها - لتأكلونه. عندئذ، ستفقد الحقيبة السحرية

تأثيرها».

وكان زعيم القبيلة أول من لمس الحقيبة السحرية، وهو يأمل أن يقتل دبا، وتبعه كل الصيادين وقلدوه، وكان آخرهم «سكاجيدي» - أصغرهم سنا - والذى تمنى الانتصار على ضبع «الأوس».

وجاء الليل الثلجى، وبدا وكأن العاصفة تريد اقتلاع جدران البيوت. صنعت السحب الكثيفة - المحملة بالثلج - زوابع واطئة فى السماء ، مثل أشباح بيضاء، والهواء يصاحبهم فى رقصتهم بترنيمات وحشية يرددها فوق قمم الأشجار .

ونام الكل ، عدا «سكاجيدى» ولأنه لم يستطع تحمل عذاب الجوع مدة أطول من ذلك، قام من سريره، رغم أن الوقت لايزال ليلا. فخرج وسار فى طريقه صوب الغابة، معتمدا على ذاكرته دليلا لطريقه.

كان يأمل أن يمكنه أول أضواء الشفق من اكتشاف آثار ضبع «الأوس»، قبل أن يمسحها الهواء والثلج .

وكم كانت مفاجأة عندما ميز أحد ضباع «الأوس» فى قلب الظلمة! وجد الحيوان المتوحش يمسك بين مخالبه بقضاعتين صغيرتين لاتزالان على قيد الحياة. ورفعتا رأسهما عندما سمعتا وقع خطوات «سكاجيدى» ، الذى قرأ فى عيونهما تحت ضوء النجوم الشاحب، رجاء حارا، فاهتز قلبه تأثرا به.

فقتل الضبع بسهم واحد. كان سعيدا لإنقاذه القضاعتين الصغيرتين، اللتين هربتا دون أن تنطقا حرفا، فأوشك على نسيان جوعه، ولكن ، وما إن اختفت القضاعتان حتى ذكرته معدته، وبشكل

أقوى، بجوعه الشديد، وبلا تفكير، شق بطن فريسته بضربة سكين، وانتزع القلب، وأكله وهو لايزال دافئا؛ كما هي العادة. لقد نسى الخطر الخاص الذى أصدره الساحرالأعظم. وعندما تذكره - متأخرا - قال فى نفسه: أن لا أحد - رغم كل شيء - سيعرف الحكاية. مادام لم يره أحد. فعاد لبيته، وتمدد على سريره، ونام هادىء البال.

وفى هذا الوقت، كان رجال القرية الآخرون قد ذهبوا - هم أيضا - للصيد. وللأسف ، كان سحر الحقيبة المسحورة قد زال. إذ أن الدب، الذى أوشك أن يصبح فى متناول يد الزعيم، هرب من سهمه. ولم يكن حظ الصيادين الآخرين بأفضل من حظ الزعيم .

فقال الصيادون :«هناك شيء ما يجعل الأمور تتم بشكل سيء» عندئذ، عادوا للقرية ليستشيروا «دادا وات» وعلى الفور، خمن الزعيم سبب عودتهم، يبدو أن شخصا ما قد خرق أمره، ولم يتطلب البحث عن المذنب الذهاب بعيدا :

كان الضبع «آوس» ممددا أمام خيمة «سكاجيدى» ولم يقطَع بعد. وعندما قلب «الشامان» الحيوان، وجد القلب منتزعا من مكانه: لقد أكله «سكاجيدى» فقال «داداوات» ساخطا أمام كل الصيادين :

«يجب أن يعاقَب . إنه هو الذى أبطل سحر الحقيبة المسحورة. هذه الحقيبة التى يحسدنى عليها كل سحرة البلد الهندى؛ والتي تستمد قوتها من الإله «مانيتو» شخصيا» وبدون أن ينتظر أكثر من هذا، نطق «داداوات» بالعقاب التالى، والكل ينصت إليه فى صمت:

« نحن – جميعا – سنغادر هذه المنطقة، لنقيم فى مكان نجد فيه ما نصيده بوفرة، وأنت – يا سكاجيدى» – سنتركك هنا – وحيدا – إذ هدمت قانون الصداقة».

كان حكما قاسيا. لكن «سكاجيدى» وافق عليه دون أن ينبس بكلمة مثل رجل، ولم يقل أي صياد أية كلمة دفاعا عنه، ولا ألقت عليه امرأة بنظرة شفقة، عدا عينى الصغيرة «ويا» اللتان امتلأتا بالدموع، فتركتهما تسيل على خديها، فى الوقت الذى أخذت تنظر إليه، دون أن تقول أى شيء.

وذهب الجميع . وظل «سكاجيدى» وحيدا فى القرية. طويلا داخل خيمته، شارد الذهن، يرتعد بردا وحزنا، وحتى ناره المتأججة لم تتمكن من تدفئته. وفجأة ، وسط العاصفة ، اعتقد أنه سمع وقع خطوات، نعم، لاشك فى هذا. إن شخصا ما يتقدم، فقام ليرى من بالخارج، فلم يلمح أحدا. ولكنه ، وعبر عواء العاصفة الثلجية، استطاع أن يميز صوتا رقيقا :

«سكاجيدى» يا «سكاجيدي» على بعد خطوات من خيمتك توجد مغارة يختبيء فيها دب! اذهب ، واقتله، وستُنقذ» .

ثم سكت الصوت عن الكلام. لكن «سكاجيدي» سمع بما فيه الكفاية. وفى الصباح، كانت الريح قد هدأت قليلا، فخرج على الفور من خيمته، ولم يجد أية صعوبة فى اكتشاف المغارة التى كان الدب ينام فيها نوما عميقا. وبضربة واحدة – فقط– من سهمه بعث «سكاجيدى» بالدب إلى بلد «النوم الأبدى». ويمكن لفريسته ،عندما

يقطعها ، أن تضمن له عدة وجبات من اللحم المدخن، أما الفراء، فسيحميه من البرد، فعمل في تقطيعها طوال اليوم. وعندما حل الليل، لم يستطع النوم رغم تعبه الشديد. كان يفكر ويفكر في منقذه المجهول. ترى من يكون ؟

وسرعان ما حل منتصف الليل، و«سكاجيدي» يتأرجح بين اليقظة والنوم، عندما سمع – مرة أخرى – صوتا أصبح مألوفا لديه :

« سكاجيدى» يا «سكاجيدي» ، ستأتى «ويا» غدا. قل لها أن تطلب من الهنود العودة للقرية. ولتطلب من الساحر «داداوات» ألا يغضب منك، إذ أنك تعرف كيف تستعيد سلطة حقيبته المسحورة».

وفى قفزة واحدة، أصبح «سكاجيدي» بالخارج. لا أحد. الليل المعتم، هذا فقط كل شىء. وفى الأعالى هناك، كانت النجوم تتلألأ ساكنة في الليل الثلجى.

والحق الحق أن «ويا» وصلت فى اليوم التالى. كانت تخشى ألا تجد «سكاجيدى» حيا. وعندما رأته انفجرت بالفرح. ولم تعرف لفرحتها حدودا عندما قال لها حبيبها أنه يستطيع أن يستعيد قدرة الحقيبة المسحورة .

ورغم هذا ، لم يتحدث «سكاجيدى» عن مغامرته الغريبة. وما أن غادرته حتى استأنف مهمته التى بدأها ليلة أمس. وفى المساء، تمدد بالقرب من النار، نافد الصبر ، ينتظر مجىء الليل ؛ آملا سماع الصوت. وكان أن سمعه : «سكاجيدى» ، يا «سكاجيدي» عندما يعود «داداوات» بحقيبته، خذها بيديك الاثنتين، واسأل كل صياد عن أية

غنيمة يأمل فيها. وبعد أن يعبر عن رغبته، افتح الحقيبة. سترى الدب القوى يخرج منها، والأيل ذا العقب السريع، والأرنب الأبيض البرى. باختصار، سيخرج منها أي حيوان يأمل أصدقاؤك في صيده. وفيما يتعلق بك، تمسك بطلب أقل شيء . وعندما يحصل الجميع على ما يريدونه، ستأخذ ما سيتبقى في قعر الحقيبة، وستعيده لى في بيتى، لن أقول لك أين هو. واذا اتبعت إرشاداتى، ستجده».

ومنذ صباح اليوم التالى، عاد الهنود إلى القرية، فقام «الشامان» ، الذى نقلت له «ويا» رسالة «سكاجيدى»، وسلم الشاب الحقيبة السحرية وهو يقول له :

« حسنا، أرنا ما الذى يمكنك عمله؟» وكان – خلال كلامه هذا – يمسك بالحقيبة ونظرته تمتلىء بالتساؤل .

التقط «سكاجيدى» الحقيبة –بقوة – بيديه الاثنتين، ووجه كلامه إلى الصيادين، قائلا ، وهو ينظر – أولا – إلى زعيم القبيلة : «أية فريسة تريد أسرها؟»

– «دب» . وما كاد الزعيم يلقى بالرد، حتى خرج دب شبه نائم من الحقيبة.

– و«أنت» قال «سكاجيدى» لأكبر أبناء الزعيم.

– «أيل» وما أن نطق الصياد الشاب بكلمته، حتى قفز الأيل بخفة من الحقيبة، وأتى ليرقد تحت قدميه .

كانت حكاية أسطورية حقا. لقد كان الهنود، الواحد تلو الآخر، يعبرون عن رغبتهم، وكان على «سكاجيدى» أن يعمل كثيرا، أخذ

يفتح ويغلق الحقيبة مرات كثيرة، وعندما حصل كل واحد ما يريده، أدخل «سكاجيدي» يده، فلمست أصابعه شيئا رقيقا ملمسه كالقطيفة. وعندما سحب هذا الشيء، رأى أنها فخذة قضاعة، فوضعها - بسرعة - في جيبه، ثم ارتدى حذاءه الموكاسان الجديد، ورحل بحثا عن صانع الجميل المجهول .

لم يكن يعرف أى اتجاه يوجه قدميه، لكن الموكاسانْ أرشده - بلا علم منه - إلى الاتجاه السليم.

وجد نفسه - فى مخرج الغابة - أمام كوخ صغير . لم يسبق له - أبدا - رؤية هذا المكان ، فافترض أنه منزل صديقه المجهول، فدخل فيه .

لم يجد أحدا . لاشيء سوى كومة من الأسماك فوق الأرض. ثم شم رائحة قضاعة، ولأنه لم يشعر بالاطمئنان ، وضع «سكاجيدي» الفخذ فى وسط الكوخ، وبدأ يفكر فى الهرب بسرعة. ولكن ما أن بدأ الهرب حتى توقف عندما سمع الصوت الذى يعرفه جيدا:

«سكاجيدي» يا «سكاجيدي» .

فالتفت خلفه، وها هى بحيرة تظهر بدلا من الكوخ. واستمر الصوت يحادثه: «شكرا لك يا «سكاجيدى» لأنك حررت أطفالى من مخالب «الاوس». ولهذا لن تفقد الحقيبة السحرية قوتها أبدا . إن الفخذ الذى أتيت لى به هو فخذى أنا!» .

« أنا، أنا، أنا!» ردد الصدى وراءها.

«ولكن ، تذكر دائما ما يلى: لايجب على أي صياد من قبيلتك أن

ينصب فخه لصيد القضاعة، وإلا، ستفقدون صداقتى معكم».

ثم سمع «سكاجيدى» صوتا: «بلوفا» ولا شىء بعد ذلك. ثم أخذت الدوائر المتوحدة المركز تتسع فوق سطح البحيرة .

ظل منتظرا بعض الوقت على أمل أن يرى صديقته، لكن المياه استعادت هدوءها وأصبحت كالمرآة. ثم رأى «ويا» - القادمة من الغابة- تتقدم للقائه.

فصرخ ، وهو يندفع للقائها - «ويا، ويا!» وحكى لها كل الحكاية. وبعد ذلك، أخذ يرددها لكل من يريد أن يسمعها من أهل القرية.

ومنذ هذا اليوم، لم يعرف البؤس أحدا من أفراد هذه القبيلة، فقد عاش الرجال أصحاب البشرة النحاسية فى صداقة مع القضاعة، وكانت حقيبة الخيرات لاتفرغ أبدا.

الأيائل والذئاب

فى يوم من الأيام، اجتمعت ذئاب المنطقة على حافة نهر «ناس» ليتبادلوا الأخبار، ويقضوا وقتا طيبا، وحضر الاجتماع صغار الذئاب، وبعض الشباب، وبعض عجائز الذئاب، مثل «الذئب الرمادى».

فأنشدوا - أولا - المقطع الطويل من أنشودة الذئاب التى لاتنتهى، فأحدث غناؤهم ضجيجا عاليا، حتى أن حيوانات الغابة أخذت ذيولها بين أسنانها، وفرت بأقصى سرعة، لتبعد أسماعها عن متناول الضجيج. واختبأت بعض الأسماك فى قنوات المياه، واختبأ آخرون تحت إحدى الصخور. أما سمك السلمون، فقد أخذ يندفع يمينا ويسارا ليبتعد عن مصدر هذا الصوت الجهنمى. وأخيرا، قفز فوق سيل المياه السريع ومساقطه، مندفعا عكس التيار، صاعدا فى الاتجاه المعاكس للنهر، ويقال إن سمك السلمون يعلم - فى هذه المناسبة كيف يواجه كل المصاعب ليكر عائدا إلى منابع الأنهار.

بل إن الشمس نفسها انزعجت من صراخ الذئاب فذهبت فى هذا اليوم، لتنأى مبكرا على غير عادتها، وقد خبأت رأسها بين السحب حتى لا تسمع شيئا. غير أن صوت الكونشيرتو جذب انتباه القمر،

فارتقع فوق أشجار التنوب ليرى المنشدين بشكل أفضل. فسعدت الذئاب بوجود مستمع لها، وكررت المقطع، بحماس .

وسرعان ما شعرت الذئاب بالضجر، فأخذت تبحث عن شيء أخر تتسلى به. عندئذ، وكما في حفل «البوتلاش» المحترم الذى يقام تكريما للطوطم، أخذوا يحكون الحكايات، ويترنمون بمآثرهم العظيمة التى هوت إلى طى النسيان؛ بينما قدامى المحاربين يكشفون لصغار الذئاب عن التنوب التى تشهد على معاركهم القديمة. وهكذا، ظلوا يثرثرون عن كل شيء وعن لاشيء. كانوا يتحلقون فى دائرة، وهم ينتظرون انقشاع الضباب فوق النهر، إيذانا بمقدم يوم جديد.

وكان الأيائل قد اجتمعت على الضفة الأخرى من النهر؛ وقد حمل الضباب إلى مسامعهم قصص الذئاب. فلم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك، إذ أن الحيوانات لاتصدق سوى حكايات عشيرتها هى.

فصاحت الذئاب الواقفة على الناحية الأخرى من النهر : «من ذاك الذى يجرؤ على السخرية من الذئاب الشجعان؟».

غير أن هذا التحذير لم يمنع الأيائل من مواصلة الضحك بأقصى طاقتها، وبدا وكأنهم لن يكفوا عن الضحك أبدا. لم يخافوا الذئاب، فضباب الصباح يخفيهم. ولكن، ها هى الشمس تقفز قفزة واحدة فى السماء، وتدعك عينيها لتستيقظ، وتبدد الضباب لترى ما يحدث على الأرض.

فصرخت الذئاب من الضفة الأخرى للنهر: «هه أيتها الأيائل، إنكم لاتعرفون حتى كيف تضحكون كما ينبغى أن يكون الضحك:

أنصتوا». ثم قلبت الذئاب فكها، وكانت أسنانها الشريرة تتلألأ تحت أشعة الشمس. وأخذت الذئاب تضحك «ها! ها! ها! ها!» وتضحك، وتضحك، حتى أيقظت كل صدى الغابة .

فقالت الأيائل:«حان دورنا الآن فى الضحك: «.. مم. ..مم..مم..» وكانوا يحاولون الضحك وهم يغلقون فكهم، مما جعل الذئاب تضحك منهم ضحكة مجنونة حقيقية.

فقالت لهم الذئاب وهى تضحك ملء أشداقها: «ها، ها، ها! يجب أن تفتحوا أفواهكم، إذا أردتم أن تضحكوا مثلما يجب الضحك».

فهمست الأيائل : «مم .. مم.مم!» مرة أخرى ، كاشفة عن لثة شبه خالية من الأسنان. ففكرت الذئاب قائلة. ، «هذا هوالسبب الذى يجعلهم لايضحكون بشكل ملائم»، وقد بدأت أشداقها تسيل باللعاب لرؤية هذه الفريسة السهلة، فغطست فى النهر فى لمح البصر، وأخذت تعوم فى اتجاه الضفة الأخرى. أما الأيائل، فلم تنتظر أكثرمن ذلك، وهربت بأقصى سرعتها. لكن الذئاب لم تفقد آثارها، ولازالت - حتى الآن- تواصل مطاردتها للأيائل .

ومنذ ذلك اليوم، والذئب يعرف أن الأيل لايملك وسيلة للدفاع عن نفسه ضد اشتداد جوعه، وأنه يشكل- بالنسبة للذئب - فريسة ممتازة .

القط المتوحش والأرنب

كان القط المتوحش يتضور جوعا. ولأن القدر لم يحبه، لم يتمكن حتى من الإمساك بفأر واحد. فاقترح على نفسه النزول فى اتجاه القرية الهندية، تحت موطىء «صخرة الريح» ، ليرى لو هناك أي شيء يمكن أكله. وأثناء سيره، تعثر فى أرنب نائم.

لم يصدق عينيه. هنا ، أمامه، أرنب ينام نومة القيلولة تحت حر الظهيرة وشواربه تختلج مع تنفسه المصاحب لغطيطه الخفيف. كان صيدا سهلا بحق.

«هيا» ، ألا تستيقظ»؟ ، صرخ القط المتوحش وهو يضع فخذه فى مكان كلية الأرنب، فقام المخلوق المسكين مرعوبا، متمنيا أن يكون فى ألف مكان آخر ، بعيدا عن هذا المكان .

قال له القط المتوحش: «يمكنك أن تشكرنى لأننى أيقظتك؛ النوم ضار لصحتك بهذه الطريقة والشمس فى أوجها. وعلى أية حال، أنا آسف ، ولكننى مجبر على أكلك، فأنا أموت جوعا، وبالمعنى الحرفى للكلمة».

فأخذ الأرنب يرتعد خوفا، وسعى لملاطفة القط، :«إذا ما تركتنى وشأنى، ياسيدى، سأرشدك إلى فريسة أفضل منى بكثير، فما هو

رأيكم؟».

فأجابه القط المتوحش : «لنرى هذا» وهو يضغط – أكثر قليلا- على عمود الأرنب الفقرى، تحسبا له إذا ما كان فى نيته الهرب.

وفى هذه اللحظة – بالضبط- تردد صوت خافت، لايبعد كثيرا عن مكانهما.

«أتسمعون حضرتكم؟ إنها الديوك الرومية! فوقع أقدامها يمر بالقرب من هنا. وأنتم وحدكم لن تكتشفونها، سأقودكم إلى مكانها».

فراقت الفكرة للقط المتوحش. لكن هذا لم يمنعه من أن يقول للأرنب: «لاتظن أننى سأبقى عليك لهذا السبب!» ولكن الأرنب عرف أن الخطر قد زال.

فقال له : «بسرعة ! لايجب الانتظار ! فلنطرق الحديد وهو ساخن».

فقال له القط المتوحش بتشكك: «حسنا ! ولكن ، على أية حال، ستكون الديكة قد رحلت حين نصل إليها».

« لا. لا ! ما عليك إلا أن تنام على طريقها وتدعى الموت. وهكذا، سيكون لك متسع من الوقت، وستتمكن من اختيار ما ترغب فيه منها. ولكن لاتحدث أية ضجة».

واندسا كظلين، بين الأعشاب العالية. وسرعان ما قابلا موقع الديوك الرومية.

فأمره الأرنب قائلا :« ادّع الموت، إنى أسمعهم قادمين»، ففعل القط المتوحش كما أمره الأرنب، وتمدد على قارعة طريق الديوك

الرومـية؛ ثم أغلق عـينيه، وتقـدم الأرنب للقـاء الديوك. كان الوقت قد حان: فقد اصطدم بهم فى أول منعطف.

فحياهم قائلا : «جوا». لقد قتلت – لتوى – قطا متوحشا» ولم ترغب الديكة فى تصديقه. وقال زعيمها : «من ير يصدق! تعال وأرنا إياه».

«إنه على بعـد خطوات من هنا، ولكن، إذا كنتم خـائفـين، لايـهم، فالأمر لايستحق الذهاب أبعد من ذلك».

ولاشك أن الديك الرومـى لن يسمح للأرنب بـالاعتقاد بأنّه خائف! لذا، واصلت الديوك مـسيـرتهـا فى خـيلاء ، واقـتـربت جدا مـن القط المتوحش الذى يدّعى الموت. إنه ممثل حقيقى.

قال الأرنب فـخورا بنفسه :« لقد بعثت به إلى «أراضـى الصـيد الأبدية» بضربة واحدة من فأسى «التوماهاوك».

أخذت الديوك تنق إعجابا، ولم تعد عيونهم واسعة بشكل كاف ليتأملوا القط المتوحش. ففيما سبق، لم تسنح لهم فرصة مشاهدة قط متوحش عن مقربة إلى هذا الحد .

وأخذ الأرنب يتراجع – خطوة خطوة – ويصمت . ثم وقف – على بعد مسافة ملائمة – ليرى ما سيحدث. ولم ينتظر طويلا . لقد قفز القط المتوحش فجأة – وفى لحظة اطمئنان – وكل مخالبه للخارج. ثم التقط أكثر الديكة بدانة، وحمل فريسته وقفز نحو قمة أول شجرة صادفها.

فتفرقت الديكة المرعوبة فى كافة الاتجاهات ، وهى تنق بغضب

ضد القط المكار والأرنب الخائن .

«سوف نثأر لأنفسنا»، صرخ زعيم الديكة ووجهه أحمر من الغضب؛ عندما اجتمعت الديكة في مرعاها. فاختار الزعيم بعض المحاربين، من بين أكثر المحاربين بأسا، وقادهم في مطاردة الأرنب.

كان الأرنب قد نسى الحادث، وها هو يرعى العشب اللذيذ بسلام، وعندما رأى فرقة الديكة وهى تقترب، وقد لطخت وجهها بشاعة إعلانا للحرب، أخذ ذيله بين أسنانه وهرب من مطارديه، كان يجرى عبر الأدغال، لكن الديكة حاصرته واقتربت منه؛ فقفز عبر النهر. لكن الديكة لم تتركه، أبدا. كانت كماشة الديك الرومى قوية. ورغم الألم، تشبث الأرنب بجدران الحفرة؛ بينما الديك يشده ويشده أكثر فأكثر. وهكذا فقد الأرنب ذيله الطويل، وظل هناك، فى أعماق مخبأه، يتأمل- وهو مغلوب تماما- خدعته السخيفة التى تبقت له. فغرست الديكة ذيل الأرنب على طرف عصا طويلة، كأنه فروة رأس، وحملته رمزا للانتصار .

ورغم هذا لم يشغل الأرنب باله كثيرا بما فقده، وسرعان ما تبين له أن الذيل القصير يلائم الجرى، ولهذا احتفظ بذيله قصيرا حتى الآن. لكنه لم يستطع أن يغفر للقط المتوحش صنيعه، فهو السبب الأول فى المضايقات التى حدثت له. فقرر أن يثأر لنفسه .

وسرعان ما واتته الفرصة. فمنذ صباح اليوم التالى، كان يهيم فى الطريق عندما سمع شخيرا مرتفعا لشخص نائم. فتتبع مصدر

الصوت، حتى وجد نفسه أمام فرس السهول الأمريكى البرى وهو ينام نومة القيلولة. فقال الأرنب لنفسه «إنه ينام نوما عميقا، ولن يستيقظ بسرعة، هذا أكيد».

وإثر تأكده هذا، أسرع نحو الشجرة التى اعتاد القط المتوحش أن يتعلق فوقها.

صرخ الأرنب : «هيه! أيها القط، هل أنت هنا؟».

- «ها أنا ذا. ماذا تريد منى».

فواصل الأرنب كلامه خافضا صوته :«أنا أعرف مكان فريسة كبيرة جدا. انزل وسأرشدك إليها...»

فقفز القط المتوحش برشاقة على الأرض كأنه سنورى. وقال للأرنب وهو يرتعد اشتهاء»: «قل لى بسرعة أين هى؟».

« ثمة فرس سهول برى ميت ممدد على قارعة الطريق؛ ولم يلاحظه أحد بعد، وأنا نباتى، ولكننى فكرت فيك على الفور».

فصرخ القط المتوحش، : «هيا بنا إلى هناك ، ولاتضع الوقت». وأخذ يتخيل منظر الوجبات الرائعة التى تنتظره وهو يسرع خلف الأرنب.

كان فرس السهول البرى لايزال نائما . ولحسن الحظ، لم يكن يغط في نومه.

فقال الأرنب : «لانستطيع أن نتركه هنا»، أمام بصر الجميع. وها هو ما أقترحه عليك : سأربط ذيلك بذيله، وأنت، لأنك قوى، ستشده بجسمك وتجرجره حتى الدغل القريب». وقرن القول بالفعل. وصنع

الأرنب عقدة من الذيلين، عقدة من تلك العقد التى لاتنفك، والتى تعرف الأرانب فقط كيف تصنعها.

« ها قد انتهيت ، هيا شد».

فأجهد القط المتوحش عضلاته، وشد قدر استطاعته.

فاستيقظ فرس السهول البرى على الفور. وأراد القيام، فصرخ القط المتوحش من الرعب، مما أدى إلى رعب فرس السهول البرى بدوره ، والذى اعتقد أنه يرى الشيطان مجسدا، فهرب على الطريق مهرولا، وقوائمه تضرب الهواء.

كان القط المتوحش يتقيأ، ويئن ، ويصرخ فيضاعف من رعب فرس السهول البرى، الذى أخذ يجرى وكأنه يهرب من الشيطان المربوط بذيله.

وسرعان ما اختفيا فى الأفق، الواحد منهما يشد الآخر.

فضحك الأرنب كثيرا. وقال للقط المتوحش؛ الذى لم يعد بإمكانه أن يسمعه على أية حال: «بضعة ضربات فوق رأسك الألمعى ستبقى لك درسا مفيدا». وسار فى الطريق ، يعدو ويخب خبا، نحو مغامرات جديدة .

كيف حصل الثعبان على أسنانه السامة

حدث ذلك بعد فترة قصيرة من خلق الإله ذى «القوة العظمى» لكل الحيوانات، وبعد أن منحهم كل ما هو ضرورى لهم فى الحياة. فأعطى النسر جناحيه القويين، ومنح الأيل قوائمه خفيفة الحركة، والدب قوته الخارقة، عدا الثعبان «كازور»، الذى تركه دون وسيلة للدفاع عن نفسه. كان كل ما يستطيع عمله هو التقاط الحشرات. لكن هؤلاء - أيضا - كانوا يسخرون منه ويزعجونه، إذ أنه ليس لديه حتى مجرد سنة صغيرة.

بل إن الأرنب - الذى لايقل بطولة عن أي بطل - أخذ يزعج الثعبان المسكين هو الآخر، فيدفنه فى الرمال أثناء نومه، أو يلقى به فى النهر، باختصار، كان استمرار «كازور» على قيد الحياة - مقاوما كل هذه العداوات - يكاد يكون شبه معجزة. ولأنه صبور وذو طبيعة حكيمة، فقد عرف أن «سيباس» الأعظم - وحده - هو الذى يستطيع مساعدته .

لذا، زحف -ذات ليلة كانت فيها كل الحيوانات تغط فى النوم - وسار نحو منزل «الإله الخالق». سافر طوال الليل، وعبر العديد من الجبال التى كانت تسد عليه الطريق، وفى الصباح ، وصل أمام الكهف الكبير.

كانت نار مقدسة تشتعل وسط الكهف، ودخانه ينشر رائحة مسكرة. كان الرب «سيباس» بنفسه، موجودا هناك، جالسا بالقرب من النار. فنظر للثعبان نظرة ثاقبة وسأله : «لماذا أتيت لرؤيتي؟:» فأوضح له الثعبان الأمر، قائلا : «أنا تعيس جدا، فأنا عاجز عن الدفاع عن نفسي عندما يهاجمني الآخرون، أو يسخرون مني، ولا أملك لا القوة لمحاربتهم، ولا السرعة لأهرب منهم. ولست صغيرا إلى حد يمكنني من الاختفاء عن عيونهم، أنتم – وحدكم- من تستطيعون مساعدتي. وإلا ، فلا شك أنني سأموت».

فقال له «الإله الخالق» : «نعم» سأساعدك. اقترب».

فزحف «كازور» حتى وصل بالقرب من النار. فقام «سيباس» ووقف على قدميه وأحاط نفسه بالدخان ، ونطق ببعض العبارات السحرية، وبعد ذلك، وأثناء تلاوته لتعاويذه السحرية، أخذ بعض الجمرات وأحاطها بقليل من أشعة الشمس ، كان قد كسرها لهذا الغرض.

وأمر الثعبان : «افتح فمك».

وعلى الفور، شعر كازور بأسنان حادة مثل الإبر تنمو في فمه.

وقال له الرب : «ها أنت الآن مجهز بسلاح رهيب حقا. إنك تملك أسنانا سامة، حتى أنك إذا عضضت أحدا فسيموت. وبسلاح كهذا، ستدافع عن نفسك بسهولة، وسترى ذلك» . وبعد أن أنهى كلامه، صحبه الرب «سيباس» بأدب حتى عتبة الباب، ثم عاد لمكانه بالقرب من النار المقدسة.

وزحف الثعبان ببطء عائدا إلى بيته. لم يعد يحاول الاختباء، لأنه لم يعد يخشى شيئا، وفى طريق عودته، قابل الأرنب .

فصرخ الأرنب الذى رآه عن بعد : «انظروا من يتجول فى هذه الناحية؟ الصديق العجوز «كازور»! إننى أسألك – دون أي فضول من جانبى – إلى أين تذهب هكذا».

فأجابه الثعبان – محاولا تجنبه – «إننى عائد إلى بيتى» .

– «ألا تريد أن تلعب معى»؟ وقام الأرنب ، الذى كان قد سد الطريق على الثعبان ، وقفز على ظهره وغرس أسنانه المدببة فى ظهر الثعبان.

فحذره الثعبان : «اتركنى فى حالى، وإلا فستندم على ذلك».

فأخذ الأرنب الساخر فى الضحك : «هأ هأ ! إننى – حقا – خائف منك».

وبدون أن يحذره تحذيرا آخر، عض الثعبان – عندئذ– جلاده، الذى سقط ميتا، جثة هامدة، قبل أن يعرف ما الذي حدث له. وواصل «كازور» طريقه بكل هدوء.

نشر موت الأرنب الذعر فى عالم الحيوانات . فأخذ كل واحد منهم يظهر احترامه للثعبان «كازور» وهم يتساءلون عمن منحه هذه القوة.

فقالت الضفدعة: «أنا أعرف من منحه هذه القوة! إنه «سيباس» بنفسه! »

فهز الخبر الجميع. ثم، وبعد صمت متوتر، صرخ واحد منهم –من؟ ؟ من الصعب معرفته – صرخ قائلا :«هيا نقتل ««سيباس».

فصرخ الجميع بدورهم : «اتفقنا ! لنذهب إليه! لنذهب ونقتل «سيباس»! وساروا في اتجاه كهف «سيباس»

ولم يضع «كازور» الوقت، كان يعرف طريق «سيباس» أفضل من الآخرين، فوصل قبلهم إلى الكهف، وحذر الإله «سيباس»

فهتف «سيباس» :«علينا أن نهرب على الفور. ثمة ممر تحت الأرض، وهناك سنكون في مأمن».

وها هو صوت وصول الحيوانات يبلغ أسماعهم، وهم يقودون قطار الموت إلى مدخل الكهف.

رفع «سيباس» يده، ونطق بعبارات سحرية، فانفتحت هوة لا قرار لها أمامهما. وما أن دخلا فيها حتى انغلقت الأرض فوقهما، دون أن تترك أي أثر لهما.

وعند اقتحام المهاجمين للكهف، تسمروا دهشة عندما وجدوه خاليا. وعبثا أخذوا ينقبون في كل مكان.كان «الرب الخالق» قد اختفى. فعادوا لبيوتهم خائبين.

هذا هو ماجرى وأجبر «سيباس» على الانسحاب إلى العالم المظلم في جوف الأرض. بعدئذ، بعث بالثعبان «كازور» إلى الأرض. أما هو، فلم يعد إليها أبدا، لقد ظل في أعماق كرتنا الأرضية .

وعندما يتثاءب «سيباس» تقذف البراكين بالدخان، وتنفث فوهتها الرماد، وتخرج الحمم الحارقة، وتنزل في الوديان. وعندما يتحرك «سيباس» ، تهتز الأرض، فتتفجر الصخور، وتنزلق الجبال، وتخرج الأنهار من سريرها وتغمر كل شيء، ويرتعش البشر والحيوانات هولا ورعبا .

الظربان والروح الشريرة

يحكى أنه كان يوجد «مانيتو» شرير يدعى «الظفر الطويل» عاش في أعماق البلد الهندي، كان روحا شريرة وخطرة حقا. وكان قادرا ، بمخالبه على قتل أى مخلوق أمامه. كانت له قوة الدب، ويشبهه جسديا كأنه أخ له. لكن مخالبه كانت طويلة بشكل غريب جدا ، ولونها أحمر .

أما الشيء الوحيد، الذى لم يستطع «الظفر الطويل» أن يفعله؛ فهو العوم . لهذا فكل الذين يهاجمهم -سواء كانوا من الهنود الحمر أو من الحيوانات. يلجئون إلى الماء هربا منه. وبهذه الطريقة ، استطاع العديد منهم الهرب .

لكن هذا لم يمنع العالم كله من أن يخافه خوفا رهيبا، عدا دابة صغيرة – رغم صغرها هذا – وذات مظهر لامغزى له .

من هو هذا المخلوق الجرىء؟ إنه الظربان. كان يتسلى بالتنزه حول عرين «الظفر الطويل» حين تحين له فرصة قياس قوته بالنسبة له.

وفي يوم من الأيام، التقيا سويا، حدث هذا بالقرب من منزل الظربان. كان الظربان جالسا على قاعدة شجرة يدخن غليونه بهدوء، عندما وصل «الظفر الطويل» إلى هذا المكان؛ بحثا عن غنيمة.

زمجر «الظفر الطويل» : «ها!...ها. أنت! خذ حذرك».

فلم يحرك الظربان حتى مجرد جفنيه. وبدون تردد، واصل سحب الدخان من غليونه كأن شيئا لم يحدث.

فأخذ «الظفر الطويل» يصرخ فيه قائلا: «هووا هووا انقذ نفسك، إذا كنت متمسكا بالحياة». وبدأ يقوم بحركات تهديد واضحة، تحت أنف الظربان .

– «خلصنى من وجودك أيها الوحش القبيح » ، قال له الظربان رابط الجأش – وبلا اهتمام – لافظا جملته من بين شفتيه، بعد أن أبعد غليونه – للحظة – ثم أعاده لفمه على الفور : «إننى أتأمل نموالأعشاب، وأنت تأتى – هنا – وتدوسها».

انفجر الروح الشريرة قائلا: «كيف؟ ما الذى تقول أيها الحشرة الطفيلية الوقحة؟ سأمزقك وأصنع من جلدك سيرا لأربط به أحذيتى الموكاسان. هوهوا هوهوا سألتهما مثل برقوقة كاملة النضج. ارتعش. إننى أقول لك ارتعش».

فأجابه الظربان :«أتعتقد هذا»؟

– «كيف ؟ ما الذى تعتقده؟ سأربطك مثل درع الهندى. انظر». وبعد أن قال «الظفر الطويل» هذه الجملة، رفع صخرة كبيرة، وألقى بهاعلى الأرض، فانفجرت وتفتتت ألف قطعة .

– «أهذا هو كل شىء ؟» سأله الظربان ببرود وهو يملأ غليونه؛ «حسنا، إذا كنت بحاجة ماسة للقتال معى، فإننى لاأرى فى هذا أي خطر»، وخرج من عرينه المصنوع من الأشجار وسأله: «ماهى قواعد

المعركة»؟.

فقال له «الظفر الطويل» بفخر : «بعد أربع ضربات، سأرسلك إلى أراضى الصيد الأبدية».

فأجابه الظربان :«اتفقنا ، يمكنك أن تبدأ - أنت - بالضربات الأربع الأولى. ثم يكون دورى أنا لأصفى حسابى معك».

فتوعده «الظفرالطويل» قائلا: «لن تعيش طويلا لتفعل هذا». ثم استند على فخذيه المتباعدين، وهوى عليه بالضربة الأولى فوق جمجمته.

كانت ضربة رهيبة، جعلت الظربان يغوص فى الأرض حتى ركبتيه. وقبل أن يعود لرشده ، تلقى الضربة الثانية، ثم الثالثة، والتي لم تترك سوى رأسه على سطح الأرض.

«بانج» ! ها هو يتلقى الضربة الرابعة، وها هو الظربان قد اختفى تماما فى الحفرة .

- «انتظر حتى أخرج، وسأجعلك تدفع الثمن، وبالأرباح أيضا»، قال الظربان للروح الشريرة.

«أرنا ما الذى بإمكانك أن تفعله ضدى؟» قال له «الظفر الطويل» وهو يضحك . لكن ضحكته كانت صفراء، فقد شعر بالحيرة وهو يرى عدوه لايزال على قيد الحياة .

فأجابه الظربان: «أكيد لن أقع فوقك بكامل ثقلى . ولن أرفع حتى إصبعى الصغير ضدك . يكفينى مجرد الدوران حولك أربع مرات».

- «أتعتقد أن هذا سيزعجنى ، يمكنك أن تدور حولى كما تشاء»،

وأثناء هذا سأنام قليلا».

ثم تمدد «الظفر الطويل» -براحة - على العشب، فأخذ الظربان حفنة من بهارات خاصة من كيس التبغ، وحشا بها غليونه وهو يغمغم بتعويذة سحرية.

عندئذ ، أخذ يسير ويرسم بجسده دوائر حول الروح المرتكبة للأعمال السيئة. ثم سأله بعد دورة واحدة :«هل بدأت تخشاني؟» أجابه «الظفر الطويل» بصوت ناعس: «كلا، البتة، ولا أقل بادرة خوف».

فغمغم الظربان : «أنوناني ! أنوناني! اخرج من هنا!».

وإثر هذه الكلمات، خرجت سحابة دخان كثيفة من الغليون، وأحاطت «الظفر الطويل».كان أفظع شيء - بالنسبة له - هو الرائحة المقززة التى لا تحتمل، والتى ملأت خياشيمه وعينيه وفمه، فحاول أن يتخلص منها، لكنه لم يستطع.

«ياه! ياه! لقد قتلتني! » أخذ يشكو - وجسده يتقلص- ثم سقط جثة هامدة.

لقد انتصر الظربان، فقطع أظافر الوحش الطويلة، وصنع منها عقدا تذكاريا. وأراد أن يشاهد جيرانه عقده. لكن «أنوناني» ظل يصاحبه دائما. كان الكل يبتعد عندما يقترب الظربان. وهكذا! قبيلة الظربان - فقط- هى التي لاتشعر بالضيق من «أنوناني». بل ، وعلى العكس، ترى أنه حليف مفيد ، وحماية نفيسة ضد أعدائها .

الفراولة

يحكى أنه كان هندى يعيش وزوجته فى منزل صغير على حافة «النهر الهادر» وكان الرجل محبا للشجار. ربما بسبب زمجرة السيول الدائمة المجاورة له، أو شكاوى الريح المستمرة فى «الصخور العارية». هذا بالإضافة إلى أنه - على نقيض أهل قريته الصامتين عادة- كان ثرثارا، حتى أنه يظل يتكلم، ويتكلم ، ولايكف عن الكلام من الصباح للمساء .

لم يكف عن الحديث أبدا، حتى أثناء الصيد. وعندما كان يترصد أيلا، فهو يهزل مع طائر «القندس» المعلق فوق شجرة فوق رأسه. لذا لايكون مدهشا، فى ظروف كهذه ، أن تهرب منه الفريسة فى أغلب الأحوال، أما أكثر من تألم من هذا التصرف، فهى زوجته، لم تعرف لحظة هدوء. كان يصرخ فيها، حتى أثناء نومه!.

يقولون إنك لاتستطيع أن ترتدى «الموكاسان» بعدما يهترىء تماما. والمرأة الهندية، هى أيضا لم يعد بإمكانها احتمال حياة كهذه للأبد. لقد نفد صبرها ذات يوم. ولأنها لم تستطع تحمل طباع زوجها الاستفزازية، فقد قررت أن تتركه. ولأنها لم تعرف إلى أين تذهب، فقد سارت بلا هدى ، على امتداد «النهر الهادر»، وهى تتبع الشمس. وسرعان ما لاحظ الهندى أن زوجته قد تركته. واعتقد - بغبائه-

أنها ستعود! فتأهب لتوبيخها بشدة .

ومر يوم، ويومان، وثلاثة أيام. وفى صباح اليوم الرابع، ذهب الزوج المهجور يطلب النصيحة من «النهرالهادر»، فلم يتلق سوى هذا الرد المختصر: «اتبع الشمس ! اتبع الشمس». عندئذ، سار فى الاتجاه الذى حدده له السيل.

فقالت له الشمس : «النهر الهادر» على حق . زوجتك، تتبعنى. لكنها لم تعد تريدك».

شعر الهندى بحزن شديد، فوعد الشمس قائلا : «لن أتشاجر معها أبدا، لكن أرجوك ، قولى لها أن تعود!».

فأجابته الشمس: «لا أعرف هل ستوافق على هذا. وعلى أية حال، إذا كنت عازما على الالتزام بوعدك ، سأرى ما الذى أستطيع عمله من أجلك، والآن، اذهب للقائها».

أخذ الرجل يجرى طوال اليوم، وطوال الليل، دون أن يتوقف ليأكل أو ينام. ورغم هذا ، ماكان له أن يلحق بزوجته لولا تدخل الشمس القوية.

كانت المرأة الهندية تتقدم نحو الشرق، وقد نسيت زوجها تماما .

ففكرت الشمس: «الطريقة الوحيدة التى تجعلها تتذكر زوجها، هى أن أجعلها تنظر وراءها، وهى لن تنظر وراءها إلا لترى شيئا لم يسبق لها رؤيته من قبل. وجدتها : سأجعل التوت ينمو فى طريقها».

وكأنه ولد بحركة من خاتم سحرى، نما دغل عويسج أشجار، وامتلأ بالتوت الشهى، لكن الزوجة مرت به دون أن تراه.

فقالت الشمس لنفسها : «ربما تفضل العنبية» وأعدت لها مفاجأة جديدة.

ويمكن أن نعتقد أنه ليس باستطاعة أحد تجاهل سجادة العنبية المنعشة. لكن الزوجة الهندية داست عليها دون انتباه».

ففكرت الشمس «لست أرى ما الذى يمكننى أن أقدمه لها كشىء جديد، وشعرت باليأس. لكن سرعان ماأضاءت الابتسامة وجهها النارى: «لقد وجدتها، كيف لم أفكر فى ذلك من قبل؟ الفراولة، هذا بديهى!»

وبسرعة، اختارت الشمس أجمل حبات فراولة، وأكثرها نضجا، وأكبرها ، وأحلاها رائحة، ونَدتها بندى الصباح، ثم غرستها على حافة الطريق الذى تسير فيه زوجة الهندى.

وهذه المرة، توقفت المرأة الهندية، لقد شد انتباهها الرائحة الشهية التى لاطفت أنفها.

فأخذت تتساءل «ما هذا الشىء ذو الرائحة الجميلة؟» . عندئذ، وقعت عيناها على سجادة الفراولة، فلم تستطع مقاومة إغرائها، وانحنت لتقطفها، وعندما أكلتها كلها، وقفت ونظرت حولها. فى هذا الوقت؛ كانت الشمس – وهى ثعلب لئيم عندما تريد أن تكون كذلك– قد غرست فراولة على حافة الطريق الذى كانت قد مرت منه، فجعلتها تعود أدراجها، لتقطف الفاكهة الشهية التى أخذت تأكل منها.

وكلما أكلت الزوجة الهندية من الفاكهة، كلما عاودها الحنين لحديقتها، ومنزلها، وبدأت تفكر فى أن تكون بجوار زوجها. لم تعد

ترغب فى الرحيل . بل بالعكس، لم تعد تراودها سوى رغبة الوجود فى بيتها . فأخذت تجدل سلة من البوص، ملأتها بأجمل الفواكه لزوجها . ثم سارت فى طريق العودة. وقبل أن تبدأ مياه «النهر الهادر» فى التحول إلى اللون الأرجوانى من جراء أشعة الغروب، لمحت زوجها يهرول فى اتجاهها وهو يلهث.

فاحتضنا بعضهما سعيدين بالتلاقى، ثم تشابكت أيديهما، وعادا - بهدوء- إلى منزلهما على سفح «الصخور العادية». ويقال إنهما عاشا سعداء وفى سلام وهدوء؛ والفراولة؟ حسنا . لقد انتشرت الفراولة فى كل البلد الهندى، ويمكن لكل واحد أن يأكل منها ما طاب له عندما يأتى موسمها .

الذئب الأمريكى الصغير والثور الأمريكى «بيسون»

فى يوم من الأيام، وجد ذئب أمريكى صغير جمجمة ثور أمريكى فى المراعى وقد تكلست من الشمس. لم يكن أحد قد أعارها أي اهتمام حتى هذه اللحظة .

وهذا الذئب الصغير، الذى يدس أنفه فى كل شىء، كان فضوليا مثل قرد. لذا، أخذ يفحصها من كل جوانبها وينظر بإمعان لهذا الشىء الغريب. وفكر قائلا: «لاشك أن كنزا يختبىء بداخلها» وذهب ليبحث عن طوبة يشق بها الجمجمة.

لم يسبق للذئب الأمريكى رؤية شىء كهذا! ومن أول ضربة، تفتتت العظام. فالكنز الذى تخيله الذئب الأمريكى كان مجرد تراب. غير أن زمجرة مكتومة أتت من بعد، فرفع عيونه، ووقف شعر جلده هولا: رأى غلالة من التراب الأحمر تمتد فى الأفق، منذرة باندفاع الثيران الأمريكية نحوه.

شعر الذئب الصغير بالضياع، وأخذ يركض فى حلقة مفرغة، وهو يتضرع للأرواح الطيبة لتنجده، ويرجوها قائلا: «حولينى لشجرة أيتها الأرواح!».

وعلى التو، ظهر جذع شجرة صغير ومجوف فى مكان الذئب الأمريكى الصغير، وتدفق القطيع بالقرب منه دون أن يلاحظه، عدا

الثور الأخير، الذى اصطدم بجذع الشجرة فى طريقه، فاشتعل غضبا. فخفض الثور الأمريكى رأسه الضخم، واستعد ليحمل جذع الشجرة الواقع بعيدا عن طريقه.

فأخذ الذئب الأمريكى ينوح بأعلى صوته : «آه! أيتها الأرواح الطيبة! حولينى بسرعة لصخرة».

لكن جهده ضاع عبثا،: لقد تلقى ضربة هائلة! وها هو الثورالأمريكى المسعور يستعد لتفتيت تلك الصخرة الاستفزازية.

فرجا الذئب الأرواح مرة أخرى: «أيتها الأرواح الطيبة، بسرعة، حولينى إلى دغل ملىء بالأشواك، فحققت الأرواح الطيبة، مرة أخرى، رغبته. عندئذ، أصبحت كل قوى الثور الأمريكى بلا طائل. أخذت أشواك الدغل تشكه فى مشفره وعينيه، ولم يعد بمقدوره الوصول للجذور.

وأخيرا، اقترح على الدغل ما يلى: «لنتعايش فى سلام . أرنى هيئتك الحقيقية، وسنكون أصدقاء».

فقفز الذئب الأمريكى الصغير خارج الدغل، ولأنه كان يخشى أن يغير الثور الأمريكى رأيه، فقد مد إليه يده - بسرعة- بغليون السلام. فقال له الثور الأمريكى وقد هدأ تماما : «حسن، اتفقنا، سنكون أصدقاء، ولكننى أحتاج مساعدتك.

- «بكل سرور، ما الذى أستطيع أن أفعله لك؟».

- «لقد نهب القطيع جاموستين لى. أرجوك ، شذب لى قرنى. وبعد ذلك، سننطلق - سويا - لساحة الحرب».

فأخذ الذئب الأمريكي الصغير يتباهى بنفسه قائلا: «أنا محارب كبير، وعندي مجموعة جميلة من فرو الرأس. حسنا صنعت عندما وحدت بين قوتي وقوتك». لقد شحذ قرني الثور الأمريكي بشكل جيد تماما، فهو متخصص ماهر. في هذا المجال من العمل. ثم اقترح عليه قائلا: «لأكن كشافك» ثم تسلق قمة تل ليفحص الأراضي المجاورة.

كان قطيع من الثيران ينام نومة القيلولة، فصرخ الذئب الأمريكي الصغير قائلا لشريكه:«بسرعة! العدو نائم، لنفاجئه».

وهاجم العدو. أما الذئب الأمريكي الصغير، فإنه لم يتعجل الذهاب لساحة الحرب، مفضلا البقاء بعيدا عن الساحة، ليراقب مجرى الأحداث.

لقد تمكن - بصعوبة - من التنفس، من هول المعركة الدائرة بالقرب منه. كانت الأرض ترتج تحت ضربات الكعوب الهائجة، وصوت القرون المتشابكة يمزق الهواء،

وأخيرا، خيم الهدوء على المنطقة، ثم سمع الذئب الأمريكي الصغير صوت عدو يقترب ، فغامر بإلقاء نظرة خارج مخبئه، فرأى الثور يهرول حاملا الجاموستين .

فقال الذئب الصغير وهو يتفاخر بوقاحة : «برافو! لقد عملت خيرا! وأنا استخدمت - تقريبا - كل سهامي ضد الأعداء».

فأجابه الثور الأمريكي معارضا : «لم أرك تصوب أي سهم».

- «كيف لم أصوب أي سهم؟ لقد جنبتك - أربع مرات على الأقل

- سلخ فروة رأسك ! والآن ، أنت مدين لى بنصيبى من الغنيمة».

كان المحتال يخطط للقطعة اللذيذة التى سيعطيها له الثور الأمريكى؛ ويتعجل الرحيل.

فقال للثور الأمريكى وهو يتركه : «ليكن الإله «مانيتو» معك ! أعرف أنك مشغول ، لذا لن أعطلك أكثر من هذا».

وقبل أن يتمكن الثور الأمريكى من الرد عليه، اختفى الذئب الأمريكى فى العشب العالى، حاملا معه الجاموسة .

وما أن سمع الذئب الأمريكى خطوات صديقه الثور وقد ابتعدت، حتى قتل وسلخ فريسته. كانت مهمة شاقة، فشعر بالتعب. لذا فكر: «حسنا أفعل إذا نمت قليلا قبل الاحتفال بهذه المناسبة. أنا منهك» . فتمدد على العشب، وسرعان ما أصبح يغط فى نومه غطيطا عميقا، لدرجة أن المراعى أخذت تتماوج مع تنفسه. كان يحلم أنه أذكى المخلوقات فى العالم، وأفضل من كل الحيوانات مجتمعة.

ولسوء حظه ، لم يكن هذا سوى حلم. فأثناء نومه ، انجذب رهط من الذباب لرائحة الجاموسة المسلوخة، وعندما استيقظ من نومه، لم يجد سوى عظام مقروضة، فشعر بغضب هائل. وأخذ يصرخ ساخطا: «أين اللص الذى جرؤ على هذه العَملة؟» ولكن المراعى ظلت صامتة.

كان الجوع يعذبه، ففكر فى أن يمص النخاع، فهذا أفضل من لاشىء. فذهب ليبحث عن حجر ليكسر العظام.

ولكن حتى هذا الشىء القليل لم يعد من نصيبه ! ففى الوقت

الذى كان يبحث فيه عن حجر، مر «غُرير» من هذا المكان ، وبدون أية مقدمات، أخذ يمص النخاع، ولم يترك له فتفوتة واحدة.

والآن، ما الذى عليه أن يفعله؟ لقد ظل الذئب الصغير - منهكا وجائعًا- واقفا فى هذا المكان، وأذناه متدليان وذيله متهدل، صورة حقيقية للبؤس.

«ربما أستطيع تحويل العظام إلى مسحوق وأصنع منها حساء؟» وإثر هذه الفكرة، أخذ يضرب العظام ضربات قوية، فتناثرت فى كافة الاتجاهات «لو فقط لك منقار!» قال صوت ساخر من فوق رأسه .

فرفع الذئب الأمريكى الصغير رأسه ورأى سربا من طيور الزاغ.

فقال لهم الذئب الصغير : «لن تجدوا شيئا أفضل من هذا» ثم ضم قائمتيه وأخذ يرجوهم بأدب: «كونوا ظرفاء وحولوا هذه العظام إلى مسحوق وسأعطيكم نصفها».

فدندن أكبر طيور الزاغ سنا: «حسنا، حسنا ! ولكن اعثر لنا على ملعقة ؛ اعثر على ملعقة!».

فأطاعه الذئب الأمريكى وذهب ليبحث عن ملعقة، ولم يستغرق وقتا طويلا، لقد أسعده الحظ ووجد ملعقة قريبة، فى معسكر مهجور للهنود. وعند عودته مهرولا، أخذت أفخاذه تصطك ببعضها، وكان يبلع ريقه من شدة الجوع، وللمرة الثالثة - وللأسف الشديد - لم يجد لا العظام، ولا المسحوق . كانت طيور الزاغ تحلق فى مرح فوق المكان، ومنقارها قد أصبح أبيض من المسحوق.

وأخذت الزاغ تنعق : «ها، ها، ها! كووا، كووا ، كووا!».

فألقى الذئب بالملعقة فى أثرها. لو أمكنه فقط أن يضرب واحدا من هذه الطيور القذرة!».

وأجابته الطيور من عل «كووا، كووا، كووا ، ياله من أحمق، يا له من أحمق، ياله من أحمق! ».

ولم يتبق له سوى الهرب إلى أبعد مكان يستطيع الوصول إليه، هربا من هذا النحس.

العش وطائر العقعق

عندما أنهى الهنود الحمر بناء بيوتهم العديدة، وهى بيوت تختلف كلها- بعضها عن بعض، ذهبت الحيوانات مدفوعة بالفضول لترى هذا العمل الجميل، وأخذت تتسلى بتعليقاتها. لقد أعجب الدب بصلابة البناء أساسا. أما القط المتوحش، فقد أحب دفء المنزل بالداخل. وكانت الطيور أكثر من ناقش هذا الموضوع من بين الحيوانات. فلم يسبق لها رؤية بناء كهذا أبدا.

وبينما هم يزقزقون، ويعقعقون ويصأصئون حول البيوت، رأوا أنهم- هم أيضا- يمكنهم بناء مساكن كهذه. حتى زعيمهم النسرنفسه أيد هذا الاقتراح، وأمر الجميع بالشروع فى العمل دون تأخير.

ومع حلول الربيع، تعلمت الطيور بناء الأعشاش، فقام نقار الخشب ذو الريش الأخضر، وحفر بمنقاره القوى، وكأنه نجار حقيقى، بيته فى جذع شجرة؛ أخذ منقاره يرن فيها كالطبلة، والنشارة تتطاير فى كافة الاتجاهات. وأحيانا، كان يتوقف لحظة لينظر لعمله بعين خبيرة، ثم يعود إليه على الفور.

أما عصفور الخُطف والسنونو، فقد سدا ثغرات عشهما بالطين، فجعلاه شبيها ببيوت الهنود الحمر الجنوبيين. ولكن العصفور الطنان

– بلا شك– هو الذى شيد أجمل عش ، فهو لم يسد– فقط– شقوق عشه بطريقة أمهر من طريقة السنونو، بل – وفضلا عن ذلك – زينه بأجمل ما وجده وأكثر النباتات اخضرارا .

ولكننا – مع ذلك – علينا أن نقول إن الطيور كلها لم تكن مخلصة وذات ضمير حى: فعلى سبيل المثال، اكتفت البومة بإلقاء حفنة من القمامة فى حفرة بالصخرة، ثم تمددت – على الفور – لتنام نومة القيلولة. أما الطائر السمانى، فقد استقر – من ناحيته – براحة فوق كومة أعشاب، وبلا مبالاة، أخذ ينتظر نمو الجنوع حوله لتشكل سقفا فوق رأسه.

وكانت المسألة سهلة بالنسبة لأنثى العقعق: فهى لم تفعل شيئا البتة، واكتفت بالتنزه – هنا وهناك – عبر الغابة، تعبث وتتسكع ككسول حقيقى فعلا، وعندما سألها الآخرون لماذا لاتشيد لنفسها بيتا ، كانت تجيبهم، : «أنا لا أعرف البناء... ثم، لماذا أتعب نفسى هكذا؟ سأجد دائما فرعا يلائمنى للنوم»، ثم تترك محادثها ، وتذهب لتتحدث مع آخر وتهذر كما تشاء .

انتهت الحيوانات من بناء بيوتها منذ وقت طويل: عدا العقعق طبعا. وكان «الروح الأعظم» – الذى راقب بانتباه جهود الشعب الطائر خلال هذه الفترة – قد خرج من سحابته المعلقة هناك فوق السماوات، وحادث شعبه من الطيور قائلا: «إننى أقدّر – تماما – ما أثبتموه من إخلاص ومهارة فى العمل. وفى اعتقادى، يستحق عملكم مكافأة.»

وبعد أن حدثهم «الروح الأعظم» بهذه الطريقة، انتزع أربع ريشات من ريش نسر إكليله الملكي، واستدعى الرياح الأربعة: ريح المشرق، وريح المغرب، وريح الشمال، وريح الجنوب، ومنح كل واحد منهم ريشة وقال لهم :

«أرغب - قبل أن تغطس «نجمة الراعي» في الأفق خلف «المياه الكبرى - أن تمتلىء أعشاش العصافير - كلها - خلال مسيرتكم ، بالبيض الذى سيقدم جيلا جديدا من العصافير».

وكان صوت «الروح الأعظم» لايزال يرن عاليا ، عندما كانت الريشات الأربع - والتي حملتها الرياح- تقوم برحلة الحج الطويلة. وخلال طيرانها فوق البلد الهندي، أخذت تضع - فوق كل عش - بيضا أبيض كالثلج، وأصفر وأخضر، ومنقطا، حسب نوع الفرخ الذى سيخرج منه.

كانت الطيور فى نشوة كاملة. وها هو بعضها يحتضن صغار طيوره، بينما آخرون ينتظرون هبة «الروح الأعظم». وفى هذه اللحظة، شعرت أنثى العقعق بالندم، وأن عليها الاعتراف بأن الكسل لاثمن له. وبسرعة، أرادت هى الأخرى أن يكون لها عش كالآخرين . لكنها - للأسف- لاتعرف كيف تبنيه، وأخذت تتحرى الموضوع وتبحث عن مساعدة كل من تقابله، ولقدرتها ومهارتها فى الترافع، والشحاذة، والشكوى من انعدام مهارتها فى هذا المجال، أصبح بإمكانها إثارة شفقة الحجر. وفعلا جاءت الطيور لمساعدتها .

فزودها نقار الخشب الأخضر ببعض النشارة، وأتى «الخطّوف»

ببعض النباتات، وجمعت أنثى القندس كل هذه الأشياء خلط ملط فوق قمة شجرة التنوب، وقبل أن تمر ريشة إكليل «الروح الأعظم» على هذاالمكان، كانت قد رأت أن عشها قد اكتمل، فأخذت تنتظر هدية السماء، وتحسب - من الآن - عدد البيض الذى سيمنح لها .

ومنذ بدايات ضوء فجر اليوم التالى، أخذت العصافير ترفرف فى كافة أرجاء واتجاهات البلد الهندى، وتكافىء بعضها بعضا على بيضها، بل وتتلقى التهانى على صغار الكتاكيت التى بدأت فى الخروج من قشرة البيضة. لكن الطيور أصابتها الدهشة عندما لم ترى أنثى العقعق، لقد اختفت وكأن الأرض انشقت وابتلعتها.

فقالت الطيور : «لاشك أنه حدث لها مكروه» ، إذ أنه ليس من الطبيعى ألا تتواجد هذه العجوز - الموجودة دائما فى كل مكان فى يوم عيد كهذا اليوم . فطارت الطيورنحو شجرة التنوب بدافع الفضول والقلق .

كان هناك مشهد رائع ينتظرهم بالقرب من هذا العش غير المنظم: رأوا - بشكل متقطع - مرة رأسا، ثم ذيلا، ثم طرفا من جناح العقعق، والتى أخذت تتحرك باضطراب ، وتعقعق، دون أن يفهموا تماما الموضوع. لقد انهمكت فى حساب شىء ما ولاتحقق ذلك : «واحد، اثنان، ثلاثة... لا. اثنان ! عبثا أحاول، لن أتمكن أبدا من الحساب». كانت تدمدم ، وتخرج رأسها - مذهولة - وعيناها مضطربتان ومذهولتان، ثم تعود وتغطس برأسها من جديد داخل العش.

هذا هو ما أعاق أنثى العقعق، وأمكثها فى عشها فى يوم البهجة العامة هذا. فقد مكثت فى عشها تعد البيض! والحق يقال، أن فوضى كهذه ليست شيئا سهلا؛ كما تقول الطيور الأخرى.

عندئذ، وباسم الجميع، قال النسر للقندس :

«لقد حصلت على ما تستحقينه أيتها الكسولة السخيفة! لو كنت شيدت عشك بعناية وبلا عجالة، مثلما فعلنا نحن، لشاركتنا فرحتنا -الآن- بهبة «الروح الأعظم».

وبعد أن ألقى بعظة هذا الحادث ، تأرجح النسر - قليلا - فوق الفرع الذى كان واقفا عليه، ثم طار وحلق عاليا، فى الأجواء ومعه كل الطيور. وعبثا حاولت أنثى العقعق، الطيران معهم لترجوهم مساعدتها هذه المرة أيضا، وتستعطفهم كى يرتبوا العش ويعدوا معها البيض، لم يوافقها أحد. ولهذا السبب ، نلاحظ أن عش العقعق هو أكثر الأعشاش تلفيقا. وحتى الآن، لا تعرف أنثاه عدد البيض الموجود فيه فى الربيع.

الحوت والغراب

ربما بدا الأمر، فيما أحكيه من حكاياتى - أن أغلب المغامرات التى حدثت للحيوانات، فى البلد الهندى، تتعلق - أساسا - بحكايات الذئب الأمريكى الصغير والأرنب. لكن، فى الغرب، يوجد مغامر آخر مشهور : الغراب.

وقد كان الغراب - منذ فترة طويلة - يرغب فى تذوق لحم الحوت، ولكن كيف يتسنى له الحصول على فريسة بهذا الحجم؟

قال صاحبنا فى سره «سأقيد واحدا منهم ثم أقتله»، واستجمع قواه منتظرا وصول واحد من الحيتان من ناحية البحر.

وفى حوالى الساعة الثانية عشر ظهرا، ظهر حوت هائل الحجم كان ضخما كشجرة باسقة، وينفث كميات كبيرة من الماء، لدرجة أن صخور الضفة كانت ترتعد.

فرسم الغراب ثلاث حلقات بحبله، وألقى بها بمهارة، فالتف الحبل حول أنف الحوت. لكن الغراب لم يكن قويا ليتعارك مع عملاق البحر. لقد ضرب الحوت برأسه ضربة صغيرة فى الخلف، فأصبح الغراب، الذى أمسك بأقصى قوته بالطرف الآخر من الحبل ذى الأنشوطة، فى بطن الحوت والذى وصل إليه - دون انتباه- فى لمح البصر. لقد ابتلع الحوت دون انتباه كل شىء : الغراب، والحبل ذى الأنشوطة.

قال الغراب لنفسه : «ياه ! المكان شديد السواد هنا بالداخل!».

وأخذ يرفرف فى قفصه الهائل الاتساع، ثم قال : «سأشعل نارا لأتمكن من الرؤية». بدا كأنه فى مغارة تنقبض جدرانها وتنبسط باستمرار. وفى الوسط، وجد حصاة ضخمة لاتفعل شيئا سوى الصعود والهبوط».

فتساءل الغراب « ماهذا؟» وحلق بجوار الحصاة، وأخذ يضربها ضربات صغيرة بمنقاره ليعرف ماهى .

فصرخ الحوت بصوته الغليظ: «شش ! اترك قلبى فى حاله!» – آه! إنه قلبى»» وأخذ الغراب ينقر قلب الحوت بضربات من منقاره. نقره كثيرا وجيدا، فكف فى النهاية عن الحركة.

فكانت آه » هى آخر كلمة للحوت، وهو ينقلب؛ بطنه فى الهواء فانقلب الغراب، وانطفأت النار.

صاح الغراب: «لقد كسبت!» وكان سعيدا جدا. لكن انتصاره كان قصير الأمد. إذ كيف يستطيع الخروج من هنا؟ أخذ ينقر بطن الحوت بلا جدوى، كان ينقر وينقر حيطان سجنه، لكنه لم يستطع أن يشق لنفسه طريقا.

فأخذ ينعق «كروووا ! كروووا!» . وهو يأمل أن يسمعه أحد بالخارج.

وهذا ماحدث بالضبط، فقد سمعه الأطفال الذين يلعبون على الشاطىء وعندما رأوا الحوت يطفو فوق الماء ويسير بغير هدى ، ذهبوا لإنذار أهلهم. وسرعان ما وصل الهنود ومعهم الخطاطيف

والسكاكين. فسمع الغراب أصواتهم . ثم سمع أصواتا أخرى، عندما أخذ الرجال، يقطعون لحم الحوت الأبيض.

وسرعان ما دخل الخطاف حتى بطن الحوت، وما أن رأى الغراب فتحة كافية ليمر فيها، حتى تسلل منا وطار من بين الهنود المذهولين، ثم راح ليحط فوق فرع شجرة تنوب بأيكة مجاورة.

وبعد أن استعاد هدوئه قليلا، وصقل ريشه، بدأ يشعر بالحسد تجاه الهنود. فقال محتجا: «أنظروا! أنا الذى خضت المعركة ضد الحوت، وأنا الذى قتلته، وهم، هم يهرولون إليه وما عليهم إلا أن يأكلوه، كرووا! كرووا ! الأمر لن يمر هكذا!».

وخرج الغراب من الأيكة، وجمع عشبا جافا ليصنع منه باروكة وذقنا طويلة. وبعد أن تنكر فى هيئة ساحر، اتكأ على عصا وتقدم – وهو يعرج – نحو القرية.

وطرق أول باب يقابله.

وما أن دخل البيت حتى قال: «إننى ساحر قوى. وقد أسرت لى الأرواح بأنكم فى خطر كبير وقد أتيت لأنذركم به».

فسأله المحارب الشاب، الجالس بجوار البيت : «أى خطر؟»

فأجابه الغراب الساحر :«إن الحوت الذى مات هو المبشر بالموت، لذا، عليكم فورا، أن تأخذوا زوارقكم وتبحروا فى أعالى البحر. هناك، لن يتمكن من الوصول إليكم. ولكن، إذا ظل واحد منكم فى الخلفية، عندئذ...» ثم توقف الغراب لحظة، ومال برأسه جانبا كأنه ينصت لروح غير مرئية، ثم استأنف كلامه :«إذا. ظل واحد فقط

الشاطئ، ستضيعون كلكم، إننى أشعر بالموت فى الهواء، اهربوا بسرعة، إذا كنتم متمسكين بالحياة».

ولم يجعله الهنود يردد عبارته مرتين، لقد انتشر الخبر فى القرية مثل نثار بارود، وسرعان ما ابتعدت الزوارق عن الشاطئ.

أما الغراب – الذى ظل بجوار جثة الحوت – فقد أخذ يحرك عصاه في كل الاتجاهات ، كأنه يطرد الموت .

وما إن اختفت الزوارق الهندية فى الأفق، حتى تغير سلوك الغراب فجأة.. فألقى بأدواته التنكرية، وأخذ يتأمل جبل اللحم الذى ينتظره .

ثم اختار أفضل قطعة لحم وأخذ يغنى :

«كرووا، كرووا، كرووا! كل هذا اللحم، نعم، كله لى!».

كيف فقد «الأبوسوم» شعر ذيله

يصعب علينا أن نتخيل حيوان «الأبوسوم» بذيل وشعر أيضا، ورغم هذا، فمنذ زمن بعيد جدا، كان للأبوسوم ذيل بهى، أجمل من ذيل السنجاب.

كان «الأبوسوم» فخورا جدا بذيله، يتأمله بلا كلل، ويعزه كأنه طلسم ثمين، والمسألة بسيطة: لقد اعتقد أنه يملك أجمل ذيل فى العالم. وها هو، ذات يوم جميل بعيد، يقابل «الراتون» الغاسل، لم يكن يعتنى ويحرص على ذيله فقط، بل كانت حلقات غامقة اللون تزينه.

قال له «الأبوسوم» ليحادثه : «ياه... ذيلك هذا، كم هو جميل».

فأجابه الآخر مزمجرا «ممم» كان يبحث عن شىء ليأكله، ولايرغب فى الثرثرة، فأصر «الأبوسوم» قائلا: «ذيل جميل جدا!».

فأجابه الراتون الغاسل: «وأنت أيضا تملك ذيلا جميلا» محاولا إنهاء الحوار عند هذه المرحلة .

«نعم ! أعترف بذلك، ولكننى لا أملك هذه الحلقات الغامقة الجميلة ألا تستطيع أن تتخلى عن بعضها لى».

«بالطبع لا » أجابه «الراتون» الغاسل وهو يلملم ذيله بين أفخاذه، إذ لا أحد يعلم ما الذى يمكن أن يحدث مع مجنون على هذه

الشاكلة.

«خسارة . ولكن - على الأقل- قل لى كيف حصلت على هذه الحلقات الجميلة؟».

فأجابه «الراتون» الغاسل وعيناه تشتعلان لؤما:«بسيطة كل ما عليك أن تفعله هو أن تربط ذيلك بحلقات من لحاء الأشجار، ثم تضعه على النار، وكلما احتفظت به فى النار مدة طويلة، كلما انطبعت هذه الحلقات بشكل أفضل».

«شكرا يا أخى العزيز» وعلى الفور، انطلق الأبوسوم لينزع لحاء جذع شجرة .

أما «الراتون» الغاسل - الذى سعد كثيرا بتخلصه من هذا المزعج، فقد نزل فى طريقه المعتاد نحو النهر، حيث أراد أن يصيد بعض الأسماك للعشاء. فأخذ يخب ويكرر بصوت خافت :«حلقات ! أطلب منك قليلا من الحلقات». وفى هذا الوقت، كان «الأبوسوم» يربط الحلقات - بعناية - فى ذيله. لكن المسألة لم تكن بهذه السهولة، فلو كان ذيله طويلا كذيل التمساح، لكان صبره قد نفد قبل أن ينتهى من مهمته، ولحسن حظه أن ذيله قصير؛ فقام بمهمته حتى النهاية، وبسرعة أتى بأعشاب وخشب جاف وأشعل النار، وانتظر قليلا حتى تشتعل جيدا، ثم عض على نواجذه، ووضع ذيله - الممتلىء بالحلقات - فى الجمرات.

كان هذا يؤلمه. والحق يقال، كانت الآلام لاتحتمل . لكنه لم يتحرك قيد أنملة؛ ولم يصدر عنه أي تأوه، وقال لنفسه إن عليه أن

يتألم ليصبح جميلا. وعندما أخذت الدوائر ترتسم أمام عينيه، قال لنفسه «سرعان ما سيكون عندي حلقات مثل حلقات «الراتون» الغاسل فوق ذيلي، إن النار ترسمها لي».

هكذا كان يشجع نفسه ليتحمل الألم.

وسرعان ما انطفأت النار. فزحف «الأبوسوم» على العشب ليخفف من حدة التهاب ذيله ثم التفت - وهو يئن- ليرى ذيله. لقد نفد صبره، وأراد أن يسعد عينيه بزينته الجديدة.

يا للأسف ! لم ينحصر الأمر في أن ولا حلقة قد رسمت على ذيله، لكن - وهذا شيء مفهوم - وجد كل شعره وقد احترق، لم يتبق له سوى جلد منتفخ.

ولأنه لايتمتع بعقل سليم، فقد أخذ يبكي، ويسب «الراتون» الغاسل الذي سخر منه، وأخيرا، لاذ بالفرار ليخبيء عاره.

وانتقلت الحكاية من فم لفم، وهكذا عرفها العالم كله، لم يشتك أحد منه، لكنه هو لم يكف عن شعوره بالعار من ذيله العاري تماما .

لهذا، ومنذ هذا الوقت، أصبح يفضل أن يعيش زاحفا، ليهرب من نظرات الآخرين.

القندس والشيهم

البغضاء القديمة جعلت التعارض قائما بين قاطني ضفتي «البحيرة الكبرى» : القندس والشيهم. وهناك أسباب قوية لهذا!

يمكنك أن تتخيل أنهما - فيما مضى - كانا أفضل صديقين في العالم. كان الشيهم يعيش وحيدا في كهف. وعندما يخرج للتنزه، كان يحلو له أن يتوقف قليلا بالقرب من القندس ويتحدث معه محادثة ودية موجزة، فيثرثران عن كل شيء وعن لاشيء! ويتبادلان آخر الأخبار وأحيانا يعدان حفلة «بوتلاش» فيقضيان وقتا ممتعا، ويتبادلان الهدايا .

وماحدث هو أنه خلال لحظة بهجة كهذه ، ولخسارة القندس الكبرى، همست له روح شريرة بأن يقوم بعملية احتيال جميلة. فقال للشيهم فجأة: «ما رأيك ، لنذهب ونلعب».

فوجيء الشيهم بفكرة اللعب وبطنه ممتلئة، غير أنه أظهر له موافقته :

- «حسنا، وأين سنلعب؟ لايوجد مكان يكفي عندك».

- « في الماء طبعا! فنغطس فيه».

فارتجف الشيهم وقال :

«ياه ، لا . هذا لايفيدني في شيء. أنا لا أعرف العوم».

فأجابه القندس مقترحا : « لا أهمية لذلك البتة. سأحملك فوق ظهرى» ورغم أنه لايميل كثيرا لهذا النوع من المغامرة، فقد أطاعه الشيهم، وصعد فوق عمود ضيفه الفقرى حتى لايهينه .

وما أن شعر القندس بوجود الشيهم فوق كليتيه، حتى غطس فى المياه العميقة جدا، فى هذا المكان، وقال لفارسه :

«أنظر إلى الفخاخ التى نصبتها فى الأعماق».

لكن الشيهم لم يكن فى وضع يسمح له بالنظر إلى أى شىء، فقد سبق له – فيما مضى – أن شرب عدة فناجين من المياه. فأخذ يستنجد بكل الأرواح الطيبة لتخلصه من وضعه السىء، بينما بطنه تنتفخ ، حتى أصبحت مثل البطيخة.

فضحك القندس منه سرا، ولم يصعد فورا على السطح. وعندما قرر الصعود كان الشيهم، يختنق ، وروحه على وشك أن تغادره، فمدده القندس على العشب- وهو نصف حى – وقد خارت قواه تماما.

فقال له القندس بلهجة احتقار :« لم أتصور – أبدا – أن حيوانا قويا مثلك لايشعر بالراحة فى المياه». لكنه أسرع بالغطس فى مياه البحيرة، قبل أن يستعيد الشيهم حواسه ، ويزعجه بأشواك جسمه .

لقد ظل الشيهم ممددا على العشب، يتقيأ المياه، ويئن ، وهو يفكر في الانتقام، فأخذ يهمس من بين شهقتين: «انتظر أيها اللص: من يضحك أخيرا، يضحك كثيرا ».

ثم أخذ يجر نفسه، وبألم شديد، لدرجة أنه لم يصل إلى منزله إلا

مع حلول الليل. ورغم هذا ، استعاد حيويته وعافيته صباح اليوم التالي، وفي الفجر، بدأ يحوم حول البحيرة. ويدمر كل سدود القندس، الواحد وراء الآخر، وهو يتسلى بجنون.

وسرعان ما انبثقت رأس ذات شارب من المياه».

فصرخ القندس:«ما الذى تفعله» وكان صوته يتكسر غضبا أمام هذه الكارثة.

فأجابه الشيهم ساخرا: «لاتغضب لشيء بسيط! لا تخلق مشكلة بسبب دعابة تافهة؟ أنظر كم أن هذا غريب! ». وكان وهو يتكلم يلف عصا ضخمة - من الضفة المنحدرة - نحو سد جديد بالضبط، فأخذ السد يتفكك ويختفي تحت سطح البحيرة .

فخرج القندس عن طوره وقال له : «ستدفع لي ثمن هذا » وامتلأت نبرته بالتهديد، ثم اختفى تحت سطح البحيرة .

كان يعرف أنه لن يستطيع - وهو وحده - الانتصار على الشيهم، فعام نحو أشقائه وشقيقاته، وأجداده وجداته ، لطلب عونهم.

وباختصار ، ترافع بشكواه ضد الشيهم، أمام كل أمة القندس. كان أفراد القندس دائما متضافرين ، مثل عائلة واحدة، فانطلقوا جميعا، وبلا تردد ، نحو ساحة الحرب.

كان الشيهم يعرف أن انتقامه الصغير لن يمر بسهولة هكذا، لكنه كان يثق في أشواكه كوسيلة احمايته، فأخذ يتنزه - بلا مبالاة- من شجرة لشجرة، مخلفا أثرا واضحا وراءه، فيمكن للبومة أن تراه حتى في وضح النهار.

لذا، كان من الطبيعي أن تكتشف أمة القندس مكانه، وقبل أن يفهم الشيهم أن الأمور لاتسير على ما يرام، كانوا قد تحلقوا حوله .

ترددت أصداء صيحات الحرب في كافة أرجاء الغابة. فاتخذ الشيهم هيئة الكرة، وأشواكه على أهبة الاستعداد، لكن أعداءه كانوا يتوقعون منه هذه المناورة، فألقوا عليه بغطاء سميك وعقدوه بعقدة الهندي ليمنعوه من أن يخلص نفسه. ثم ساروا في طريق «البحيرة الكبيرة» ومعهم صرة ثيابهم الحية، وهم يتغنون بانتصارهم.

سأل المحاربون زعيمهم :«ماذا سنفعل به»؟

– «سنحمله إلى جزيرة مهجورة ، وسيعيش هناك حتى نهاية حياته، ولن تسنح له أبدا فرصة إهانتنا. الوداع!».

وهو ما حدث. ورغم كل الجهود التي بذلها الشيهم، فقد حملوه إلى الجزيرة المهجورة، بعيدا جدا عن شواطيء البلد الهندي.،

لم يكن هناك أحد سواه ، لكن الشيهم لم يفقد شجاعته، لقد استراح ليستعيد قوته قليلا بعد هذه الرحلة التي كانت أكثر من شاقة، ثم ذهب ليستنشق الهواء ويدرس المكان.

لم يجد شجرة في أي مكان. ولا شجرة واحدة. كانت جزيرة عارية، فقال لنفسه : «يجب أن أرحل من هنا بأي وسيلة كانت! وإلا فإنه الموت».

وأخذ يفكر – طوال الليل وطوال صباح اليوم التالي – في وسيلة للخروج من هذا المأزق.وأخيرا ، وجد حلا لايمكن لأحد غيره أن يفكر فيه بلا شك. لقد قرر أن ينادي ريح الشمال، وهي فقط القادرة

ترويض الأمواج كى لاتؤذيه.

وهكذا، ورغم أنه يعرف - عن علم - أن ريح الشمال ميالة للشر أكثر من ميلها للخير، إلا أنه التفت نحو الشمال، ونطق بصوت مستثار - بهذه التعويذة السحرية

«كسونى كازا كسونى

هون ، هون، هون !»

فوصلت ريح الشمال على الفور وهى تصفر وتعوى، وهدأت الأمواج، وسرعان ما ضاع العالم كله - فجأة - فى ضباب ثلجى ، وأخذت أسنان الشيهم تصطك من البرد، لم يسبق له فى حياته أن عرف بردا كهذا .

عندئذ، انقشع الضباب ببطء، وفهم المنفىُّ أنه نجا.

لقد تجمد سطح «البحيرة الكبيرة» تماما!

وبسرعة ، اطمأن على صلابة الجليد، وبدون أن يطلب المزيد، اتخذ الشيهم طريق العودة نحو البلد الهندى، كان الجليد يملأ المكان فى عدة أكوام والشيهم يغطس فيها مع كل خطوة يخطوها. لكنه وصل الشاطىء فى الوقت المناسب، إذ أن الجليد قد بدأ فى الذوبان .

نسى الشيهم فى خضم هذه المغامرة شجاره مع القندس. لكنه عندما وصل إلى كهفه، اكتشف أن كل شىء قد دمر، حتى سريره الصغير الناعم، الذى كان يأمل كثيرا أن يستريح فوقه.

فانفجر قائلا : «هذا كثير!»

فجمع – فى الليلة نفسها – جيشا قويا من الشيهم، ومعهم بضعة من القنافذ الذين انضمُّوا إليهم كمتطوعين .

وعشيرة القندس نفسها لم تظل سلبية. فقد أنبأ جواسيسهم زعيمهم بعودة الشيهم المنفىّ، وهكذا، وما أن جاء الفجر، حتى وقف الجيشان وجها لوجه.

لم يعد يفصل بينهما سوى النهر.

وما أن أصدر جيش القندس صيحات الحرب، حتى رموا بأنفسهم فى المياه وبدأوا الهجوم، ورغم أن عدد أفراد جيس القندس كان كبيرا، إلا أن جيش الشيهم واجههم بأشواكه وأخذ يدفعهم للوراء. واستعاد جيش القندس راية الهجوم، إلا أنه اضطر – مرّة أخرى – إلى التراجع تاركا خلفه أسيرا كبيرا : الزعيم نفسه .

وعندما فقد جيش القندس «جنراله» لم يعد لدى أفراد الجيش أية زغبة فى القتال، فعادوا إلى منازلهم، وانتهت المعركة .

ولايتبقى لى سوى أن أحكى عما حدث للأسير الجليل.

لم يستطع جيش الشيهم أن يتوصل إلى قرار حول كيفية التصرف معه.

فقال زعيمهم : «لايجب أن نقتله، أيا كان الأمر، فإن هذا سيثير غضب «مانيتو الأعظم».

فاقترح عجوز حكيم «فلنرفعه عاليا فوق قمة شجرة!»

فوافق الجميع – فى صوت واحد– على الفكرة «نعم»! هذه فكرة جيدة» وكم كان الأمر مسليا جدا بالسبة لهم وهم يرفعون القندس

المقيد فوق قمة شجرة صنوبر عالية جدا. وهناك، فكوا قيوده وهم لايزالون يضحكون - ملء أشداقهم - ثم نزلوا من على الشجرة، وأخذوا يرقصون - فى دائرة - حولها.

كان القندس المعلق هناك يكاد يموت رعبا ، فكان يشعر بالدوار ، وأن ساعته الأخيرة قد حانت : سيسقط وسيتحطم على الأرض.

وحل المساء وهدأت الريح، وعندما شعرت عشيرة الشيهم بالملل من هذه اللعبة عادت إلى بيوتها. عندئذ، قال القندس لنفسه أن هذه هى اللحظة المواتية - ولايوجد سواها - فى محاولة الهرب.

«لايمكننى النزول من هنا ، سأتزحلق وأقتل نفسى، ولكننى أملك أسنانا حادة، فلماذا لا أستعملها؟ وأخذ - بلا تأخر - يقرض قمة الصنوبر.

لقد قرض كل رأس الشجرة، ثم هجم على جذعها، أخذ يقرض الجذع، ويقرضه، طوال الليل، وهو ينزل - درجة درجة - مع كل قرضة من أسنانه. وفى الفجر، لم يعد يتبقى سوى جزء صغير من جذع الشجرة، فاستطاع القفز منه دون أن يصاب بأذى ، ودون أن يلقى أية نظرة واحدة على عمله، تسلل يبحث عن مأوى فى أقرب مكان توجد به مياه، خاصة وأنه - بعد عمله الشاق طوال الليل - يكاد يموت عطشا.

هذا هو السبب الذى يجعل من القندس والشيهم أعداء لايمكن الإصلاح بينهما، فإذا رأيت - فى مغامرة لك - شجرة مقضومة من قمتها لأخمصها، فإن هذا سيعنى - بلا شك - أن الشيهم قد أسر قندسا وأن القندس قد قرض الشجرة ليستعيد حريته .

صديق مخلص

تتالت فصول شتاء عديدة على «الوادى الضائع». وكم من المرات راقب «واهو» أسراب الإوز البرية وهى ترحل نحو الجنوب ، حيث تزمجر الصواعق فى كعوب آلاف القطعان من الثيران الأمريكية .

لقد حمل الطقس الذى لايرحم كل شيء فوق جناحيه. لم يتبق سوى الظلمات التى أخذت تتمدد، صامتة، وكالحة، على اتساع البلد كله. هى فقط التي كانت تفهم العجوز الهندى، ومعها كان العجوز يتحدث ليلا، قبل أن ترتفع النجوم فوق المعسكر. وذات ليلة، بدت الظلمات فيها أطول مما سبق، جاءته برسالة من «مانيتو» العظيم .

همست له الظلمات قائلة : إن «الروح الأعظم» ينتظرك. استعد للسفر. هيىء نفسك، ودِّع الآخرين يا «واهو» ، ودِّعهم!».

فقال «واهو» وابتسامة حزينة ترتسم على شفتيه:«لمن أبعث بتحياتى ووداعى؟ لقد تفرق أولادى وبناتى منذ زمن بعيد، والناس هنا سيسعدون جدا عندما أرحل».

وقام العجوز ، فأخذ زورقه، وتوجه - بخطى بطيئة - نحو النهر.

كان الضباب الفضى يرتفع فوق المياه عندما دفع «واهو» بزورقه فى النهر. لم يكن هناك أى شيء يعوق هبوط الزورق مع مجرى

المياه نحو «أراضى الصيد الأبدية».

ورغم هذا، لو كان العجوز الهندى قد ألقى نظرة خلفه، لرأى ظلا يعدو على امتداد حافة النهر، وعيناه تمتلئان حزنا.

لكن «واهو» لم ير شيئا. لقد وثق فى التيار وخضع له فمنحه زورقه، وأخذ التيار يحمله بسرعة متزايدة، وينساب – بلا صدام – نحو «مساقط الرعد». وعلا صوت أنشودة موت «واهو» فى المكان، فوق زمجرة المياه، ورغم هذا، رمى الظل– الذى يتتبعه – بنفسه فى النهر، ويبدو أن دوامات الموج الهادرة قد حملته بعيدا .

وكان «واهو» يهبط أكثر فأكثر، والصوت الأصم يخنق أي صوت آخر، إلى أن وجد نفسه – فجأة– فى مياه هادئة بيضاء كاللبن .

ففكر قائلا: «إنه «النهر الأبيض» سرعان ما أصل نهاية الرحلة».

وكانت صخرتان تشكلان بوابة هائلة أمامه، فى أعماق خليج تتماوج فيه المياه فى حركتها الأبدية .

فترك العجوز زورقه ينقلب جانبا على الضفة البيضاء، ووضع قدمه على الأرض، وما أن ألقى نظرة سريعة حوله ، حتى انفتحت الصخرتان ، فمر منهما محاربان رائعان ، وزينة رأسيهما تبرق كالفضة.

قال المحارب الأول «نحن حارسا أراضى «الصيد الأبدية». لقد كنا ننتظرك» وأضاف الثانى: «ولكن ، لماذا أتيت وحدك».

فأجابه «واهو» : لم يعد لى رفيق منذ وقت طويل، وخاصة فى هذه الرحلة»

«فى هذه الحـالة، من الذى ينظر إليك – من النهـر – وعـينـاه تمتلئان حزنا؟».

فالتفت «واهو» فجأة، ليرى العينين الوفيتين بوفاء لم يشهد مثيلا له، وهما مثبتتان عليه.

فهمس متأثرابعمق : « ياه ! إنه كلبى! كلبى!» ، ونزل نحو النهر وأخذ صديقه الوفى ذا القوائم الأربع بين ذراعيه.

وقال بصوت عال: «لم أكن سأفكر فيه أبدا».

فقال له صوت «الروح الأعظم» قادما من بعيد:«ورغم هذا ، هو أكثر من أحبك».

وهكذا، دخل العجوز الهندى وصديقه الوحيد «أراضى الصيد الأبدية»، وسارا فى الطريق الذى لم يعد منه أحد.

المعركة الأولى

انتهى الغليون من حكى قصة الكلب الوفى، ولم يعد غليونه يطلق سوى خيط رفيع من الدخان. فسأله الصبى بسرعة سؤالا آخر، قبل أن ينطفىء :

– هل كانت الحيوانات والناس – دائما– متفاهمين هكذا فى بلد الهنود؟» .

فأجابه الغليون :«الواقع لا. عندما وهب «مانيتو» الأقواس والسهام للهنود، وعندما تعلم البشر إشعال النار، بدأت الحيوانات تكرههم . فقد طرد الصيادون الحيوانات خارج أراضى صيدهم، وتربصوا لهم فى كل مكان. وكانت سهامهم تحمل معها الموت السريع، وكما تعلم، تعرض الهنود للمرض، لكن الأعشاب ساعدتهم على الشفاء منه .

لقد ساد السلام طويلا بين الإنسان والحيوانات. ولكن، للأسف، اشتعل الشجار القديم بينهما ذات يوم: من يملك أراضى الصيد فى بلد الهنود: الحيوانات أم البشر؟ كان هذا هو السؤال الذى سأله الدب، والأيل، والزاغ (أحد فصائل الغراب)، و«الأبوسوم» الأمريكى، والذئب الأمريكى الصغير، لدرجة أن البشر شعروا بالخوف، فلجأوا

إلى «الصخرة المقدسة»، التى يمكنهم فيها أن يشيدوا تحصيناتهم .

كان الوقت قد أزف: فالحيوانات أكثر عددا من البشر، كان قطيع الثيران «بيسون» يكفى لتحطيم معسكر للهنود بأكمله دون أن يترك له أثرا.

وهكذا، هاهم جميعا يستعدون للمعركة، فأخذت العصافير تقرع طبول الحرب، فوق الأشجار، وأقامت القنادس سدودا لتحرم الهنود من الماء، وأخذت الذئاب تعوى بنداء الحرب بأقصى قوتها الحيوانية، فتجمد الدماء فى العروق.

لكن الهنود - رغم هذا لم يخضعوا لهذا التهديد. لقد جددوا حبال أقواسهم، وشحنوا أطراف سهامهم .

وانفجرت الحرب فجأة .

وغطت سحابة سوداء السماء، لا لم تكن سحابة، بل أسرابا لا تحصى من العصافير تحلق- بحركة منتظمة بأجنحتها - فى اتجاه «الصخرة المقدسة». وكانت حبال الأقواس تهتز من التوتر، والسهام تصفر، وأمكن سماع صرخات العصافير المصابة فى كل مكان ، وأخذ ثلج الريش يتساقط.

واجتمعت الطيور فى تشكيلات قتالية، ولكنها - وبعد أن رسمت دوائر أعلى من متناول الأسهم، كرت عائدة من حيث أتت .

ولكن، ها هو هجوم آخر! لقد تغطى المرعى كله - وكأن سجادة متحركة قد افترشته - بالثيران الأمريكية، والدببة، الأيائل ، والذئاب، والأرانب البرية، والثعالب، وتبعتهم التماسيح، والثعابين السامة.

عندئذ، أشعل الهنود نارا كبيرة أخرجت دخانا كثيفا وخانقا. وجاءت الريح لتساعدهم، فحملت الدخان فى اتجاه المهاجمين الذين اختنقت صيحاتهم . فوضع الهنود الخشب الرطب فى النار عندئذ، لم يتحرك أي شيء فى المراعى بعد ذلك. كانت الحيوانات تسعل وتعطس، وامتلأت عيونها بالدموع. وأخيرا، أعلنت هزيمتها. لقد انتصر الإنسان.

هكذا انتهت المعركة الأولى. لكن النصر لم يذهب بعقول الهنود الحمر. أما الحيوانات - من ناحيتها - فقد وعدت بتزويد الإنسان باللحوم والفراء، لكن الرجال أقسموا - من ناحيتهم - ألا يقتلوا أي حيوان إلا لضرورة مطلقة».

سكت الغليون عن الكلام. والصبى ينظر إليه ويأمل أن يستمع لباقى الحديث. كان يمكن له أن يستمع إليه طوال الليل. ولكن الغليون السحرى كان قد انطفأ، ولم يعد يصدر أى صوت .

فقال الصبى الصغير فى سره «سأرتب الغليون الهندى وعلى أية حال، الوقت متأخر. سنواصل حكايتنا غدا».

عندئذ، رتب الغليون بعناية فى علبة أشيائه الثمينة، ووضع بعض الأخشاب الجافة فى النار.

أخذت الريح تضرب النافذة دون أن تتمكن من إسكات النار ، التى كانت تغنى عن الطرق التى امحت آثارها منذ أمد بعيد، وعن أسراب الإوز - ذات الرقبة الطويلة - وهى تطير نحو الجنوب - وعن القوارب الجسورة، التى تتحدى القطارات الوحشية، وعن كل ماضى البلد الهندى المجيد .

الليلة الثالثة

كان الصبى نافد الصدر يتحرق شوقا لسماع الحكايات، وطوال اليوم كان يعمل الفكر وهو يتساءل أية حكايات سيحكيها له الغليون الهندى هذه الليلة. وما أن بدأت الزهور تغطى تويجاتها أمام ظلمات الغروب، حتى أخرج الغليون بعناية من علبته، ووضعه فوق المائدة.

لكن الغليون ظل صامتا، بدا أنه ينتظر أن تبدد أول أضواء النار الظلمات ولم يتحرك - بشكل لايكاد يرى - إلا عندما ارتفعت شعلات النار. عندئذ، بدأت كلماته الأولى تخرج من محرقته تصاحبها رائحة خفيفة وعذبة.

«كان هنود الغابات - فى بلد «الثلج الأبدى» وهم يتحلقون حول نارهم العالية - مثلهم مثل هنود الجنوب أو هنود المراعى - يتسامرون سويا ويحكون أساطيرهم القديمة التى احتفظت بها فى ذاكرتى، حتى يمكننى - بدورى - أن أقصها عليك على ضوء النار المشتعلة فى بيتك».

فسأله الصبى، غير قادر على مقاومة فضوله السؤال الذى أقلق مضجعه طوال اليوم : «وماالذى ستحكيه لى هذا المساء».

فأجابه الغليون بروح طيبة:«لقد فكرت أنك ستسألنى هذا السؤال، وأعرف ما تفكر فيه: فى المحاربين المشهورين الذين كانت سهامهم تصيب أهدافهم، وفأس حربهم «التوماهاوك» تنشر الرعب فى صفوف الأعداء. ولكن، كما ترى، لم يكثر الهنود الحديث عن أعمالهم العظيمة. إنهم ذوو «الوجوه الشاحبة» الذين يحكون عن مآثرهم فى كتبهم».

– عندئذ : ما الذى يفعله الأبطال الحقيقيون؟».

«أولا، يساعدون الناس ليعيشوا بشكل أفضل ، ولايذهب بك الاعتقاد إلى أن المسألة كانت بهذه السهولة ! فكثيرا ما جرت لهم مغامرات لايمكن للمحاربين الأكثر شهرة أن يحلموا بها. وأحيانا – أيضا – كان عليهم أن يستخدموا حذقهم وحسن تصرفهم ليصلوا إلى أهدافهم».

«مثل الثعلب الذى سخر من الذئب الأمريكى الصغير»؟

– «على سبيل المثال. والآن، حاول أن تتخيل جيشا كاملا من الأرواح الشريرة».

– «سحرة ، وشياطين، ومردة؟».

– «نعم. كل هؤلاء كانوا موجودين طبعا، لكن هناك – أيضا– أرواح شريرة تعيش بين الهنود أنفسهم. وهم الأعداء الأكثر إزعاجا. ولكن ، كفى شرحا، ولنستأنف ما بدأناه من حكاياتنا».

« شينجيبى » وريح الشمال

فى الوقت الذى كان العالم فيه لايزال فتيا، عاش الناس على صيد الأسماك فقط. كانوا يندفعون - صيفا - فى قواربهم بعيدا جدا نحو الشمال، حيث تفيض البحيرات والأنهار بالأسماك. ولكن، قبل أن يعود الشتاء ليمكث - من جديد - لأشهر طويلة ، كانوا يعودون دائما لبيوتهم فى الجنوب، وكل ما يأملونه - أساسا - هو ألا يقابلوا «كابيبو نوكا» ريح الشمال.

كانت «كابيبو نوكا» تحكم بلاد الثلوج، التى لاينمو العشب فيها أبدا، بل ولا حتى وردة صغيرة لتضيف شيئا من البهجة على المساحات البيضاء. ورغم هذا، لم يخش الهنود «كابيبو نوكا» فهى لاتحكم العالم كله. فريح الجنوب، «شاوندازى» - على أية حال - أقوى منها، وفى مملكتها، كان الصيف دائما.

وعندما يحل الربيع، تقوم «شاوندازى» - بانتظام- برحلة طويلة إلى الشمال، لتأتى لمساعدة الهنود، وتحت تأثير تنفسها، تذوب ثلوج الأنهار والبحيرات، فيصبح الممر حرا أمام الزوارق. عندئذ، كان على ريح الجنوب أن تعمل أشياء كثيرة. تبذر الورد المتعدد الألوان أولا، وتجعل الثمار تنضج بعد ذلك، وأخيرا، تغطى الأشجار بالفواكه

وعندما تشعر بالضجر من كل هذا العمل، تنسحب «شاوندازى» فى مغارتها الهائلة بالكهف، وفيها تحشو غليونها، وتكدسه بالتبغ،

وتبدأ فى التدخين لتمضية الوقت، كانت تلفظ الدخان بملء نفسها فى دفقات وسحب هائلة، لدرجة أن البلد كله يصبح مكسوا بالدخان وكأنه غلالة. إن صيف القديس «مارتان» - الذى لا زالوا يدعونه الصيف الهندى، هو أجمل فصل فى العام، لكنه - بالنسبة للصيادين الذين مكثوا طويلا فى «الشمال الكبير»- كان هذا «البلد المليء بالدخان» - كما يقولون - مؤشرا على العودة إلى بيت الأسرة. لقد أوشكت «شاوندازى » على النوم ، لذا عليهم العودة إلى بيوتهم قبل مجيء «كابيبونوكا».

وها هى ريح الشمال فى طريقها نحوهم . إنهم يسمعونها تقترب مع صفيرها فينادى الصيادون بعضهم بعضا ويقولون :«كابيبونوكا»! إنه وقت الرحيل». عندئذ، يطوون شباكهم، ويرتبون خطاطيفهم فى أعماق مراكبهم ثم يستعدون لرحلة طويلة عبر البحيرات والأنهار .

وحده «شينجيبى» - فقط- احتفظ بهدوئه، أخذ يتساءل لماذا يضطرب الناس بهذاالقدر؟ كان صبيا لاعيب فيه، بشوش الطبع. ولم يره أحد معكر المزاج. حتى المشاجرة العنيفة كانت - بالنسبة له - موضوعا للضحك من أعماق قلبه؛ إذ أنه ليس بخاسر سيء الطباع؛ وروح الدعابة تلازمه دائما فى كل الظروف، وهو، فوق هذا، قوى جدا، وبارع فى الحركات السحرية. كان يفاجيء أصدقاءه ويسليهم فينتهي كل شيء بضحك هائل، حتى لو بدأت المسألة - أحيانا - بشكل سيء. فعلى سبيل المثال ، حول «شينجيبى» جذور إحدى الشجرات إلى عقدة من الثعابين، وأخذ يضحك- ملء شدقيه -وهو يرى أصدقاءه - المرعوبين - يهربون وهم يطلقون الصرخات. ومرة أخرى، سحر سنانيرهم، ثم ادعى الدهشة وهو يرى سنانيرهم

لاتلتقط شيئا .

ورغم معرفة أصدقائه به، فإنه عندما أبلغهم قراره بالبقاء في «الشمال الكبير»، لم يعودوا يفهمونه أبدا. فشرح لهم - بهدوء - أنه سيواصل الصيد، بينما يعودون إلى منازلهم. وأنهم سيجدونه - في الربيع - عندما يعودون. كان أصدقاؤه يعرفون أن «شينجيبي» يملك في جعبته أكثر من حيلة، فبإمكانه أن يتحول - عند الضرورة - إلى بطة أو إلى حيوان آخر، لكنهم - رغم هذا - رأوا أنه لن يكسب شيئا بالقتال المفتوح ضد ريح الشمال فأخذوا يحذرونه :

«إن كابيبونوكا» أقوى منك مائة مرة، ويمكنها أن تهشم أقوى شجرة في الغابة، وستقتلك حتى لو حولت نفسك لدب أو لسمكة».

فأجابهم «شينجيبي» مبتسما : «لاتشغلوا بالكم بي. في الصباح سيحميني الفراء الذي أرتديه من البرد، وفي الليل، سأشعل نارا كبيرة في خيمتي، ويمكن لكابيبو نوكا أن تحاول التسلل إليها .

وحينما أخذ الآخرون ينقلون غنيمتهم في الزوارق، كان «شينجيبي» يواصل الصيد، كانت قلوب أصدقائه تنفطر حزنا وهم يغادرونه. فقد اعتقدوا أنهم لن يروه أبدا بعد ذلك على قيد الحياة عندما يعودون في الصيف القادم .

لكنه رفض سماع التماساتهم. فاندفعت مراكبهم بسرعة نحو الجنوب، وتابعهم «شينجيبي» بعينيه إلى أن اختفوا في الأفق.

وما أن أصبح وحيدا، حتى شرع في العمل. ملأ خيمته بالحطب، وجفف لحاء الأشجار والأفرع، وكان يحلم كل ليلة. والنار ترسم ظلالا راقصة على الحوائط - بمنزله ؛ فيغني ليؤنس وحدته. وكل صباح ، كان يذهب للبحيرة، ويصيد من ثقب يصنعه في الثلج،

فيعود بصيد هائل.

وفى ذلك الوقت وصلت «كابيبو نوكا» فطردت الحيوانات إلى مأواها، وبعثرت بإبرها الثلجية، وأظهرت مهارتها مع صديقها الصقيع، فأخذت الأشجار تطقطق وتتأوه ألما. وعندما وصلت إلى البحيرة، كم كانت دهشتها عندما رأت «شينجيبى» عائدا إلى بيته، غير متوتر، وحاملا صيده اليومى.

صرخت ريح الشمال: «هوو، هووْ! من أراه هنا؟ من هذا الوقح الذى يجرؤ على المكوث هنا فى حين أن البط والإوز البرى قد رحلوا منذ أمد بعيد؟ هذه الليلة، سأشعل النار فى بيت هذا الوقح، هوو. هووو!».

وجاء الليل، كان «شينجيبى» جالسا القرفصاء بجوار ناره، يضع فيها الخشب، ويتأمل – بشهية مفتوحة – السمك الذى أعده للعشاء ، بلونه الجميل فى إنائه الخزفى .

أخذ يفكر ويسترجع أقوال أصدقائه « لقد حذرنى أصدقائى من أن «كابيبونوكا» روح شريرة. يبدو أنها أقوى من أي هندى، وربما تكون أقوى منى. لن أستطيع أن أتحمل بردها، ولكن الشىء الأكيد هو أنها لن تتمكن من احتمال هذه الحرارة»!.

وأخذ «شينجيبى» يأكل بهدوء دون أن يولى الضجة السائدة بالخارج أية اهتمام. وبدأت «كابيبونوكا» هجومها ضد الخيمة . فسقطت آلاف وآلاف من ندف الثلج من السماء، ولكن دون أن تصل إلى الأرض، فقد التقطها الهواء – أثناء طيرانها – وألقى بها فى مأوى «شينجيبى» وسرعان ما أصبح كوخه كله أبيض. لكن اتضح أن هذا الغطاء حماية رائعة ضد الريح والبرد.

كان الغطاء الثلجي مثل فروة دب قطبي .

أدركت «كابيبو نوكا» أنها مخطئة . وجعلها هذا الأمر في حالة غيظ لايمكن وصفها، عندئذ ، تقدمت حتى عتبة الكوخ، وأخذت تنفث فيه بكل قواها. لكن «شينجيبي» اكتفى بالضحك .

- «أية لعبة تلعبينها يا «كابيبو نوكا» حذار ، إن خداك على وشك الانفجار»!.

وأخذت الريح تهز الكوخ تحت ضرباتها، وتمزقت الستارة الجلدية - التي كانت تحمي مدخل الكوخ - محدثة صوتا رهيبا؛ فطارت. أخيرا أصبح بإمكان «كابيبو نوكا» أن تدخل ! كم كان نفسها باردا! وبسرعة، تغطت حوائط الكوخ بطبقة خفيفة من الجليد

فادعى «شينجيبي» أنه لم يلاحظ شيئا ، واستمر في الغناء، وأخذ يضع الخشب - بهدوء - في النار التي أشعلها. كان خشب صنوبر، فارتفعت النيران عاليا جدا وبقوة ، لدرجة أن «شينجيبي» اضطر للتراجع قليلا، فألقى - عندئذ- بنظرة على «كابيبونوكا» ، وانفجر ضاحكا وهو يرى قطع الثلج الصغيرة، ونتف الجليد والثلوج فوق شعر «كابيبو نوكا» وهي تتحول إلى قطرات عرق ، فقد أخذت «كابيبو نوكا» تذوب بهدوء .

فقال «لها «شينجيبي» : «ها أنت ترتعشين كلك ! تعالي، اجلسي بالقرب من النار لتشعري بالدفء».

لكن «كابيبو نوكا» تخشى النار أكثر من خشيتها لأي شيء آخر فقفزت وخرجت من الكوخ كالسهم، بسرعة أكبر من السرعة التي دخلت بها الكوخ .

وعندما خرجت فى الهواء الطلق شعرت بنفسها أفضل حالا، فاستشاطت غضبا مضاعفا، ولأنها لم تتمكن من هزيمة «شيجنيبى» حولت غضبها نحو كل ما يقابلها، فحطمت الأشجار ، وهاجمت مخابىء الحيوانات، لكنها عادت - أيضا - لمهمتها الأولى ، ضد من اعتقدت أنه عدوها . وأخذت تستنفر «شينجيبى» على عتبة منزله :

«اخرج إذن من هنا ! تعال وواجهنى إذا كنت شجاعا ! لنتعارك هنا، خارج خيمتك فى الجليد، وسأريك من هو السيد هنا فى «بلاد الثلوج»!».

فقال «شينجيبى» وهو يحسب الأمر بحكمة : لقد أضعفت الحرارة «كابيبو نوكا» وأنا جسدى دافىء حقا. ويمكننى - إذن - مواجهتها. إنها اللحظة الملائمة، وما أن ترى أننى أقوى منها، ستتركنى وحالى، وسأمكث هنا أي وقت أشاء».

فاندفع خارج منزله، وأمسك بخناق «كابيبو نوكا». كانت معركة هائلة . فقد كانا يتدحرجان - سويا- على الجليد، ويقفان ليسقطا ثانية. أخذا يتعاركان طوال الليل. ولم يشعر «شينجيبى» لا بالبرد ولا بالتعب فحركاته تدفئه؛ والدم يجري بسرعة أكبر فى عروقه، أما عدوه - فعلى النقيض- أخذت تضعف تدريجيا، كان نفسها الثلجى يرق، وانهزمت الريح فى المعركة، فساد الهدوء الكامل على المكان .

وعندما أشرق الفجر، لم تعد «كابيبو نوكا» تشك فى هزيمتها الكاملة، فصرخت غاضبة، وأطلقت ساقيها للريح راحلة إلى مكان آخر، لقد ذهبت بعيدا، بعيدا جدا نحو الشمال، فى نقطة الشمال القطبى الأقصى، وظل «شينجيبي» على عتبة بيته، يدندن بأغنية مرحة بين شفتيه، سعيدا بأن شجاعته وتفاؤله قد انتصرا على «كابيبو نوكا» ريح الشمال الرهيبة .

«هيا واتا» الحكيم

لا أحد يذكر الفترة التى حكم فيها «هياواتا» قبيلة «إيروكوا» الكبيرة، لكنهم لا زالوا يحكون أسطورته - رغم هذا - عندما يشعلون نيران المعسكرات فى ليالى الشتاء الطويلة .

وها هى الأسطورة :

«كانت هناك بحيرة فى قلب غابة كبيرة . ولازال بإمكانى - حتى الآن - أن أرى ما جرى فى ذلك اليوم - كأنه جرى اليوم: أرى قوارب الهنود المحملة باللحم والفراء وهى تشق سطح البحيرة الفضى.

فى ذلك الحين، كانت بحيرة «تيوتو» مثل سوق كبير، والهنود يذهبون إليها ليقايضوا بالماشية، والأعشاب ، والفواكه، والأسلحة ، والأغطية، وأشياء أخرى. وكما فى كل أسواق العالم، كان السوق، يزدحم بالبضائع والمساومات!

وفى يوم اكتظ السوق فيه، وكان فى أوج نشاطه، سقط قارب أبيض كالثلج - من السماء- وسط القوارب الأخرى بالضبط، فتوقفت الجلبة والصرخات وكأنها تسمرت . انتصب هندى غريب فى القارب الأبيض؛ وأخذ يتفحص وجوه المحيطين به. ثم سألهم وقد احمر وجهه غضبا:

- «لماذا تتشاجرون هكذا؟»

ومثل زمجرة الريح فوق قمم الأشجار، استأنفت الأصوات مساوماتها فى صوت واحد :

- «لا أريد أن أبادل ملحى مقابل جلد القندس»

- «هذه الأغطية بها كثير من الثقوب».

- «لا أستطيع أن أعطيه السهام الجيدة، ليس لدى ما يكفى استعمالى الشخصى».

فرفع الغريب يديه ليفرض الصمت :

- «كفوا عن الشجار مثل السيدات العجائز وانصتوا لى، لقد أتيت لمساعدتكم».

فلم ينطق أحد بكلمة. كانت العيون كلها مثبتة على الغريب الذى واصل حديثه قائلا :

«عودوا نحو الشاطىء وادفعوا قواربكم عليه»

أطاعه الهنود على الفور، وألقوا بقواربهم على رمال الشاطىء وفعل الغريب مثلهم بقاربه. عندئذ ، رفع الغريب ذراعيه نحو السماء.

ومع حركته اختفت الشمس خلف سحابة قاتمة، وأتت آلاف من البط لتنطرح على البحيرة وتشرب منها، وعندما روت عطشها، طارت من جديد وحل محلها بط آخر كثير مثلها، وتتابعت أسراب البط بلا انقطاع، وسرعان ما جفت البحيرة، واختفت الطيور. وقال الغريب للهنود :

«اسمى «هياواتا». إننى آتى لكم بالنقود .يمكنكم أن تبادلوها

مقابل فرائكم، وأسلحتكم ، ولحومكم، إلخ... انظروا»، وأشار إلى قاع البحيرة، حيث كانت تتلألأ آلاف القواقع اللامعة.

- «بهذه القواقع تستطيعون دفع ثمن كل ما تحتاجون إليه. لكن عليكم - قبل هذا - أن تصقلوها لتأخذ شكلا دائريا، ثم تربطوها كما تربطون اللآلىء، وستطلقون عليها اسم «وامبوم.»

كان هذا هو عمل «هياواثا» الأول، ما أن وصل إلى البلد الهندى. لقد أتى من المناطق الواقعة فوق السحاب. ولأنه أحس بالارتياح مع الهنود، قرر البقاء بينهم؛ فبنى لنفسه كوخا فوق ربوة مجاورة.

وجرت الأيام ، والأشهر، والأعوام . والآن، أصبح الممر الذى يكاد يرى والذى كان «هياواثا» - فقط- يسير فيه ، ممرا تطأه عديد من أحذية «الموكاسان» فأصبحت أرض الممر مطروقة وناعمة وصلبة؛ إذ أن حكمة «هياواثا» قد ذاع صيتها فى كل مكان بالكرة الأرضية، كان كل من يحتاج لنصيحة منه يذهب إليه ليستشيره.

ورغم هذا ، جاء الوقت الذى لعبت فيه بصيرة الغريب دورا رئيسيا فى حياة البلد، فقد أخذت حشود العدو الغاشم - القادم من الشمال - تتدفق على منطقة البحيرة، والعدو ينهب ويحرق كل ما يجده فى طريقه، ويقتل الناس العزل، وأمام هذا الهجوم ، هربت قبائل بأكملها وقد امتلأت رعبا.

وأتت مجموعات الهنود - الواقعين فى ضيق شديد- فى مراكب أو سيرا على الأقدام، لتأوى إلى بيت «هياواثا» فاتخذوا مكانا لهم على العشب، وتحت الأشجار، أو تحت ظل صخرة.

فتقدم «هياواتا» فى رداء أبيض طويل، وتوسطهم وهو يقول لهم :

- « لقد أجبركم العدو على الهرب من أمامه لأن الاتحاد ينقصكم. ستظلون عاجزين عن مقاومته إلا إذا وحدتم قواكم، عندئذ، سيسود السلام الكبير البلد الهندى كله. انظروا ».

ورسم بذراعه دائرة عظيمة الاتساع فى السماء «أنتم كثيرون جدا» وتتحدثون كلكم لغة واحدة، ولكن الثقة لاتسود بينكم. ولم تجتمعوا حول كوخى إلا لأن الموت يحوم عليكم، ورغم هذا، لم يضع الوقت. إذا اتبعتم نصيحتى، فستصبحون أقوياء ، أقوى مما كنتم عليه بكثير».

فقال عجوز بينهم:« يسعدنا أن نطيعك» كان عجوزا أشيب، وقد وقف ليحدث «هياواتا». وأضاف: «تحدث، إننا ننصت إليك!».

- «حسنا! اسمعوا ما أريد أن أقوله، أنتم أيها «الموها واك» يامن تجلسون تحت ظل هذه الشجرة الضخمة التى تتعلق جذورها - فى صلابة - بالأرض، والتى تمد فروعها - باتساع- فوق رؤوسكم ، ستكونون الأمة الأولى، فأنتم محاربون بواسل».

وتوقف «هياواتا» لحظة، ثم توجه، ببصره نحو مجموعة أخرى، جالسة أيضا تحت شجرة، قال:

«وأنتم أيها «الأونييداس»، إنكم تمتلئون حكمة ، ولهذا ، ستكونون الأمة الثانية .

وإننى أعرف جيدا فصاحة «الأنوداجاس» الذين يعيشون فى الجبال العالية. ولهذا السبب، ستكونون الأمة الثالثة».

ثم ثبت بصره على هنود تشير ثيابهم – وأسلحتهم – إلى أنهم صيادون – «إننى أهنىء نفسى لمجيئكم بهذا العدد الكبير، رغم أن بيوتكم مبعثرة فى الغابة الضخمة . ستلتحقون بنا باعتباركم الأمة الرابعة، إنكم أيها «السينيكاس» صيادون مهرة، ولايجب أن تكونوا فى الخلفية». وأخيرا، التفت «هياواتا» نحو آخر مجموعة حاضرة وقال لها :

–«إننا نعرفكم باسم «كايوجاس». ولأن الطبيعة أودعتكم – أنتم فقط– سر المحاصيل الوفيرة ، فإن «أوانييو» – «الروح الأعظم» نفسه– لايشك فى أنكم ستصبحون الأمة الخامسة .

أنهى «هياواتا» خطابه، ثم ألقى باتسامة أبوية أخيرة على الهنود المجتمعين ، وبحركة منه، ظهر مركبه الأبيض، فانطلق به نحو خط الأفق وصعد إلى السماء، مرتفعا بين الأعالى المقدسة، حيث اختفى – للأبد – عن عيون البشر.

هاهى أسطورة «هياواتا» وهى تقول لنا إن «الإيروكوا» الشعب ذا الأمم الخمس – قد دافع عن نفسه – دائما – ضد أعدائه بنجاح .

مغامرات «مانابوش»

حتى الهنود أنفسهم لم يستطيعوا - أبدا- أن يحسموا إذا كان «مانابوش» روحا طيبة أم إنسانا عاديا، لكنهم وثقوا - رغم هذا- من شيء واحد : ألا وهو أن «مانابوش» ساعدهم بكل الطرق الممكنة والمتخيلة. ولهذا ، فهناك أساطير كثيرة تدور حوله.

يحكون أنه ولد في زمن بعيدا جدا، بعيد لدرجة أن أكبر أفراد ذوى «البشرة الحمراء» سنا لايذكر يوم ميلاده، وقد ماتت والدته وهو لايزال طفلا، كانت امرأة هندية ساحرة . أما جدته «نوكوميس»، فقد كانت ساحرة قديرة ، بإمكانها أن تعيش- بشكل ملائم تماما - على الأرض وفى السماء. وهى التي نقلت لمانابوش سر قدرتها السحرية.

فى هذا اليوم البعيد، الذى رأى فيه «مانابوش» - لأول مرة» -ضوء البلد الهندى، ولد معه - فى نفس الوقت - إخوته الثلاثة : «شيبيابو»، و«واباسو» و«شوكانيبوك».

وتقول الأسطورة، أن «واباسو» - عندما ولد، لم يستطع أن يتحمل ضوء النهار، فهرب نحو الشمال، نحو «بلد الثلوج»، حيث أصبح سيد الظلمات ، وهو لايزال يعيش فيها حاليا.

وكان «مانابوش» يفضل «شيبيابو» من بين إخوته الثلاثة. كان

صبيا مرحا خالى البال، وظريفا جدا، ويفهم لغة الحيوانات ، ويلعب بالناى السحرى، فيخلب لب الجميع.

ولسوء الحظ، لم يشأ القدر أن ينعم «مانابوش» طويلا بموسيقى وغناء «شيبيابو». ففى يوم من الأيام، وبينما «شيبيابو» يتزلج على السطح الثلجى للبحيرة الكبيرة عائدا إلى منزله، كسر «روح المياه» الشرير الجليد تحت قدميه، وجذبه لمملكته الأبدية.

خاض «مانا بوش» معركة هائلة ضده ليستعيد أخاه، لكنه لم يره أبدا بعد ذلك، لقد ظل الرفيق المرح فى بلاد الظلمات، فى مملكة الموت.

وبقدر طيبة «شيبيابو» وطبيعته المرحة، كان «شوكا نيبوك» فظا وشريرا، حتى وهو صبى صغير، كان يقتل ويعذب كل الحيوانات التى يقابلها فى طريقه. وفيما بعد ، عندما أخذ «مانابوش» يجوب البلاد ليساعد الهنود ، كان أخوه يتصرف عكسه تماما. فعلى سبيل المثال، أرسل «مانابوش» قطعان ماشية للهنود الحمر. أما «شوكانيبوك» ، فقد أتى بالغيلان لقتلها. ومنح مانابوش» الناس حقولا خصبة، فلم يُضع «شوكا نيبوك» وقتا ، فحفر حفرا عميقة، جعل بها شواطىء صخرية وعرة.

أخذ حقد «شوكا نيبوك» نحو أخيه والهنود يتصاعد باستمرار. وقد أصبح قلبه كالصخرة، وتحلى «مانابوش» بالصبر نحو أخيه. ولكن ، عندما أدرك أن أخاه لايمكن إصلاحه، طارده فى اتجاه جبال الغرب. وهناك، وبعد معركة رهيبة هزت البلد كله، استطاع أخيرا أن

يهزمه .

وإثر هذه المعركة ، أصبح «مانابوش» وحيدا فى هذا العالم ، هو وجدته «نوكوميس».

وقالت له جدته ذات يوم : «مافعلته لايكفى للقيام بأعمال طيبة تجاه البشر. عليك أن تسافر عبر الأراضى لتحصل على الخبرة. عندئذ، تستطيع أن تعطى الناس نصائح حكيمة».

نفذ «مانابوش» ماقالته له جدته، فذهب من معسكر إلى معسكر وتعلم - بصبر - كل مايعرفه الهنود. وعندما كان الهنود يأتون إليه ليستشيروه، يدلى لهم بنصيحته. لقد تعارك مع البومة «توتوبا» وانتصر عليها، لأنها أرادت أن تحرم الناس من الضوء. وعلم الصيادين كيف يسنون أطراف سهامهم، وأعطى زوجات الهنود القدور المعدنية لتطهى فيها الحساء.

تمتع «مانابوش» بذكاء شديد، ولكن لأنه كان يبدأ فى التعلم كيف يعيش، حدثت له حوادث كثيرة، ودفع ثمن خبرته غاليا.

فذات يوم، توقف تحت شجرة ضخمة ، فانحنى على حافة النهر، وأخذ يتأمل المياه. فاعتقد أنه يرى فيها كرزا جميلا وناضجا، فانحنى ليلتقطه. كان الكرز بعيدا عن متناول يده، فانحنى أكثر قليلا، بل وانحنى أكثر من اللازم، «بلوف»، تزحلقت قدمه وسقط: فتفضت المياه حوله، وتلاشى الكرز.

عندئذ فقط اكتشفت «مانابوش» أن شجرة الكرز على الشاطىء وأن ما رآه - فى المياه الهادئة الشفافة، لم يكن سوى انعكاس

للأفرع المحملة بهذه الفاكهة الشهية.

فصرخ «ياه، الأمر هكذا إذن» ثم صعد إلى الشاطىء وتسلق - بأسرع ما يمكن - الشجرة ليقطف الكرز المشتهى، فسمع صوتا ساخرا: لقد بللت نفسك تماما، أليس كذلك؟ أحسنت، كروا! كروا!» أراد «مانابوش» أن يمسك بالفزّاع الوقح، لكن الطائر خبط خبطته، وانسحب طائرا، وحتى بعد أن اختفى فى الهواء لفترة طويلة ، ظل صدى نعيقه مسموعا .

ظل «مانابوش» جالسا على فرع الشجرة. لم يعد يرغب فى الكرز، إذ تشتت فكره، ليس لأن الطائر رآه، ولكن لأن هذا الأخير ما عليه إلا أن يفرد جناحيه فيطير.

قال لنفسه «وأنا أيضا أريد أن أحاول. وإذا فشلت، سأهبط فوق تلك المساحة الخضراء تحتى»، فحاول الطيران، ولم تحدث معجزة، وسقط «مانابوش» من أعلى الفرع مثل ابن عرس. لكن هذا السطح الهادىء لم يكن سوى فخ . كان سطحا ناعما جدا، لكنه كان متعفنا تماما بالداخل، فانغرس «مانابوش» بقدميه وبعمق.

«كيف الخروج من هنا؟ لن أخرج من هناوحدى» .

وماحدث - بالضبط- أنه سمع وقع خطوات تقترب. أخذت امرأتان عجوزان تقتربان منه؛ وإحداهما تقول:

- «أنابحاجة لأشواك الشيهم لأزخرف أحذيتى الموكاسان».

سمع «مانابوش» كلامها، فأخذ يغط مثل شيهم حقيقى. فاقتربت السيدتان وانحنيتا - بفضول - فوق الحفرة، فلم تستطعا رؤية أي

شيء. لكن صوتا عميقا - كأنه آت من الأعماق - قال لهما :

« هل تريدان بعضا من شوكي؟».

فهزت السيدتان أكتافهما دون أن تنبسا بكلمة وهما مبهورتان . فاستمر الصوت :

- «إذا أردتما شوكي، فاحفرا القاع، ثم غطيا حفرتي بأغطيتكما لتحمياني من الريح، ومن ناحيتي، سأعطيكما بعض الأشواك .

فلم تصدق العجوزان أذنيهما إلا بالكاد. ياله من شيهم غريب ، ذلك الذي يطلب منهما تدمير بيته .

ورغم هذا، نفذتا المهمة: فحفرتا القاعدة تماما، غطيتا الحفرة بخمارهما. فأمرهما الشيهم الغامض :«والآن ابتعدا، لا أريد أن ترياني» فأطاعت المرأتان هذا الأمر كذلك. وما أن ابتعدت العجوزان، حتى زحف «مانابوش» من سجنه، وهرب مثل أرنب بري، في الاتجاه المعاكس.

ولم يتوقف إلا عندما اختبأ في دغل كثيف، حيث انفجر ضاحكا، وهو يفكر في الطريقة التي خدع بها الهنديتين .

لكنه لم يضحك طويلا فقد ظهرت جدته «نوكوميس» - فجأة - أمامه ووبخته بعنف :

« أردت أن تكون صديق الناس وأن تساعدهم ، فلماذاتسخر منهم؟ عليك أن تكفر عن خطئك».

فأجاب «مانابوش»: «هذا حقيقي». فقد شعر - الآن - بالخجل من خبثه.

وقال لها : «قولى لى ما الذى علىّ أن أفعله؟».

– «احضر لى قطعا مستطيلة من لحاء شجر البتولا».

فأسرع «مانابوش» نحو الجذوع الفضية، التي كان يراها تلمع فى الضوء الخافت، فى الأجزاء السفلية من الغابة. وسرعان ماعاد وذراعاه محملتان بلحاء الأشجار، فوضع حِمله تحت قدمى جدته، فأخذت بضعة سيور خشبية ، وأخذت تضفرها بعناية، لتصنع منها سلة، ثم ثبتتها بشوكة من شوكات الشيهم. وهكذا، جدلت عدة سلال صغيرة، وبعد ذلك، أخذت سلة، واتجهت نحو قيقب، فهمست ببعض الكلمات ووضعت الوعاء بجواء الشجرة، ويالها من معجزة! أخذ عصير كثيف يسيل فى الوعاء .

فقالت «نوكوميس» : «تذوق هذا الشراب» فغمس «مانابوش» إصبعه فى العصير ولحسه. لم يسبق له أبدا أن تذوق عصيرا فى عذوبته.

فأوضحت له الجدة الأمر: «إنه سكر القيقب . اذهب وقل للناس ان الوقت قد حان ليحضروا أوانيهم ويجمعوا القيقب».

لكن الشاب هز رأسه علامة على الرفض، وقال لها : «إن عصيرك كثيف جدا ومغر جدا، فإذا استهلكه الهنود وهو بهذا الشكل، فسرعان ما سيصبحون ممتلئين وكسالى. لايجب لذوى البشرةالحمراء أن يعيشوا على الإحسان»، وعندئذ، تسلق قمة الشجرة، وأخذ يهز أفرعها بعنف.

فسألته «نوكوميس» ماذا تفعل هناك؟

«إنني أجعل مياه مطر أوراق الشجر تهبط إلى جذعها. وهكذا سيصبح العصير أقل ثراء. عندئذ، سيضطر الهنود إلى غليه ليحصلوا على السكر، وإن يصبحوا كسالى».

فوافقته «نوكوميس» قائلة : «هذا تصرف حكيم ، والآن، اذهب يا «مانابوش» وعلّم الناس كل هذا».

فذهب «مانابوش» ليتنقل من معسكر لآخر، وفي كل مكان نمت فيه شجرة «قيقب» كانت النساء يجدلن الأواني مسترشدات بنصائحه، وبعد أن يجمعن الشراب السكرى، يشعلن النيران ليغلى ويصبح أكثر كثافة . كان عصير «القيقب» الطيب يملأ الغابة، عطر رائع لم يعرف الهنود مثله من قبل، لكن المفاجأة الكبرى كانت عندما رأوا كيف يتحول الشراب إلى سكر. فلا أحد يشبع أبدا من هذه الحلوى، خاصة الأطفال.

أخذ «مانابوش» يبتسم سعيدابهديته عند زيارته للهنود.

وفي يوم من الأيام، دخل - بالمصادفة - كوخا صغيرا ،فرأى رضيعا ينام فوق فراء مرمى على الأرض. كان الطفل غير مبال بدخول «مانابوش» ويمص عودا من سكر «القيقب».

لم يكن «مانابوش» يعرف هذا الصغير، لكنه شعر بانجذاب نحوه، فأخذ يحادثه، لكن «وازيس» - وهذا اسمه- لم يعره أي اهتمام. فأخذ «مانابوش» يغني ويرقص أمامه، دون أى نجاح. فانزعج «مانابوش» وأخذ يهز «وازيس» ليريه أنه بجواره. وطبعا أخذ الطفل يصرخ صرخات تخرق طبلة الأذن. فسد «مانابوش» أذنيه،

وخرج يجرى من الكوخ.

أصاب الذهول الكبار الذين حضروا هذا المشهد. أن يُهان ولى النعمة العظيم هكذا. لكن – رغم كل شىء– لم يكن «وازيس» سوى طفل، وها هو الآن يضحك من خوف «مانابوش» ملء قلبه.

أخذ «وازيس» يضحك «جوو، جوو، جوو!» مظهرا أسنانه اللبنية .

أما «مانابوش» الذى عاد إلى المكان، فلم يعد يعرف أيشد أذنى الصبى المضحك أم يضحك معه. ولأنه صديق الهنود حقا، لم يتردد طويلا، فأخذ يلاطف رأس الطفل الصغير بحنان، وأعطاه أفضل قطعة سكر، كان يحتفظ بها فى حقيبة مؤونته الصغيرة .

ولكن. يكفى هذا القدرمن الحكايات عن مغامرات «مانابوش» الطيب. وهنود الغابات الشرقية يعرفون حكايات أخرى عنه، ولكن الحكاية التى يقدرها الأطفال – بشكل خاص – هى حكاية الطفل «وازيس». وعندما يلهون، يفعلون مثله، فيضحكون قائلين «جوو، جوو، جوو».

«أوكتيوندو» والإوز البرى

كان «أوكتيوندو» يعيش فى غابة كبيرة جدا. ومنذ طفولته ومنزله قائم بين جذور شجرة دردار ضخمة. لكن الجذور أصبحت أكثر وأكثر كثافة، فقد تشابكت بقوة، حتى أنه – ذات صباح جميل – تحقق «أوكتيوندو» من أنه لن يتمكن من الخروج أبدا. ولحسن حظ السجين الصغير أن منزل خاله كان على بعد خطوات قليلة منه.

لقد اعتنى «هانيتوس» بابن أخته الأسير عناية فائقة، فأخذ يأتى له بالطعام والشراب، دون أن ينسى الفاكهة الطيبة، كان الخال يأتى بكل ما يريده «أوكتيوندو».

ومرت الأيام؛ «وهانيتوس» يقطع الأشجار، ويستصلح الطريق حول منزله، ويزرع الفول والذرة، ويجلبهما للصبى الصغير. لقد كبر «أوكتيوندو» وأصبح قويا جدا. ومهما حاولت شجرة الدردار الضخمة أن تحتفظ به أسيرا، ما كانت لتستطيع ذلك طويلا، فذات يوم، هزّ «أوكتيوندو» الشجرة بكل قواه، ولم تتمكن الجذور من التشبث بالأرض. وبعد هزة أخرى، أصبح الصبى حرا، وانتصب واقفا أمام خاله الذى أتى يهرول إثر الصوت الذى أحدثته الشجرة وهى تسقط، وبعد أن زالت عنه الدهشة تكلم «هانيتوس» أخيرا :

«وهكذا، ها أنت حر، وقوى جدا، ولاشك أنك ستكون صيادا

رائعا، سأعطيك قوسا وسهاما، اذهب حيث تشاء ولكن تذكر دائما هذه النصيحة : لاتتجه أبدا نحو الشمال حتى لايصيبك - عندئذ - أى سوء»

أنصت «أوكتيوندو» لأقوال خاله دون أن ينبس بكلمة، ودون أن يقاطعه فى أي سؤال، ورغم هذا، أسرته أقواله: فلم تعد تغيب عن ذاكرته .

واتضح أنه صياد رفيع المقام، يصوب بإتقان ويتحرك دون ضجيج؛ وأحذيته الموكاسان تكاد تلمس العشب لمسا. وسرعان ما عرف كل أراضى الصيد بالجنوب والشرق، وكل ما كان يقع فى اتجاه غرفة نوم الشمس. عندئذ، تذكر كلمات خاله لماذا لن يستطيع استكشاف الشمال؟

كثيرون من الهنود ذهبوا هناك قبله وعادوا - دائما - وهم محملين بلحم الطريدة.

وذات يوم جميل قرر أمرا. فقال «وداعا» لخاله «هانيتوس» كعادته، وسار فى الطريق، ولكن، ما أن أصبح بعيدا عن مرمى البصر، حتى انحرف نحو الشمال. كان طريقه يخترق غابة لاتنتهى، ولكن، لأنه أخذ يقطع المسافة جريا أحيانا، سرعان ما ابتعد بعيدا جدا، وسرعان ما تباعدت المسافات بين الأشجار، ووجد نفسه على حافة بحيرة رائعة. كان الشاطىء رمليا والمياه شفافة مثل البللور، ونسمة هواء عذب تجعد سطح البحيرة. وبعيدا، وسط البحيرة، كان ثمة جزيرة مثل فوقعة كبيرة .

فأخذ «أوكتيوندو» يتأمل المشهد مبهورا، عندما أفزعه نداء. لقد ظهرت نقطة سوداء في الأفق، سرعان ما أخذت تكبر وهي تقترب، وها هو «أوكتيوندو» يتعرف على شكل الزورق، لكن ما هذا الذي ينزلق أمام الزورق فوق سطح المياه؟.

كان أوزا! الإوز البري يقطع المياه مثل السهام، وهو يجذب المركب الذي يتجه – في خط مستقيم – نحو «أوكتيوندو». وصل المركب إلى الشاطئ، فقفز منه هندي غريب وهو يقول :

«مرحبا بك يا أخي! إني سعيد برؤيتك ، نعم أنت مفاجأ، هذا بديهي، لكننا فعلا إخوة. «وهانيتوس» خالي أنا أيضا. لاتصدقني؟ تعال لنقيس أطوالنا»

فتلاصقا بظهريهما و لاحظا أنهما يبلغان نفس الطول بالضبط، ولا حتى بمقدار شعرة من فرو القندس زيادة، لكن الغريب أضاف قائلا:

«أرني قوسك وسهامك. لقد حصلنا عليها نحن الاثنين من «هانيتوس» فيجب أن يكونوا متماثلين».

سحب الغريب قوسه وسهامه، ومد «أكيتوندو» إليه بقوسه وسهامه، فرأى – مرة أخرى – أن الغريب على حق: كان القوسان متماثلين بالضبط لكنه لايزال مترددا، غير مصدق أن الآخر يقول له الحقيقة: لماذا لم يقل له «هانيتوس» أن له أخا؟

قال الغريب وهو يراقبه :«أرى أنك لا زلت لاتصدقني. إننا – نحن الاثنين – راميان وعداءان ماهران، أترى جذع الشجرة هناك»

وأشار إلى شيء أسود، غير محدد المعالم قليلا، على رمال الضفة الأخرى من البحيرة. فوافقه «أوكتيوندو» بإشارة من رأسه. «حسنا. صوب عليها!»

وفي ذات اللحظة، اهتز وترا قوسيهما، وانطلق السهمان وهما يصفران . فأخذا يعدوان عدوا على امتداد الخليج، وكان سهماهما يصفران فوق رأسيهما، والتقط «أوكتيوندو» سهما، بالضبط قبل أن يقع على الأرض. و عندما استدار، رأى الغريب– هو أيضا ممسكا بسهمه في يده. « والآن ، في الاتجاه المعاكس» .مرة أخرى – الكتف بجوار الكتف– شدا قوسيهما، ومرة أخرى صفر السهمان وأمسكا بهما قبل أن يتمكنا من الوقوع مرة أخرى. فتقدم «أوكتيوندو» نحو الغريب وقال له:

– «نحن شقيقان أخوان فعلا .ما اسمك؟»

– «اسمى «شاجونيوتا». «هانيتوس» لم يرغب فى أن أذهب إلى الشمال. ورغم هذا، فالطريدة متوفرة أكثر من اللازم هنا»، ثم مد يده ليشير إلى الجزيرة الصغيرة فى وسط البحيرة. وقال : «بيتى هناك. تعال».

وركبا المركب الذى أنزله «أوكتيوندو» – بنفسه– فى مياه البحيرة. وكأنه يستجيب لأوامر سرية. شكل الإوز وحدة واحدة، وأخذ «شاجونيوتا» يغنى :

«حلّقى، حلقى، ياطيورى الجميلة .

وابحرى فى المياه، وبسرعة أكبر دائما.

فسرعان ما نصبح، نحن الاثنين، فوق الجزيرة الخضراء
فنتدفأ بالقرب من النار الطيبة».

وكلما ارتفع صوته، كلما طارت الطيور بسرعة أكبر، فأخذت تضرب بأجنحتها، لدرجة أن الأمواج كانت تزيد، والزورق ينسل كالسهم، وسرعان ما بلغا الجزيرة . وفى انفجار الغروب، بدت الجزيرة لأوكتيوندو كئيبة، فسعد عندما أدخله «شاجونيوتا» فى خيمته. وسرعان ما نام بعمق ، فلم يشعر بأخيه وهو يخرج فى منتصف الليل، ليعود إلى الخيمة فى الفجر .

وفى الصباح ، قاد «شاجونيوتا» أخاه إلى مكان بالخليج كانت المياه فيه عميقة جدا ، وعلى الشاطىء الرملى، وعبر المياه الشفافة، أمكن رؤية قوقعة كبيرة.

فقال «شاجونيوتا» وهو يتخلص من ثيابه، «أترى هذا الحجر؟ تعال سنلعب سويا ، فلنحاول انتشاله» ثم غطس فى المياه لكن الصخرة ظلت فى مكانها عندما انبثق فى المياه وهو مرتبك تماما .

ودون أن ينتظر عودة أخيه، غطس «أوكتيوندو» بدوره فى المياه، لكن أخاه، لم يتبعه، لقد التقط ملابسه وقوسه وسهامه بسرعة، ولف حذاءه الموكاسان، ثم نادى على إوزه واختفى فى الأفق. حدث هذا كله قبل أن يظهر «أوكتيوندو» على السطح.

عندما خرج «أوكتيوندو» من الماء، أخذ يبحث حوله عن أخيه، ثم فتش عنه في كل الجزيرة. ولكن ، بلا جدوى. فجأة سمع من يناديه باسمه، ورغم هذا لم ير شيئا .

فكرر الصوت «من هنا يا «أوكتيوندو» وعندئذ ، رأى جانب رجل يبرز من تل رمل صغير، فاقترب منه. وتحرك الرمل قليلا. ظهرت منه رأس رجل عجوز .

«إنني خالك يا «أوكتيوندو» إن أخاك «شاجونيوتا » خائن، فهو في خدمة غول متوحش سيكون هنا بين لحظة وأخرى. إذا كنت متمسكا بحياتك، اختبيء في الرمال كما أفعل. ولكن هذا لايكفي، فالغول معه كلب هائل الحجم، وعيناه واسعتان مثل درع الهنود. إذا لم تقتل أنت الكلب، فإنه سيكتشفك وسيقتلك. خذ هذا الفأس «التوماهاوك» السحري، وعندما يقترب الكلب، ما عليك إلا أن تقول «اسقطي فوقه أيتها الفأس الصغيرة» وسرعان ما تتخلص منه. وفي نفس اللحظة، شق الرعد السماء، وأخذت ريح وحشية تعصف بالمكان .

فنصحه العجوز «لنختبيء بسرعة».

أمسك «أوكتيوندو» بالفأس واختبأ في الرمال. وسرعان ما ساد الهدوء المكان، وجاء الكلب يهرول على الشاطيء. كان جسمه هائلا، وفكه في حجم فتحة الخيمة، وعيناه مثل درعي الهنود، وعندما اقترب تماما من مخبأ «أوكتيوندو» قال :

«اسقطي فوقه أيتها الفأس الصغيرة».

فقفز «التوماهاوك» وحده من غمده، وقفز قفزة واحدة في الهواء. وبعد لحظة ، كان الكلب ممددا وقد تهشمت رأسه.

فنصحه العجوز مرة أخرى : « لاتغادر مخبأك إذا رآك الغول، انتهى الأمر بالنسبة لك».

ولم يتأخر الغول كثيرا . كان كبيرا ، وأسود وقبيحا، يشبه الصخرة الكبيرة. أخذ يهز رأسه الكريهة بغضب شديد ويقوم بحركات تهديد كثيرة، وهو يتلفظ بعبارات وعيد غريبة. ثم جمع جثة كلبه واختفى، يصاحبه قرع رعد مشؤوم .

فتنهد «أوكتيوندو» تنهيدة الصعداء.

فقال له العجوز مرة أخرى: «لاتفرح هكذا بسرعة، سيعود الغول هذه الليلة، إذ أنه سيجوع، علينا أن نغادر الجزيرة قبل عودته» .

فقال له «أوكتيو ندو» ملاحظا :« ولكننا لانملك قاربا».

فهز العجوز رأسه بحزن وأجاب : «نعم أنت على حق . الغول قوى جدا . لن نتمكن أبدا من الهرب منه». وأثناء كلامه هذا ، سمعا الغناء المألوف قادما من البحيرة :

«حلقى، حلقى ياطيورى الجميلة

وابحرى فى المياه، بسرعة أكبر دائما.

فسرعان ما سنصبح ، نحن الاثنين ، فوق الجزيرة الخضراء فنتدفأ بالقرب من النار الطيبة».

لقد عاد «شاجونيوتا» فاختبأ صاحبنا فى الرمال جيدا. قفز الأخ الشرير على الشاطيء، وتوجه – وهو يجرى – نحو منزله . كان يريد أن يتأكد من موت «أوكتيو ندو» فأخذ يبحث عن آثار الدماء، وهو ما كان «أوكتيوندو» ينتظره وما أن اختفى «شاجونيوتا» داخل جزيرته، حتى أشار «أوكتيوندو» لخاله، فقفز الاثنان فى الزورق، وابتعدا عن الجزيرة قدر استطاعتهما .

وعبثا بحث «شاجونيوتا» عن «أوكتيوندو» وقلب الجزيرة بحثا عنه. بدا وكأن الأرض قد ابتلعته، فشعر بالغيظ والغضب. وانطلق نحو الخليج حيث كانت مفاجأة جديدة غير سارة فى انتظاره، لقد اختفى زورقه هو الآخر. عندئذ فهم أن «أوكتيوندو» قد اختفى، فأخذ يدق الأرض غضبا، ويرتعد خوفا من فكرة مجىء الغول .

والواقع أن صوت الرعد بدأ يسمع فى الأجواء. كان الغول قادما، وانفجر الرعد؛ ثم انتصب الغول الكريه أمام «شاجونيوتا». كانت عيناه فى احمرار جمرات النار، وأخذ يصرخ :

«أخيرا، سأمسك بك! وسآكلك»

فأخذ «شاجونيوتا» يئن مثل كلب ملدوغ بالسياط، ويجرجر نفسه على الأرض تحت قدمي الغول، وهو يرجوه ويحاول إقناعه بأنه ليس «أوكتيوندو». لكن الغول كان جائعا؛ وغاضبا غضبا شديدا. لقد أعماه الغضب، وأفقده سمعه، فلم يستجب لتوسلاته. فالتقط «شاجونيوتا» بيد واحدة ، وهزه بعنف، وبعد لحظة واحدة، كان خادمه المخلص قد انغمر وانطوى فى الحنجرة الهائلة.

عندئذ قال العجوز لأوكتيوندو : يابن أختى، مازالت هناك مهمة أخرى يجب أن تقوم بها، أن لك أختا قد سجنها الغول فى مكان لايبعد عن هنا كثيرا. عليك أن تفك أسرها قبل أن يعود الغول، اجر بسرعة، اذهب، سيرشدك القمر فى طريقك، وسأنتظرك هنا.

فرحل «أوكتيوندو» مثل سهم سريع، متتبعا الطريق الذى يضيئه القمر له وسرعان ما وصل إلى ما كانت أخته مسجونة فيه. كانت قد

فقدت كل أمل فى الحصول على حريتها، ولم تعد تصدق أنها ستكون سعيدة . فأخذ «أوكتيوندو» بيدها، وعادا سويا، نحو الزورق الذى ينتظرهما فيه خالهما العجوز، عندئذ، أخذ «أوكتيوندو» يغنى :

«حلقى ، حلقى، وبسرعة أكبر

فسرعان ما سنصبح، نحن الاثنين، فوق الجزيرة الخضراء ونتدفأ بالقرب من النار الطيبة».

فأبحر الإوز البرى بسرعة هائلة، لدرجة أنه بدا وكأن الغول لن يتمكن أبدا من الإمساك به رغم كافة جهوده .

ورغم هذا، عندما رأى الغول ماحدث، ألقى بنظرة ثاقبة، عن بعد لدرجة أن عينيه اخترقتا الليل مثل فنارين، ولمح الهاربين، عندئذ، أخذ أطول سنارة لديه، وعلق فيها أطول حبل لديه، ثم صوب نحوهم وألقى بسنارته بالقرب منهم . لقد شبكت السنارة بمؤخرة الزورق، وأخذ الغول يشد ، ويشد بقوة، فتراجع المركب للوراء، رغم جهود الإوز البرى، كانوا قد عادوا بالقرب من الشاطىء، عندما تذكر«أوكتيو ندو» الفأس السحرى،

فصرخ «أوكتيوندو» بسرعة :«اسقطى فوقه، أيتها الفأس الصغيرة». فقفز «التوماهاوك» خارج جرابه، وقفز قفزة واحدة فى الهواء وقطع الخيط فى نفس اللحظة. لقد أصبحوا أحرارا .

ورغم هذا، لم يوافق الغول على أن تخيبه فريسة كهذه. وعندما رأى أن قوته قد فشلت ، استخدم الحيلة. لقد ركع على حافة المياه، وأخذ يشرب . كان يشرب بدفقات هائلة فخلق تيارا وجذب الزورق

نحو فمه، وفى اللحظة الأخيرة، شد «أوكتيوندو» قوسه، وصوب سهما فى أمعاء الغول، فانبثقت المياه من الحفرة، وسقطت فى البحيرة من جديد، وشكلت تيارا معاكسا، حمل المركب معه.

فصرخ الوحش: «سأدمركم كلكم». عندئذ، نفخ خديه، ونفث بهواء ثلجى على البحيرة، وسرعان ما تغطت البحيرة بطبقة من الجليد ووقع المركب والإوز البرى أسير الثلج بالبحيرة، وتوجه الغول سيرا على الأقدام نحوهم، فوق الطبقة الثلجية ، وعندما بدأ يقترب منهم، تدخل العجوز الحكيم بدوره : فقام من داخل الزورق ، وتلا تعويذة سحرية، فذاب الجليد على الفور، وقبل أن يلتقط الغول الهاربين، تكسر الجليد تحت قدميه، فابتلعته مياه البحيرة ، ولم يره أحد بعد ذلك .

وهكذا، أنقذ الهاربون الثلاثة، وعادوا إلى منزل «هانيتوس» تحت شجرة الدردار الضخمة. فعاشوا سعداء ، فى أجمل أشكال الوحدة، إلى أن نادى عليهم «الروح الأعظم» ليأتوا إليه.

والإوز منحه «أوكتيوندو» حريته، فلم يفترق عن بعضه أبدا، وحتى الآن، يمكن رؤية الإوز وهو يطير فى شكل السهم. عندئذ، يرفع الهنود عيونهم نحو السماء، ويعرفون أن فترة هجرة الإوز البرى قد حانت.

«ويهيو» الطواف

عندما ولد «ويهيو» منحته الأرواح الطيبة، وقد تأثرت بمولده قليلا، حب السفر والترحال، بالإضافة إلى طبعه اللطيف.

ولم يندم «ويهيو» أبدا على طبعه هذا، خاصة عندما اكتشف أن حياة الطواف أكثر إثارة للاهتمام من حياة الذين يبقون دائما في بيوتهم، ثم إن السفر كان مسليا بالنسبة له!

وما أن تعلم شد القوس، حتى غادر «ويهيو» منزل أهله، وانطلق للمغامرة. لقد اتجه نحو الغابة الكبيرة، التي بدت - عن بعد- زرقاء تماما. كانت تقع على سفح جبل تتغطى قمته بالثلوج.

وهناك أمكنه مشاهدة مناظر كثيرة، حتى أن عينيه اللتين اعتادتا رؤية السهول، لم تعرفا أين تتجها أولا، فهناك سيول صاخبة المياه، تحمل كل ما تجده في طريقها، وفتحات مشمسة داخل الغابة، وأشجار صنوبر ترتفع بذراها عاليا جدا، حتى أنه يمكن رؤية ذؤاباتها بصعوبة.

والتقى «ويهيو» بحيوانات لم يرها من قبل. وأخذ يتحدث - على الفور وبدون تكلف- مع كل من يقابلهم. وهكذا، اكتسب في الغابة كثيرا من الحكمة، فعرف - من بين أشياء كثيرة - أن الدب، في غابات الشمال، هو ملك الحيوانات . كان حيوانا بشعا، وحارسا

غيورا، على أراضى الصيد الواقعة على حافة «نهر الدب» وكل من يطأ بقدمه هذا الأراضى، يبعث به الدب إلى أراضى «الصيد الأبدية».

لكن «ويهيو» ما كان له أن يكون «ويهيو» ، لو لم يستخدم الحيلة ضد هذا المتذمر الكبير.

حدث هذا فى الشتاء. كان «ويهيو» قد وصل إلى «نهر الدب»؛ وقد تجمد. وبدون أن يبالى من اقترابه من مغارة الدب، صنع «ويهيو» حفرة فى الجليد، وأخذ يمسك السمك.

وسرعان ما سمع وقع خطوات ثقيلة خلفه، تصاحبها زمجرات غاضبة. فتصرف وكأن لاشيء يحدث، واصطنع الهدوء، وكأنه كتلة من الجليد، وواصل سحب السمك من الحفرة، «ترونة» وراء الأخرى، فأصبح الدب فى حالة غضب هائل :

فقال له مزمجرا: «كيف تجرؤ وتأتى لتصيد سمكي!»

فرفع «ويهيو» رأسه ونظر إلى الدب وقال مبتسما :

«آه! ها أنت! أخيرا! لقد سمعتهم يقولون إنك تستخدم فخذك لتمسك بالسمك، مما يؤدى إلى أن يهرب الكثير منه. لذا، جئت لأريك كيف تتصرف لتصيد صيدا جديرا بك، انظر قليلا».

وضع «ويهيو» طعما طازجا فى سنارته، وألقى بها فى الماء. وفى لمح البصر، التقط سمكة جميلة جدا، لدرجة أن اللعاب سال من فم الدب بمجرد أن رآها.

فقال الدب بنبرة غيظ :«حسنا. لا أملك سنارة للصيد».

«هذا لايهم فلك ذيل جميل يمتلىء باللحم، والسمك سيسعد جدا إذا ما قضم قطعة صغيرة من ذيلك. ما عليك إلا أن تجلس على حافة البحيرة، وتترك ذيلك يتدلى بداخلها، وعندما تشعر بالسمك يقضم ذيلك، اسحبه بسرعة!».

فقال الدب وهو يرفع فخذا قويا تحت أنف «ويهيو» :«الفكرة لا تبدو لى سيئة . لكننى أحذرك، لاتحاول أن تضحك علىّ، وإلا سينقلب المقلب ضدك». ودون أن يضيف كلمة أخرى، جلس على حافة الحفرة.

وسرعان ما شعر بشىء يشك ذيله، فانتظر قليلا لتقضم السمكة ذيله جيدا، ثم قام بحركة ليسحب نفسه، لكن ذيله لم يطعه. كان ممسوكا جيدا.

فصرخ فى «ويهيو» : «تعال بسرعة، لقد التقطت سمكة كبيرة».

فأجابه «ويهيو» «لاتكن غبيا إلى هذا الحد» وأخذ جسمه يتقلص من الضحك»، «لم تلتقط أي شيء على العكس ، لقد اصطاد الثلج ذيلك! أحسنت أيها الأنانى القبيح!».

والتقط «ويهيو» ما اصطاده فى حقيبته، وابتعد بخطوات هادئة وهو يدندن بأغنية عن الدب الغبى.

وأخذ الدب يصدر صرخات رهيبة، ويبذل كل جهوده ليخلص نفسه. ولكن ذيله كان يتماسك أكثر فأكثر في الجليد، الذى أصبح أكثر كثافة .

عندئذ، جمع قواه وقفز «كراك» ودار حول نفسه، بنزق. أصبح

يكاد لايملك ذيلا، لم يتبق له سوى ذيل صغير حقا، لقدأعطاه درسا طيبا!

وواصل «ويهيو» طوافه، فغادر - على الفور- الغابة المكسوة بالثلج، ووصل إلى منطقة الصخور الحمراء، التي تقطعها المضايق العميقة. وهناك، وجد كل القرى الهندية مهجورة .

فأخذ يتساءل :«ما الذى يحدث» وسرعان ما عرف سبب هذه الهجرة، فقد كانت بومة ضخمة تسيطر على هذه الأراضى. لقد اعتادت خطف صغار الأطفال ليلا، ولهذا ذهب الناس لمكان آخر. فقرر «ويهيو» على الفور - أن يذهب ويبحث عن البومة الشريرة. لكن لم يستطع أحد إرشاده إلى مكانها .

عندئذ، ارتدى «ويهيو» ملابس طفل صغير، وانتظر - متنكرا فى هذه الهيئة - مجيء البومة للبحث عنه.

وفى منتصف الليل بالضبط سمع نعيب البومة، يليه حفيف الأجنحة. وفجأة، قبضت عليه مخالب قوية، وحملته فى الأجواء.

لم يطرا بعيدا جدا. كان عش البومة، يقع بالقرب من المكان، في حفرة بإحدى الصخور، وضعت «ويهيو» وهى سعيدة جدا، لأنها استولت على غنيمة بهذا الحجم. فأخذت ،بعد أن وضعت حملها الثقيل ، تتفاخر بهذه العبارات :

« لا أحد يستطيع أن يهزمنى. لن تخرج من هنا أبدا، تقدم أريد أن أسعد نفسى بالوجبات الشهية التى ستزودنى بها».

فتظاهر «ويهيو» بأن المسألة لاتعنيه، وأدخل يده فى حقيبته، ثم

أخرج منها حلوى، أخذ يقرقشها وهو يلحس إصبعه .

فسألته البومة وهى تمد رقبتها بفضول :«ماذا عندك هنا؟».

- «إنه سكر القيقب، أتريدين قطعة؟»

فأجابتها البومة بلهجة آمرة: «أعطنى إياه كله».

فأدخل «ويهيو» يده – مرة أخرى– فى حقيبته . لكنه –هذه المرة – بدلامن أن يخرج قطعة سكر قيقب، مثل التى كان يقرقشها . أخرج كرة طرية من القطران، فأخذتها البومة ، دون أن تشك فى أي شىء، ووضعتها فى فمها على الفور. كم كان من الصعب عليها أن تبتلع الكرة، كما هى، فأغلقت منقارها لكى تقرقشها . ففهمت خطأها! لقد التصق القطران بفكيها .

وغادر «ويهيو» المكان، وتركها إلى مصيرها السىء الذى تستحقه تماما ، وهو يضحك ملء شدقيه .

وما أن أصبح بالخارج، حتى أخذ يغنى أغنية الدب الغبى، وأضاف إليها مقطعا عند البومة الأكثر غباء».

كانت البومة لاتزال تحك منقارها فى الصخرة، عندما أصبح «ويهيو» بعيدا جدا . لقد وصل إلى بلد البرك والمستنقعات. كان أبعد من أن يشك فى أن هذا المكان هو مملكة أسوأ التماسيح كلها .

وعندما علم بالأمر ، كان الوقت متأخرا جدا . لقد انفتح فك هائل – مثل باب بيت – أمامه ، وبعد خطوة إضافية، أصبح «ويهيو» بالداخل.

فدعاه صوت أبح : «تعال يا صغيرى». تقدم إذن! لن يمكنك

الهرب على أية حال».

فأجابه «ويهيو» :«لو كنت أنا الذى رأيتك أولا، لكنت قد أكلتك».
فانفجر التمساح ضاحكا: «ها! ها! يا لها من أكنوبة جميلة! أريد أن أراك».

- «وما فائدة هذا الكلام الآن؟ أنا واثق أنك أقوى من كل الحيوانات. ولكن، بما أننى يجب أن أغادر الحياة، فعلى الأقل دعنى أرى أسنانك، حتى أتأمل من سيقضمنى».

فأصابت كلمات «ويهيو» غرور التمساح. ففتح فمه لأقصى اتساعه، ودلى منه لسانا هائلا شديد الاحمرار. كان هذا ما ينتظره «ويهيو» فأخرج حجرا كبيرا من حقيبته، وألقى به فى فك الوحش. وهكذا، لم يستطع أن يغلقه من جديد. ثم ، وبسرعة، قطع «ويهيو» طرف لسان التمساح، فأخذ التمساح يصرخ، وينوح، ويتنهد، وهو عاجز عن أن يلفظ الحجر.

تركه «ويهيو» مزروعا فى مكانه، يمتلىء ألما وحنقا، وواصل هو طريقه . كانت الأغنية ، التى يدندن بها هذه المرة، تشرح لماذا يملك التمساح لسانا قصيرا جدا .

لقد سافر لعدة أيام، لدرجة أنه شعر بجوع هائل فى النهاية. وعبثا حاول البحث عن شىء يأكله، لم يجد أية لقمة يسد بها جوعه.

وأخيرا، عثر على ذئب أمريكى صغير، فسعد به جدا. كان واثقا أن هذا المكار سيعرف أين يجد بعض المأكولات الشهية، ولهذا السبب، التقى به وحدثه بهذه الطريقة :

«صباح الخير يا أخي العزيز ! يبدو عليك أنك تتغذى جيدا! هل لك أن تتكرم وتقول لي أين أجد شيئا آكله؟».

لكن الذئب الأمريكي لم يرغب – في بادىء الأمر – في الإجابة عليه، لكنه قرر وقال :

« أنصت ، خلف هذا التل توجد خيمة، يمكنك أن تجد فيها لحما جافا رائعا. لقد استمتعت به أكثر من مرة، لكن الناس تطردني وتطاردني بالعصا وبضرباتها، وتعاملني كقاطع طريق ولص. ويستحسن ألا تدس أنفك في الخيمة».

فأخذ «ويهيو» يزن الحجج المؤيدة والمعارضة. إن الذئب الأمريكي الصغير على حق، فالناس في هذه القرية، فقراء جدا لاشك، وليس من اللائق الذهاب إليهم وسرقتهم، وهم – لاشك في هذا – يرغبون في اقتسام ما لديهم معه؛ لكنه جائع. فألهمه هذا الجوع الحيلة.

فقال الذئب الأمريكي الصغير: «لقد راودتني فكرة. سأتنكر في ملابس امرأة، وأضعك في حقيبتي التي سأحملها على ظهري. ستبكي كأنك طفل يتضور جوعا، وسترى أن هؤلاء الناس سيعطونك شيئا تأكله»

فأنصت إليه الذئب الأمريكي الصغير، ثم أخذ يحك أذنه – للدلالة على التفكير العميق– وقال:

«كل هذا يبدو لي شديد التعقيد. المهم، أريد أن أحاول. ولكن، بشرط أن تعدني بأنك لن تأكل إلا القليل مما سنحصل عليه من

اللحم المدخن، وأن تترك لى الباقى».

ولأنه يعلم أن الذئب الأمريكي الصغير لن يتعاون معه إلا إذا طمأنه من هذه الناحية، وعده «ويهيو» بكل ما كان يرغب فيه، فهو يعلم أنه سيتمكن من أن يأخذ حذره منه فيما بعد.

ودون أن يبدد جوعه أكثر من هذا ، خبأ «ويهيو» الذئب الأمريكى الصغير في حقيبته، ولفه جيدا، فلم تظهرمنه سوى عينيه. وتنكر «ويهيو» فى هيئة زوجة هندى. وبعد أن وضع حقيبته خلف ظهره – كما تفعل الهنديات مع أطفالهن – تقدم نحو القرية الواقعة على سفح التل .

كان هناك رجل يقف وحيدا. سأل الرجل «ويهيو»– معتقدا أنه امرأة – «لماذا يبكى طفلك هكذا؟».

فأجابه «ويهيو» بصوت شاك، يجعل الصخر ينوب، :«إنه جائع. لم يعد لدى ما أعطيه له. وأنا نفسى لم آكل شيئا منذ يومين» فتأثر الرجل بشدة، وأخذ يضع شطرات من مخروط اللحم الجاف، وأعطاها لويهيو دون أن ينبس بكلمة .

كان اللحم لذيذا جدا، فسعد به «ويهيو». أما الذئب الأمريكي الصغير، الذى بدأ يتململ فى الحقيبة ويطالب بنصيبه، فإنه لم يأخذ إلا العظم، أو أجزاء جافة جدا، لم يستطع هو نفسها أن يمضغها.

وبعد أن شكر الرجل لكرمه، سار على الفور فى الطريق نحو النهر. كان الذئب الأمريكى يشتعل غضبا، فأخذ يتململ خلف ظهره وهو يصرخ :

- «انتظر حتى أكون حرا وسترى!».

لكن «ويهيو» لم يول تهديداته أية اهتمام. وعندما توقف على حافة النهر، أخذ حقيبته وألقى بها - بكل قواه - فى المياه العميقة، ثم جلس على العشب الأخضر وأخذ يتابع - ببصره- الحقيبة وبها الذئب الأمريكى وهى تنساب مع مجرى المياه، وألف مقطعا جديدا لأغنيته. وهذه المرة ، كان المقطع عن الذئب الأمريكي الصغير، أغبى الحيوانات كلها.

البجعة الأرجوانية

يحكى أنه كان لزعيم أحد القبائل ثلاثة أولاد، وعندما شعر بدنو أجله، استدعى أولاده ، ليورثهم ما يمتلكه من أشياء ثمينة، وعندما رآهم على رأس سريره، اعتدل - للمرة الأخيرة - متكئا على وسادته. وأدار وجهه نحو الشمس التى كانت فى الغرب، وقال لهم بصوت منطفىء :

« لقد ضعف بصرى، وأعرف أن ساعة الرحيل لبلاد الظلمات قد حانت. وقبل أن أترككم لرحلتى الأخيرة، أريد أن أترك لكم هدية ثمينة للغاية».

دسّ العجوز يده تحت فراء سريره وأراهم - فى وضح النهار - جعبة مزخرفة بأشواك الشيهم، وقدّمها لأكبر أولاده وهو يقول له:

« هذه الجعبة تحتوى على ثلاثة أسهم سحرية، حافظ عليها كمحافظتك على عينيك. لقد ورثتها عن جدى، أشهر صانعى السهام جميعا. والآن، اتركونى يا أطفالى ، أريد أن أكون وحدى».

وذهب الزعيم العجوز ليقابل أسلافه. وفى صباح اليوم التالى، بكاه أهل القرية كلهم، وأخذوا يمدحون أعماله العظيمة وقراراته الحكيمة. ثم، وبمرور الوقت، نسيه أهل القرية وهو مايحدث دائمافى هذا العالم. فقط الإخوة الثلاثة ظلوا يذكرون ملامح وجهه كلما

اجتمعوا حول السهام السحرية الثلاثة.

وفى يوم من الأيام ، عندمـــا هبطت الشـــمس على الأفق، ذهب أصغر الأبناء سنا – «أوجيبوا» للصيد. وما أن غادر المعسكر، حتى رأى آثار دب. كانت حديثة جدا. لذا استطاع أن يمسك بالحيوان ويقتله قبل حلول الليل .

وبينما هو يستعد لتقصيبه، ظهر وميض أحمر باهر فى السماء، وتردد معه غناء غريب وحزين، بدا وكأنه يأتى من النقطة الأكثر توهجا فى الماء.

بدا الأمر وكأن الريح تلعب بقيثار مسحور. فأوقف «أوجيبوا» عمله، ونظر فى اتجاه مصدر الصوت الخلاب، ثم رمى بسكينه، وسار يتتبع الضوء الأرجوانى، الذى قاده بعيدا عبر الغابة.

وبعد مسيرة طويلة، وجد نفسه على حافة بحيرة هائلة. وبعيدا جدا على مستوى الخط الفاصل بين المياه والسماء،رأى بجعة ذات رقبة طويلة، لونها أرجوانى. كانت البجعة هى التى تغنى . فتأثر «أوجيبوا» جدا بهذه الترنيمة الحزينة الخرافية.

فقرر قائلا: «يجب أن تكون ملكى!» وشد قوسه ولكن قوسه انحرف، وكأن السحر قد أبعده عن هدفه.

شعر «أوجيبيوا» بالخيبة، إلا أنه تذكر إرث والده، فعاد بسرعة للمعسكر، ولم يسترح فى الخيمة، لقد أخذ السهام السحرية الثلاثة، وعاد بسرعة إلى البحيرة، قدماه تلمسان الأرض لمسا من السرعة.

وجد البجعة الأرجوانية وكأنها تنتظره، فألقى «أوجيبيوا» بسهمه

الأول، لكن مسيرته كانت قصيرة جدا، كذلك لم يسعفه الحظ كثيرا، مع السهم الثانى، الذى لم يتمكن إلا من لمس ريش الطائر، ثم سقط فى البحيرة مثل السهم الأول. وبلغ السهم الثالث البجعة، لكن دون أن يقتلها. فطارت البجعة بضربات قوية من جناحيها، طارت بجلال فى الأجواء، ثم اختفت بين سحب الغروب، وأخيرا غاب غناؤها المذهل فى الصمت .

لقد احتاج «أوجيبيوا» لفترة من الوقت ليخرج من حالة الذهول، ويفهم أن البجعة حملت معها سهمه الثمين .

فقال فى نفسه : «علىّ – حتما – أن أجد البجعة والسهام، وإلا فإن إخوتى سيلعنوننى حتى آخر نفس لى لأننى أضعت إرث أبى». وسبح – أولا – فى مياه البحيرة ليلتقط السهمين اللذين كانا يعومان فى الماء. ووجد – على السهم الثانى – ريشة أرجوانية من جناح البجعة، فنظفها –بعناية– قبل أن يستعد للبحث عن هذا الطائر الخرافى.

أخذ يسير ، ويجرى، طوال الليل وطيلة صباح اليوم التالى. ثم وصل إلى قرية هندية لم يكن يعرفها. وقد استقبله زعيمها بنفسه. وسهرت ابنة الزعيم ، الجميلة مثل الصباح، على العناية به طوال الليل، فنام نوما عميقا حتى الفجر. ثم قدمت له زوجا من الموكاسان بدلا من حذائه الذى اهترأ، ورافقته – بعد ذلك– بعيدا عن القرية بمسافة، لتدله على الطريق. وأخذ «أوجيبيوا» يجرى– أيضا – طوال هذا اليوم، حتى حلول المغيب ووصل إلى قرية هندية أخرى مجهولة.

وهناك – أيضا– كان ضيف زعيمها، وسهرت ابنته على راحته طوال الليل. وفى الفجر، أهدته زوج أحذية موكاسان جديد، وهى أيضا – بدورها – صاحبته حتى مسافة بعيدة عن القرية لتدله على الطريق. وفى لحظة الفراق، كان يمكن أن نرى كم هى آسفة على رؤيته يغادر المكان، فقد وقعت فى غرامه ، وتمنت – فى نفسها – أن يظل معها.

وبعد أن حياها وشكرها، استأنف «أوجيبوا» مسيرته . فأخذ يجرى، ويجرى طوال اليوم، إلى أن رأى، عندما حل المساء، ضوء خيمة معزولة، فحياه عجوز – يعيش وحده – بمودة قائلا له :

«إننى أنتظرك منذ زمن طويل جدا! أنا أعرفك، وأعلم أين تذهب، إنك تتبع آثار البجعة الأرجوانية، إنها تعيش على بعد مسيرة يوم مشيا على الأقدام – من هنا – مع والدها الساحر القوى جدا. ووالدها – – رغم أنه ساحر – إلا أنه فقد فروة رأسه خلال معركة مع أعداء متوحشين ومنذ هذا الوقت وهو محكوم عليه بالآلام الهائلة، غير أنه يعلم أن صيادا شابا، شجاعا وباسلا، سيعيد إليه فروة رأسه، ويجب أن أضيف أن البجعة تغنى – بهذا الصوت الحزين – الذى سحرك، لأنها تشعر بشفقة كبيرة تجاه ما يشعر به والدها من عذاب . لكن كل من سحرتهم البجعة – قبلك – لاقوا حتفهم».

كان «أوجيبيوا» قد أنصت للعجوز بانتباه، فأجابه :«إننى لا أخشى أى شىء، وسأجد فروة رأس الساحر وأعيدها له. أنا واثق من أن الأرواح الطيبة لن تنكرنى».

فهز العجوز رأسه وهو يقول : «لتصاحبك كل دعواتى الطيبة.

والآن، اصغ جيدا لما سأقوله لك، ولاتنسه لحظة واحدة فى صباح الغد، ستسمع أنات الساحر يتردد صداها في المكان . فاحذر - رغم هذا - أن يقع بصرك على جمجمته المنزوعة فروة رأسها فى ضوء النهار. لن تظل سليما معافا إلا إذا رأيته على ضوء النار، وإلا ستصبح مجنونا من الرعب والفزع».

وبعد أن توقف فترة قصيرة، أضاف بشك غامض:

«تذكر ريشة البجعة - دائما - عند محاولتك استعادة فروة الرأس». فشكره «أوجيبيوا» على نصائحه ، ووعده بتنفيذها، وبعد أن استعاد قوته، نام نوما طويلا وعميقا. وفى الصباح، أيقظه مضيفه وسار معه جزءا من الطريق، إلى أن أصبح بالإمكان سماع شكوى الساحر.

فقال له العجوز الطيب - مرة أخرى- ومؤكدا على أقواله: «من الآن فصاعدا . عليك أن تذهب وحدك، لا تنس نصيحتى الأساسية، ولاتذهب سريعا جدا». ثم اختفى فى النور الخافت، لأجزاء الغابة السفلية.

ونفذ «أوجيبيوا» التعليمات التي تلقاها. وكان الليل قد حل عندما أصبح أمام كوخ الساحر. كان الساحر يجلس بجوار النار ويصدر تأوهات مفزعة.

وعندما رأى جمجمته المنزوعة فروتها، ارتعد «أوجيبيوا» هلعا، بل وتراجع خطوة للوراء رغما عنه، لكنه تذكر البجعة الأرجوانية، فاستجمع طاقته، وتقدم - بشجاعة- نحو الساحر وهو يقول له :

«أريد أن أساعدك ، قل لى، أرجوك أين يمكننى أن أجد فروة الرأس التى تبكيها هكذا!».

فرفع الرجل رأسه، وسدد بصره فى عينى «أوجيبيبوا» وقال له:«من أنت، يامن جرؤت على أن تتأملنى وجها لوجه، لقد مر زمن طويل جدا، ولم يعد أحد يعرض علىّ مساعدته. ها هى المسألة: لقد حمل أعدائى فروة رأسى فى معسكرهم ، الذى يبعد عن هنا مسيرة ثلاثة أيام نحو الشمال، فإذا ما أتيت لى به، سأرد لك سهمك السحرى. وبالإضافة إلى هذا، سأكافئك بطريقة ما كان لك أن تتخيلها حتى فى أجمل أحلامك».

فأجابه «أوجيبيوا» ببساطة:«اعتمد علىّ. إنى مسافر»

وسار «أوجيبيوا » طوال ثلاثة أيام بكاملها قبل أن يلمح دخانا، فى آخر الأمر يرتفع فوق الخيام ثم سمع أصواتا، فتوقف ليرى المكان، كان الحراس متخذين مواقعهم حول المعسكر . لن يستطيع - أبدا - دخول المعسكر فى هيئته الطبيعية. فتذكر - بهذه المناسبة - ريشة البجعة، فأخذ يلاطفها برقة، فتحول - على الفور- إلى هيئة عصفور القاوند.

والآن، أصبح بإمكانه أن يفتش المعسكر كيفما شاء. كانت الخيام تتحلق فى دائرة حول مركز المعسكر، وبعض السوارى منتصبة فى الوسط. وفوق أعلى سارية، أخذت فروة رأس الساحر تتطاير.

فطار فى هذا الاتجاه، وكان على وشك أن يلتقط فروة الرأس، بمنقاره، عندما لاحظ الهنود هذا العصفور ذا الألوان البراقة،

فأخذوا يطلقون عليه العديد من السهام. ترك عصفور القاوند الريشة الأرجوانية، التى يمسك بها بمنقاره، فطارت الريشة نحو السارى وتعلقت بفروة الرأس، وتركت الريح تحملها – ومعها حمولتها – إلى أن وضعت الريح هذا كله تحت قدمى «أوجبيبوا» الذى كان قد وصل إلى الغابة، وجلس منتظرا بعد أن استعاد هيئته الإنسانية. وقبل أن يفهم الهنود ماحدث ، كان هو قد راح بعيدا جدا، وأخذ يعدو نحو خيمة الساحر ، ليأتى إليه بفروة رأسه الثمينة.

قال له الساحر – ما أن وصل– «ضعها فوق رأسى، وستكافأ». فنفذ «أوجبيبوا» ما طلب منه، وعلى الفور انتصب أمامه رجل رائع، ونظر إليه وهو يبتسم ، بهيئة بشوشة، وقال له :

« لقد قدمت لى جميلا عظيما عندما أعدت لى فروة رأسى؛ جعلتنى أستعيد هيئتى الإنسانية من جديد، لن أنسى هذا الجميل أبدا، ها هو– أولا– سهمك السحرى، والآن، ادخل بيتى، وخذ مكافأتك. إنه كنزى الوحيد، وأنا سعيد بتقديمه لك».

فدخل «أوجبيبوا» فى الخيمة، وما أن وضع قدمه على العتبة، حتى تسمّر دهشة، وبدا كأنه سيمد جذوره فى المكان. رأى أمامه أجمل فتاة فى بلاد الهنود الحمر. النجوم نفسها تحسدها على بريق عينيها، والوردة ستفاخر بلونها إذا ما كان فى لون شفتيها، ويمكن للظبية أن تغار من ساقيها .

قالت له وهى تبتسم ببشاشة: «أنا البجعة الأرجوانية، قلبى ملك لك الآن لأنك انقذت أبى، وإذا أردت ، سأكون زوجتك» طبعا كان يريدا وقبل أن يأتى الليل، كان الزوجان الجديدان يودعان الساحر، ثم انطلقا فى الطريق نحو منزلهما.

لقد عاشا سويا حياة سعيدة، وأنجبا كثيرا من البنات والبنين .

«آها يوت» وآكل السحب

فى المنطقة المشمسة من البلد الهندى، كان جبل - يشبه كوز الذرة- يرتفع عاليا هناك، لذا، لقبوه باسم «جبل الذرة».

لقد اختار «آهايوت» وجدته منزلهما فوق قمة هذا الجبل، وعاش «آهايوت» مثل أغلب الصبية، ولاشك أنه ما كان سيصبح بطلا لحكاياتنا، لو لم يحلم - ذات يوم جميل - أن ينجز بعض الأعمال العظيمة.

لقد أراد أن يعتبره الجميع رجلا حقيقيا ومحاربا شجاعا .

وللوهلة الأولى، بدا وكأن لاشىء يمنعه من تحقيق مهمته: فهو سريع كالظبى، خفيف الحركة كسمكة التروتة، قوى كالثور الأمريكى؛ ولديه كل الكفاءات المطلوبة. لكن الزمن كان يتحرك بطيئا فى بطء مياه «النهر الكسول». وظل «آهايوت» ينتظر دائما الفرصة التى سيتميز فيها، فى حين أن أغلب أبناء جيله قد أصبحوا رجالا. وهذا سبب كآبته، وكثيرا ما فقد شهيته، لدرجة أن جدته قالت له ذات يوم

«أعرف ما يقلقك» وأعرف أيضا كيف أساعدك. لكننى أتساءل - فقط- عما إذا كانت المهمة التى أفكر فيها ليست قاسية جدا عليك».

«لست جبانا، ومنذ فترة طويلة وأنا آمل أن أصبح مشهورا بفعل عظيم».

«حسنا، إذن أنصت» ثم خفت صوت الجدة وهى تواصل حديثها. لقد خفضت صوتها لدرجة أن «آهايوت» اضطر أن يقترب أكبر فأكثر ليسمعها، قالت له :«منذ زمن بعيد جدا، جاء «آكل السحب»، واستقر فى الشرق...»

– «آكل السحب؟»

– نعم. إن ارتفاعه فى ارتفاع «جبل الذرة»، ويمكنه أن يفتح فمه إلى أقصى اتساعه فيمتد إلى طرفى الأفق. وهو يتغذى على السحب، ولهذا، لايسقط المطر إلا قليلا عندنا فى هذه المنطقة ، لدرجة أن الرجال والحيوانات أحيانا يموتون عطشا».

– «وآكل السحب، هذا، ألم يصرعه أحد أبدا».

– «كثير من الرجال الشجعان ذهبوا ليهاجموه، لكن أحدا لم يعد من هناك».

– «حسنا. وأنا أيضا أخافه. سأذهب وأعارك «آكل السحب».

– «تصرف كما تفهم أنت الأمور. ولكنى أحذرك ، فالصراع لن يكون متكافئا؛ وكل ما أستطيع أن أفعله لمساعدتك هو أن أعطيك هذه الريشات السحرية الأربع، التى ستحملها معك» وأخرجت الجدة من صندوقها أربع ريشات ذات ألوان مختلفة، وأخذت تشرح له كيفية استعمالها :

– «إذا غرست الريشة الحمراء فى شعرك ستقودك – مباشرة –

إلى «آكل السحب». وستجعلك الريشة الزرقاء تفهم لغة الحيوانات، والريشة الصفراء أقوى منها : إنها ستجعلك صغيرا لدرجة الدخول فى جحر الفأر . أما الريشة الأخيرة، الريشة السوداء فهى ستعطيك القوة التى ستحتاجها لتواجه «آكل السحب».

لم يسأل «آهايوت» أى سؤال آخر. ورتب - بعناية - الريشات الأربع، وقبل أن تبدأ العصافير فى الزقزقة، كان قد انطلق فى الطريق. وبعد أن ودع جدته ،غرس الريشة الحمراء فى شعره، وسرعان ما ترك «جبل الذرة» خلفه.

لقد سار فى طريق مستقيم نحو الشرق ،دون أن يتحول عن هذا الطريق، حتى وصل إلى مملكة «آكل السحب». كانت الأرض يابسة والعشب جافا، وقد تناثرت فى الأرض جذوع الأشجار التى ماتت عطشا. بدا وكأن الحياة قد انطفأت، عدا «خلد» صغير، أخذ ينظر إلى القادم الجديد - وهو فوق التل الصغير - ويرف بعينيه.

فحياه «آهايوت» قائلا :«جوا» وهو يخرج الريشة الزرقاء من جيبه، ثم سأله بلغة «الخلد» كيف يمكننى الوصول إلى «آكل السحب».؟

فأجابه« الخلد» :«إنه لايبعد عن هنا أكثر من مسافة سير لبضعة أيام»، وأضاف:«خذ حذرك! إذا ما رآك «آكل السحب» ستكون ابن موت فى نفس اللحظة، انظر!». وأشار الحيوان الصغير إلى الطبيعة الجرداء وقال له : «كل هذا من صنعه هو. لقد حطم كل مظهر للحياة؟ ولم أهرب من الموت إلا لأننى أعيش تحت الأرض.».

وبدون أن يضيف «آهايوت» أية كلمة أخرى، شبك الريشة الثالثة في شعره ، فأصبح في حجم «الخلد» وقال له :«بهذه الطريقة يمكنني أن أعبر الدهاليز التي تمر منها أنت. ولن يراني «آكل السحب» فأصل إليه بلا صعوبة».

- «أنت لست فقط شجاعا - كما أرى - ولكنك ماكر أيضا . لم يسبق لمن أتى قبلك أن طلب مساعدتي. وعلى أية حال، لقد ماتوا كلهم. ويسعدني أن أكون مرشدا لك».

انحنى «آهايوت» قليلا، فالممر - تحت الأرض- قد احتواه بالكاد في حجمه الجديد. وتتبع «الخلد» وسار بخطوات حذرة، إذ أن عينيه لم تتعودا بعد على ظلام النفق.

لم يتوقفا إلا ليستردا أنفاسهما قليلا وليستعيدا قوتهما . كان للخلد عدة أماكن للتموين على طول الممرات التي حفرها، والشيء الوحيد الذي أسف عليه الشاب هو أنه لم يستطع طبخ الطعام. كان «الخلد» يخشى النار، ويأنف - بشكل خاص- من الدخان .

وفجأة ، بدأ الممر يتشعب ويتشعب ويصعد، وقال «الخلد». «إننا أمام منزل «آكل السحب» بالضبط! اسمع، أتشعر كيف ترتعش الأرض؟ وسقطت بعض الحجارة الصغيرة في النفق، وأخذت جدرانه تهتز بعنف .

شرح له «الخلد» الأمر قائلا« لقد تقلب «آكل السحب» في سريره أثناء نومه». وكان «الخلد» رابط الجأش وسط هذا الزلزال الرهيب. وقال له : «يحسن أن نبعد قليلا».

وبلغا قمة هذا النفق، الذي اتسع عندئذ ليصبح غرفة واسعة، فاستغل «آهايوت» الفرصة لينتصب قامته، لكنه اضطر للانحناء على

الفور. كان السقف يهتز ويكاد يلمس الأرض. وأخذت خبطات مروعة تدق فوق رأسيهما.

فهمس «الخلد» : «إنه قلبه الذى ينبض وكى يخترقه سهمك، يجب أن تكون قويا جدا».

عندئذ، أخذ «آهايوت» ريشته الرابعة السوداء، فشعر بقوة المحارب المقدام تتسلل فى عروقه، وارتكز بحزم على قدميه المتباعدتين، ووضع فى قوسه سهمه المدبب تماما، وصوّب حيث هبط السقف أكثر من أى مكان آخر.

وشد «آهايوت» قوسه فأوشك على الانفجار، ثم ترك السهم. وأدى القصف الهائل إلى زلزلة كل شيء. وآخر ما شعر به بطلنا هو السقف وهو يسقط فوقه.

وعندما استعاد حواسه، كان بالخارج، ممددا فوق العشب، و«الخلد» يجفف له جبينه، وعلى مقربة منهما تمدد جسد الوحش جثة هامدة. كان يشبه الثعبان.

فأخذ «الخلد» يهنئه وهو منفعل بشدة من الفرح: إنك جسور حقا!» لقد قتلته! وقد كافأنا «آكل السحب» وهو ينهار بوابل من الحجارة وأوشك على قتلك! لكننى استطعت أن أحفر ممرا جديدا وأن أخرجك من هنا». وقال له وهو يريه الجثة البشعة: «أنظر لقد مات. لقد اخترق سهمك قلبه. ولن يستطيع أن يضرب أحدا بعد الآن».

فرفع «آهايوت» عينيه نحو السماء. كانت سحب محملة بالمطر النافع تمر واطئة جدا، لتجلب للأرض المياه التي لا غنى عنها، وتعلن أن «آهايوت» قد أصبح رجلا حقا.

«شافينيز» وماء الحياة

كانت «شافينيز» فتاه فقيرة، تعيش مع أهلها فى أصغر كوخ بقرية «بويبلو». كان البؤس والجوع رفيقيها التقليديين. لذا عندما كبرت، لم تعد تفكر إلا فى التخلص منهما، ولأنها تعرف أن لا والدها ولا والدتها يملكان القوة للعمل، قررت الخروج من هذا المـأزق وحدها.

فقالت لنفسها ذات يوم : «سأقطف القطن، وسأتعلم كيف أغزله وأنسجه»، وبدون أن تضيع الوقت ، صنعت لنفسها نولا كبيرا.

وبدأت - أولا- بنسج زوج من السراويل الرائعة، يرتديه الهنود أيام الأعياد ليرقصوا به. ثم حاكت لنفسها بعد ذلك فستانا جميلا يسمونه «مانتا» وأخيرا، صنعت حزاما جميلا .

فهنأها أهل القرية كلهم لمهارتها، وتمنت كل النساء الحصول على أشياء جميلة كهذه .

وعندما أرادوا أن يشتروا منها ما تنتجه، ابتهجت «شافينيز» جدا، فحاكت - عندئذ- «مانتا» أجمل من الأول، وباعته وهى تفكر «لايهمنى إن بعته، إذا ما أعطونى ثمنا طيبا».

وهكذا، وبعد فترة من الزمن، أصبحت كل نساء القرية يرتدين

رداء جديدا للرقص، كانت «شافينيز» تنسج وتطرز، وكلما ازداد تطريزها جمالا، كلما انتفخ قلبها من الكبرياء. وللأسف ، لم تعد الآن جميلة و غنية فقط، بل وأصبحت مغرورة وبغيضة.

تزوجت الفتيات – في سنها – الواحدة تلو الأخرى، و«شافينيز» أيضا كان الشباب يغازلونها فيأتون إليها – كما هي العادة – ليقدموا لها هدية الزفاف، ثوبا أبيض خفيفا نسجوه بأيديهم .

لكن «شافينيز» أخذت تصدهم واحدا بعد الآخر، وتقول لهم بنبرة ساخرة :«لن أفعل شيئا بهداياكم. أنا أيضا أعرف كيف أنسج الملابس وبشكل أفضل منكم!».

وعندما رأى العجائز كيف استولي الغرور على قلب الشابة، أخذوا يهزون رؤوسهم ويقولون :

«إن سلوكك سيء يا «شافينيز». لقد منحتك الأرواح الطيبة الوفرة، لأن قلبك كان طيبا من قبل. والآن، أصبحت روحك مغرورة. حذار . فالمرء عندئذ – يتعرض للعقاب».

فكانت تبعث بهم للشيطان وتقول لهم:«كفى ما تحكونه من لغو، إذا أردت ، يمكنني شراء كل القرية، وطردكم كلكم خارجها!».

ومن هذه اللحظة ، لم يجرؤ أحد على توبيخها أو نصحها ، وبالمثل ، لم يفكر أي شاب في أن تكون زوجته.

ورغم هذا ، ظل شاب، شاب وحيد فقط، لايستطيع أن ينسى جمالها ، أخذ – ليل نهار – ينسج لها أرق رداء زواج. كانوا يلقبونه«ذا الندوب»، لامتلاء وجهه بها ، إثر المعركة الفريدة التي

خاضها ضد الدب «توموا». وعندما أنهى الشاب رداء العرس، ذهب ليقدمه إلى «شافينيز» فسألته الفتاة:«ماذا أحضرت لي؟».

فأجابها الشاب وهو يستعد ليريها عمله:«أعتقد أن قلبك طيب يا «شافينيز» لذلك، أعطيك هدية الزفاف هذه».

- «إذهب إذن. لست بحاجة لأن تزعج نفسك . لقد تقدم إليّ آخرون قبلك، وطردتهم كلهم. أرجو ألا تتخيل أبدا أنني سأقضي حياتي وأناأتأمل ندوب وجهك المجروح».

ياله من جواب فظ. لقد ابتعد الشاب في صمت، وهو يمسح دموعه التي صعدت لعينيه، وقد جرحته كلمات «شافينيز» بعمق. ولم يحك «نو الندوب» كيف سبته «شافينيز» لأحد، ورغم هذا فهمت «شافينيز» أن الكل عرف الموضوع.

وكان يمكن لما ارتكبته أن يكون أخر أعمالها السيئة . وذات مساء هبط ليل كالح على القرية، ليل لم تلمع فيه أية نجمة في السماء، ولم يكسر الصمت سوى نباح بعض الكلاب المذعورة. وفجأة - وسط الظلام السائد في الحجرة التي تنام فيها «شافينيز» -بدت الحجرة وكأن لونا أخضر مزرقا قد أضاءها. واقتربت ثلاثة شخوص شبحية من سرير «شافينيز».

قال الشبح الأول:«لقد منحتها الجمال والصحة، وسأرسل لها المرض وأعاقبها على سلوكها الشرير».

وأضاف الثاني بنبرة حاسمة : لقد زودتها بالثراء، وهي لا تستحقه. ستفقده».

وهمس الشبح الثالث:«إنها شريرة ولا قلب لها. إذا لم يتطهر قلبها من كل عمل شرير، ستموت».

ولم تضف المخلوقات الثلاثة أية كلمة أخرى. وانبثق رعد من بين السحب الواطئة ، وقبل أن ينطفىء استخدمته الأشباح الثلاثة لتصعد عليه إلى قريتها في السماء المرصعة بالنجوم .

وكان هذا الرعد أول نذير لعاصفة هوجاء أيقظت العالم كله، عدا «شافينيز» التي لم تعي أي شيء. لقد استمرت في نوم عميق حتى الصباح، وعندما طردت الشمس المطر، وألقت بأشعتها الذهبية فوق حيطان غرفتها، فتحت «شافينيز» عينيها، أرادت أن تقوم لكن ثقلا غريبا شل أعضاءها لم تعد قادرة على الحركة وأرادت أن تنادى والدتها، لكن لسانها بدا وكأنه من الخشب، واستحال عليها أن تنطق بحرف.

كانت «شافينيز» مريضة مرضا خطيرا.

ظلت هناك ، ممددة في سريرها دون أن تقدر على الحركة أو النداء، ولم تأت إليها والدتها إلا بعد الظهيرة لترى لماذا لم تقم من سريرها. وعندما رأت الأم ابنتها وقد اشتد عليها المرض، ذهبت إلى الساحر، ترجوه أن يأتى لعلاج ابنتها.

فرفض الساحر أن يزعج نفسه، في بادىء الأمر. ولأنه يعرف «شافينيز» جيدا، لم يكن يحبها هو الآخر، ورغم هذا أغراه المبلغ الكبير الذى عُرض عليه، فأخذ حقيبته وذهب إلى المريضة.

لقد قضى الساحر الليل كله بجوار «شافينيز». لقد أشعل عدة

نيران فى غرفتها، ووضع فوقها عدة أوان فخارية ليغلى فيها الأعشاب، وهو يتمتم بتعاويذ سحرية .

وكانت «شافينيز» تطيعه وتبتلع كل الجرعات التي يقدمها لها. لكنها لم تشعر بأي تحسن، بل بالعكس، إذ قبل اقتراب الفجر، سمعت – لأول مرة صوتا يناديها من «بلاد الظلمات».

وعندما أتى الصباح قال الساحر «رغم أن معرفتى الطبية فى أعلى مستوى للطب فى هذا البلد، إلا أنها عاجزة عن شفاء «شافينيز». ولكن، لأنكم دفعتم لى بسخاء، سأقول لكم نصيحة : يعيش فى الجبل ساحر أقوى منى فى مجال السحر، ستجدونه بين الصخور، ولاشك أنه سيتمكن من شفاء ابنتكم إذا أعطيتموه ثروتكم كلها».

وبلا تردد، نادى أقارب «شافينيز» على الساحر الآخر.

ودن توقف أو انقطاع، بذل العجوز – طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال– كل جهوده ليخرج المرض من جسد الشابة، وقد حقق نجاحا رغم هذا : لقد تمكن من أن يعيد إليها القدرة على النطق فاستطاعت أن تقول له :

«إننى أسمع صوت الموت لثالث مرة وهو ينادينى لبلاد الظلمات، وصرخه يتعالى أكثر فأكثر، أنا خائفة. قل لي أيها الساحر الحكيم ، هل يجب أن أموت حقا؟».

فحرك الساحر رأسه وأجاب: «لن ينقذك فنى، رغم أنه لايوجد طب أقوى من الطب الذى أعرفه فى كل البلد الهندى، ولكننى أعرف

لك دواء رغم هذا، إلا أنني أشك.»

فقاطعته «شافينيز» قائلة:«آه. قل بسرعة، قل لي عليه، سأعطيك كل ما أملك».

- «لقد رأيت من أين أتاك المرض، إنه من الكبرياء، وإدراك مصدر المرض علامة طيبة، ولكنك تحتاجين للحب لاستعادة صحتك، والحال أنك طردتي كل من أرادوا منحه لك».

فأجهشت «شافينيز» في البكاء. شعرت الآن بندم حقيقي على سلوكها السابق، وتمنت أن تغير ما بنفسها.

وفي هذه اللحظة، سمعوا صوتا على درجات السلم. كان شخص ما يصعد نحو غرفتها. إنه «نو الندوب» أكثر الذين أهانتهم «شافينيز». قال لها:«علمت أنك مريضة، وقد تموتين. ولكنني لم أصدق هذا الكلام. أنا واثق أنك سرعان ما تشفين».

فأجابت «شافينيز» «لا. لن أشفى سريعا. لن يمكنني الشفاء أبدا، فأنا لم أحب أحدا سوى نفسي».

عندئذ ، سأله الساحر مقاطعا حوارهما:«وأنت ، أتريد أن تساعدها؟». فأجاب الشاب بلا تردد« بكل حماس، لم أكف أبدا عن حب «شافينيز» رغم أنها عاملتني بقسوة شديدة».

فهمس إليه الساحر بصوت خفيض جدا في أذنه :«حسنا بعيدا عن هنا، في الصحراء القاحلة، يسيل نبع «ماء الحياة» عليك الذهاب للبحث عنه، وعندما تكتشفه، وتعثر عليه، اجلب لي بعضا من هذا الماء فورا، خذ هذا الإبريق، ستظل المياه فيه دون أن تتبخر أو

تنسكب».

فأخذ «ذو الذنوب» الإبريق من يدى الساحر، وتهيأ للرحيل، عندما استوقفه الساحر- مرة أخرى - بحركة من يده :

قال له وهو ينظر إليه بحدة وتحذير :«انتظر لحظة. لن تكافأ على جهودك - وتذكر هذا دائما . إلا إذا كنت تحب «شافينيز» حقا، إذا كنت لاتحبها حبا حقيقيا، لن تجد نبع «ماء الحياة»

وطوال ثلاثة أيام وثلاث ليال، هام على وجهه فى الصحراء، دون أن يجد أى أثر للنبع الذى حدثه عنه الساحر .عبثا فتش عنه عبر امتداد البصر، وعبثا جاب الصحراء وقطعها فى كافة الاتجاهات، لم يجد سوى تلال من الرمال، الواحد تلو الآخر، رمال ولا شىء سوى الرمال دائما. وقد اعتقد- أكثر من مرة - أنه يرى نبعا، ولكنه لم يكن سوى سراب وراء سراب.

وكان أن خارت قواه فى اليوم الثالث، فترك جسده يسقط على الرمال. ونام يحلم حلما . حلم أن «شافينيز» الجميلة تبتسم له وتغنى له أغنية جميلة ذكرته نغماتها بخرير الجدول الآتى من بعيد.

فجعلته فكرة المياه يقوم فزعا، وانتصب واقفا بقفزة واحدة، ولكن عبثا أخذ ينظر فى كافة الاتجاهات؛ لم يكن يرى سوى الرمال الجافة الجدباء، وحتى «شافينيز» نفسها لم تكن هناك؛ هى التى شعر بها قريبة جدا فى حلمه. ولكن الشىء الوحيد الذى لم يختف هو خرير المياه. لكنه لم يرها، سمعها فقط، وأخذ يسمعها بشكل أقوى وأقوى.

عندئذ ، فهم أن النبع تحت الأرض، وبسرعة،أخذ يحفر الرمال، فاصطدم بحجر كبير جعله يشعر باليأس ، وقال فى نفسه أنه لن

يتمكن أبدا من رفع هذا الحجر فى حالة الضعف التى هو عليها. فاستجمع آخر قواه، وجذب بكل طاقته اليائسة فنزع الحجر وانبثق عمود من الماء.. وما أن رطب وجهه حتى شعر بنفسه وقد انتعش تماما، ويالها من معجزة. لقد محت المياه كل ندوب وجهه، دون أن تترك أصغر أثر عليه!

وبسرعة ملأ إبريق الساحر بهذه المياه الرائعة، وأسرع نحو القرية.

كانت «شافينيز» تحتضر، وقد استسلمت لفكرة أن الشاب لم يكتشف النبع، وعليها أن تغادر هذا العالم قريبا. وكل ما كانت تأمله الآن، وقبل أن تموت، هو رؤية «ذى الندوب» مرة أخرى لتودعه وتطلب منه المغفرة عن الإهانة العميقة السابقة. وعندما رأته فى إطار الباب، قامت من سريرها بدافع التفوه بكلماتها الأخيرة، ودون أن يضيع لحظة، اندفع الشاب وسكب على شفتيها قليلا من «ماء الحياة».

وما أن تلقت القطرات الأولى من «ماء الحياة» حتى استعادت «شافينيز» قوتها فقفزت بخفة من سريرها، ونظرت إلى منقذها نظرة مليئة بالاعتراف بالجميل، وفى هذه اللحظة - فقط- لاحظت اختفاء الندوب من وجهه، تلك الندوب التى كانت تملأ كل وجهه من قبل.

فقال الساحر : «أترين ، إن «ماء الحياة» كان حسن الطالع له أيضا»، ثم استدار ناحية الشاب وقال له :«إنى أعرف الآن كم تحبك «شافينيز» وأنا واثق أنكما ستكونان سعيدين جدا سويا، بشرط ألا تسمحا - أبدا - الكبرياء أن يجد طريقه لقلبيكما».

وبعد أن أنهى كلامه ، استدار نصف دورة، وغادر المنزل، ليترك الحبيبين مع سعادتهما .

قصة «نياجرا»

فى زمن لايذكره أحد، كانت مياه «نياجرا» تسقط فى فتحة عميقة وتبتلع كل ما تصادفه أمامها، وهى تصدر صوتا كصوت الرعد، ورغم هذا ، فالهنود الذين يعرفونه، هؤلاء الذين يسمعون زمجرة مساقط المياه، وهم يمرون بالقرب من هناك، وهؤلاء الذين يسهرون بالقرب من نيران المعسكر، أو هؤلاء الذين ينامون - هؤلاء الهنود- لايخشون «نياجرا» وهذا لأنهم يعرفون حكايته .

يحكى أن فتاة جميلة كانت تعيش فى معسكر هندى، وقد تقدم لها العديد من الشباب الأقوياء والشجعان والوسيمين والطيبين، والجسورين يطلبون يدها، لكن أهلها الطامعين زوجوها بعجوز بخيل، لكنه غنى جدا. ولم يفعل العجوز البخيل شيئا سوى ضربها ، وتعذيبها بكافة الأشكال، ولم يعطها ما يكفيها حاجتها من الطعام، كان عليها أن تعمل كثيرامن الشروق حتى حلول الليل، بينما الزوج العجوز النزق يكدس القرش «وامبوم» فوق القرش، ويعتنى ويسهر على كنزه.

لذا لن يكون مدهشا - فى مثل هذه الظروف - أن تظل الشابة الجميلة تبكى فى كل مكان تذهب إليه، وقد حاولت - عدة مرات -

الهرب، لكن العجوز كان يلحق بها دائما، وبعد هذا تزداد الأحوال سوءا.

قالت لنفسها ذات يوم: «الأفضل أن أموت، بدلا من أن أستمر في هذا العذاب».

وفي نفس الليلة ، وعندما عاد الصيادون بزوارقهم، راقبتهم الجميلة من على الضفة، وعندما رأت أنه لم يعد هناك أحد حولها، استقلت أول زورق اقترب منها وابتعدت في عرض النهر، وتركت المركب يقودها. فأخذ يتبع التيار المتجه نحو مساقط المياه مباشرة حيث تفور المياه وهي تزمجر في الهاوية. وعندما وصلت هناك سقط المركب أولا مثل حجر.

واعتقدت الشابة أن نهايتها قد حانت ، فأغلقت عينيها، لكن لشدة دهشتها ، وبدلا من أن يتحطم الزورق أسفل مسقط المياه محدثا دويا رهيبا، استقر بخفة فوق سطح الماء، كأن يدا عملاقة قد حملته ووضعته.

وفتحت المرأة عينيها، فوجدت نفسها في كهف كبير، تحجب مدخله مياه الشلال الكبير.

وسمعت صوتا صديقا يدعو قائلا: «أيها المجداف من هنا، من هنا».

فذهب عنها خوفها على الفور. نظرت في اتجاه مصدر الصوت، فرأت رجلا عملاقا، إصبعه الصغير في طول الزورق الذي يحمله.

فسألته : «من أنت؟»

– أنا «هينون» العملاق الطيب، سأحميك. لقد أبلغني «نياجرا»

بوصولك. يمكنك أن تعيشى فى منزلى إلى أن يموت الأنانى العجوز».

فرحبت المرأة الشابة – وهى سعيدة جدا – بهذه الدعوة اللطيفة، وعاشت هناك حيث لم ينقصها شىء فى كهف العملاق. وكان «هينون» ينقل لها – بانتظام- كل مايحدث فى المعسكر ، ويحكى لها عن محاولات زوجها العجوز – اليائسة – للعثور عليها.

غير أنه – ذات يوم – بدا عليه القلق عند عودته للكهف، وقال لها :«زوجك رجل سيء ، وهو بخيل جشع، فلكى يجمع أكبر قدر من القروش، يشترى «ماء النار» من «الوجوه الشاحبة» ويبيعها بسعر أغلى بكثير للهنود الحمر، وهو يعرف كم أن «ماء النار» هذا خطر لذوى البشرة الحمراء ولكنه سخر من هذا: كل ما يهمه هو أن يزداد ثراء. سأعاقبه »

– «كيف تنوى معاقبته يا هينون؟»

فأجابها العملاق «سأصارعه لأقيس قوتى بقوته» ثم رحل قبل أن توجه إليه أية أسئلة أخرى.

كان العجوز البخيل جالسا على الأرض فى منزله، يلتهم بعينيه كومة النقود اللامعة ويلعب بها بأصابعه وهو يقول لها :

«ياقواقعى الجميلة، ياجميلاتى كم لاتزلن قليلات العدد»!.

كان مستغرقا جدا فى إعجابه بنقوده، فلم يلاحظ انفجار عاصفة الجليد الهائلة، ولم ينتبه إلا عندما زعزعت الريح خيمته وهى توشك أن تحطمها فاستولى عليه شعور غامض، فقام، وأخذت شفتاه

الشاحبتات تهمسان :«ماذا يحدث».؟.

فأجابته زمجرة رعد هائلة ، فاندفع العجوز البخيل نحو الباب ووجد نفسه أمام «هينون» الذى احمر وجهه من الغضب.

قال له العملاق بلهجة تهديد:«لقد أتيت لأعاقبك على كل أعمالك السيئة»

فأجابه العجوز وهو يسخر منه: «ها، ها يا«هينون» يامسكين، أنت ساذج حقا، إن الأرواح الماكرة أقوى منك».

وأثناء كلامه، رفع ذراعيه وأخذ يحركهما وكأنهما جناحان. وكان يهمهم - فى نفس الوقت- بكلمات غير مفهومة.

وبدأ وجهه يأخذ مسحة سوداء ويتجمد مثل الحجر، وتحجر جسمه كله فى نفس اللحظة: ذراعاه ، ورجلاه، وجسده كله. ثم تقدم - وقد أصبح وحشا حجريا، سائرا نحو «هينون». كانت الأرض ترتعد تحت خطواته وعبثا أخذ «هينون» يلقى بالسهم وراء الآخر نحوه.

أخذ المخلوق البشع يضحك«ها، ها إن سهامك لن تصيبنى بأذى» والتقط سهما وكسره إلى جزئين بين أصابعه الحجرية. ورغم شجاعة «هينون» اضطر للهرب ، والعجوز فى أعقابه، وبقفزة واحدة ، بلغ العملاق قمة الصخرة التى تشرف على مسقط المياه، والعجوز لايزال وراءه. عندئذ، وقف «هينون» على قمة الشاطىء الصخرى فلمست رأسه السحب، وها هو غريمه وقد التقطه ويحاول دفعه نحو الهوة. كان العملاق يقاوم بكل قواه، لكنه شعر أنه بدأ يضعف. كان

واقفا على أقصى حافة الهوة . وكان على وشك السقوط. وفى هذه اللحظة الحرجة التى أخذ تنفس الوحش الحجرى يسلخ جلده، هرب العملاق منتفضا من القبضة القاتلة، وقفز جانبا، أما العجوز الذى كان يدفع بأقصى قوته- جسم العملاق ليوقع به، فلم يتمكن من الرجوع خطوة للوراء، فهوت الصخرة التى وقف عليها الجسدان.

صرخ العجوز صرخة تردد صداها فى كافة أرجاء الأرض. وانجرف ذو القلب والجسد الحجرى مع الحجارة، حيث انفجر- فى قاع الهاوية- إلى ألف قطعة. وعندما رأت الأرواح الشريرة هذه الكارثة - هى التى ظلت تحميه حتى هذه اللحظة، ولت هاربة وهى تبعث بعويل مرعب: «ياخسارة ! ياخسارة! ووى ! ياه! ووى! واحد منا مات ! ياه!» . فحمل الصدى صراخها عبر البلاد: «ياه! ووى ! ياه! ووى».

وهكذا ، علمت المرأة الشابة، التى كانت تنتظر عودة «هينون» بالخبر. كان صبرها وشجاعتها قد نفدا عندما عاد العملاق. وسألته بمجرد أن رأته:

- «هل لك أن تساعدنى فى الرحيل؟أعرف أنك هزمت العجوز الشرير. صدقنى، لن أنسى أبدا ما فعلته من أجلى، ولكنى الآن أتعجل العودة إلى المنزل، كن لطيفا وساعدنى فى عبور مساقط المياه.»

فأجابها العملاق الكبير بكل بساطة «اركبى الزورق» وما أن ركبته، حتى أخذ الزورق بيد، بينما أوقف الأمواج بيده الأخرى،

وبهدوء ، وضع الزورق على حافة النهر .

وقال لها - أيضا - عندما افترقا «لن يخيفك زوجك الآن. وإذا حاول شخص إيذاءك ، ابعثى به ليتأمل الصخور!» وبعد أن حياها بمحبة لآخر مرة ، ولج العملاق الطيب فى مياه «نياجرا» الهادرة واختفى فيها للأبد.

أخذت المرأة الشابة تنظر حولها وتتساءل عما إذا لم يكن هذا حلما. ولكن لا ، ها هو الطريق الذى يقود إلى المعسكر، ولن تجد فيه زوجها أبدا. يكفى أن ينظر المرء أسفل الشاطىء الصخري ليرى ماحدث : إن الحجارة السوداء المتناثرة ستذكره - بشكل غريب- بأجزاء الجسد الإنسانى .

وقالت الشابة وهى تتذكر أقوال العملاق الطيب «هينون»: «ها هو كل ماتبقى من إنسان شرير » ولتكن هذه الحجارة إنذارا لكل الهنود الذين يمكن أن يطمعوا فى الثروة والثراء».

كيف دفن الهنود الحمر فأس الحرب «التوما هاوك»

يحكى أنه ذات يوم ، عاش زعيم باسل، فى إحدى القرى الهندية، كان قد شن العديد من الحروب، واشتهر بين العامة باعتباره أقوى وأشجع المحاربين.

وفى أحد الأيام، وبينما كان يراقب الأطفال وهم يلعبون بمرح أمام منازلهم، أخذ يتساءل عن مصيرهم عندما يكبرون، لاشك أن الصبية سيكونون صيادين مقدامين ومحاربين شجعان، مثلما كان هو نفسه. ولكن، أيهم سيعيش حتى سن متقدمة، ليستفيد من خبرته كلها ويحولها إلى خبرة حكيمة، لاشك أنهم سيحققون انتصارات ويتفاخرون بعديد من الجماجم المسلوخة. ولكن، لاشك أن العديد منهم سينهزمون ، ويصبحون من ذوى الجماجم المسلوخة. والبنات سيصبحن زوجات محاربين، والعدد منهن سيلقين حتفهن بعيدا عن الوطن، لاشك أنهن سيعشن فترات سعادة قصيرة. ولكنهن سيعشن الهموم كذلك. ومع تقدمهن فى السن، ستأتى التجاعيد العميقة وترسم على وجوههن علامات الحزن، الذى يشعرن به مع اختفاء أزواجهن أو أبنائهن فى ساحة الحرب .

هكذا كان الزعيم يفكر ليل نهار. فتوصل إلى أن الهنود لم يأتوا إلى العالم للتعارك والتقاتل والموت. وأن ما يحتاجون إليه هو العمل

فى سلام، وهو ما ألهمه فكرة عظيمة ،استدعى - على إثرها- مجلسا موسعا للشورى، يشمل كل أفراد القبيلة كلهم .

وعندما اجتمع الشمل، قام الزعيم ليلقى الكلمة، فشرح كيف أن الحرب لم تأت أبدا بما هو طيب لذوى البشرة الحمراء، وأوضح غرور صيادى الجماجم المسلوخة،الذين يهجمون على المحاربين العزل -فقط- بهدف الحصول على غنيمة إضافية.

وقال لهم:« إن أول هندى رفع - ذات يوم - فأسه «التوماهاوك» ضد أخيه، كان هنديا سيئا. وحتى لو قلنا إن صيد الجماجم المسلوخة قد أصبح - بالنسبة لنا - طبيعة ثانية، فلا يوجد مبرر لاستمرارها، إذ أنهاعادة سيئة».

هكذا تعلم الزعيم بحكمته العظيمة، وفهم الآخرون أنه على صواب، فقرروا - فى الحال- ألا يلطخواوجوههم بالألوان، إيذانا بالاندفاع فى ساحة الحرب، عدا - طبعا - حالة حدوث هجوم ضدهم .

فسأل أحد المحاربين :«ولكن ، من سيتولى حمل رسالة السلام إلى القبائل المجاورة؟»فأجابه الزعيم «موكاسان الصامت» و«الأيل السريع» كانا شابين هنديين رائعين ، وأسرع عدائين فى القبيلة. ولمعت عيناهما فرحة وفخرا عندما كلفهما الزعيم بهذه المهمة. ودون أن يضيعا الوقت تهيأ للانطلاق فى الطريق، وغادرا القرية فجر اليوم التالى، فى الساعة التى تهدهد فيها أولى أشعة الشمس رؤوس أشجار الصنوبر التى تفترش أرض الغابة. وكان كل سكان القرية قد

استيقظوا ليشاركوا فى توديعهما .

وسرعان ما بلغا غابة كثيفة وهائلة. كان يوما مشمسا وصافيا، ولكن لم يكن شعاع ضوء واحد يشق تلك الأوراق الكثيفة، ولقد اعترضت طريقهما صعاب جمة، كجذوع الأشجار الساقطة، والأدغال الشائكة والمستنقعات . لكن الشابين لم ييأسا بسبب ذلك فتحول أحدهما إلى ذئب والآخر إلى بومة، وهكذا تمكنا من مواجهة كافة المصاعب، وعندما أصبحت أول قرية هندية على مرمى بصرهما استعادا شكلهما الإنساني ودفنا أسلحتهما تحت إحدى الأشجار وترك وصولهما إلى القرية أثرا عميقا فى نفوس أهلها .

واندفع الجميع – عدا العجائز والمرضى– لمقابلة الشابين اللذين كانا من أسوأ أعدائهم – عند خروجهما من طرف الغابة، ولأن الشابين لم يحملا سلاحا، ولم يلطخا وجهيهما بالألوان، شارة للحرب، فقد سمحوا لهما بالولوج لوسط القرية، دون إزعاج، وهناك بين الذهول الكبير للجميع، نقلا لزعيم القرية رسالة السلام، وبعد أن استمع لهما قال لهما ما يلي: «أقدر بشدة اقتراح قريتكما، وأتبناه عن طيب خاطر ، ورغم هذا ، وقبل أن أجيبكما الجواب النهائى عليّ أن استشير محاربى قريتى، وانتظارا لهذا الجواب ، فأنتما ضيفاى».

وكان المحاربون قد اجتمعوا وهم ينصتون إليه. لقد أيد أغلبهم -فرحا- استتباب السلام فى البلد الهندى، عدا بعض المتصلبين، الذين كان حب الحرب لديهم قد أعمى قلوبهم وعقولهم، فوقفوا ضد

هذا الاقتراح ففرض عليهم زعيمهم الصمت، ناطقا بتلك الكلمات الحاسمة .

«لا أعرف شيئا أكثرمن معرفتي للحرب. كل هذه الدموع التى ذرفتها نساؤنا على أبنائهن وأزواجهن يمكن أن تشكل بحرا من الحداد، أما الدم المسفوح من محاربينا، فيمكن أن يشكل نهرا، فإذا ماذهب رجالنا دائما للصيد بدلا من الاندفاع في الحرب بهذه الكثرة، فلن يكون باستطاعة الجوع والبؤس أن يسكنا بيوتنا أبدا، الحرب هى الدمار والهدم، والموت هو الحكمة التى توصلت إليها بعد عدة سنوات بعثرتها في ساحة القتال، ولايخطرن ببال أحد أننى – لأننى خائف– أجيب على رسالة جيراننا بالرسالة التالية:«أنا – زعيم هذه القبيلة – أوافق على مانص عليه اقتراحكم، وها هو – بدورى – اقتراحي : فلنتقابل – بعد أربعة أيام – فى منتصف الطريق بين معسكرينا . ثمة مرعى كبير على حافة النهر، هناك سنحفر بئرا عميقة وندفن فيها كل أسلحتنا التي نستخدمها فى الحرب، وبعد ذلك سيصافح بعضنا الآخر، واعتبارا من تلك اللحظة سنعيش فى تفاهم وأخوة».

فرح «موكاسان الصامت» و«الأيل السريع» بسماع هذه الكلمات الطيبة. وبعد أن تلقيا من أيدى أجمل فتيات القرية – أحذية موكاسان جديدة، أخذا طريق العودة،

إن الفرصة التى استقبلوهما بها فى قريتهما تتحدى أية قدرة على الوصف. وطوال ثلاثة أيام طويلة، انتظر سكان القريتين –بنفاد

صبر- مجيء اللحظة الكبرى، وفى فجر اليوم الرابع، اجتمع أهل القرية أمام بيت الزعيم، وهم يرتدون ملابس العيد، وساروا في موكب - وهم يرقصون ويغنون - في اتجاه المرعى الكبير. كانت بئر عميقة قد حفرت - منذ فترة - وسط المرعى، واجتمع سكان القريتين في موكبين في طرفي المرعى.

كان الزعيمان أول من تقدما نحو البئر وألقيا -سويا - بفؤوس الحرب «التوماهاوك» ثم تصافحا مثل الإخوة وتبعهما باقى المحاربين منهم، وعندما اختفت آخر الأسلحة، كانت الفرحة العامة قد بلغت أوجها، فرقص الجميع، الرجال، والنساء، والفتيات، والصبيان، وتردد صدى أصوات أغانيهم الفرحة بعيدا، فسهرت الأسماك والحيوانات تسمعهم حتى وقت متأخر. حتى الشمس نفسها، بدت وكأنها لاترغب في الذهاب للنوم، وكأنها تأسف لتركها مشهد البهجة الشعبية هذا ، فأخذت تنسحب - طويلا- بين السحب وابتسامتها العريضة تملأ وجهها وأخيرا، أغلقت عينيها مانحة بركتها للهنود في عيدهم. ثم تدحرجت حتى سريرها الذهبى خلف الأفق، وقد ظلت الشمس، محتفظة بابتسامتها السعيدة حتى أيامنا هذه.

سر الغليون الهندى

- «إن حكاياتى قد انتهت» قال الغليون الهندى وهو يقطع حاجز الصمت العميق الذى تلى كلماته الأخيرة.

فقال له الصبى الصغير بقلق: «لماذا لم تحك لى - حتى الآن - أى شيء عن كفاح الهنود الحمر ضد «الوجوه الشاحبة».

«لا أذكر سوى الحكايات التي سمعتها حول نار المعسكر، وعندما كان السلام يسود وقتئذ فى البلد الهندى. ومنذ ذلك الوقت، أصبحت تلك المنطقة المسالمة، التى يلتقى الجبل فيها بالمروج، حيث تلمس الغابة الثلجية الصحراء القاسية، وقد انقلبت رأسا على عقب، حتى ذلك المكان الهادىء الذى كنت أسهر فيه حول نار المعسكر. كان مئات من الهنود يمرون من تلك الناحية هاربين نحو الغرب. وفى أحد الأيام، فهمت لماذا يهربون هكذا. كانت سحابة حمراء من التراب قد ارتفعت فى الأفق، لم يكن الأمر يتعلق - هذه المرة- بقطيع من الثيران الأمريكية، مثل الذين سبق وأن رأيت العديد منهم خلال حياتى، كانوا جنودا يركبون جيادا كبيرة، إنه جيش «الوجوه الشاحبة» كانوا يتدفقون كإعصار، وهم يتحدثون بلغة لا أفهمها، ثم حدث شيء أكثر غرابة، فقد رأيت هنديا يخرج من الغابة المجاورة، أردت أن أصرخ فيه، وأمره بطرد هؤلاء الدخلاء. وقبل أن أتمكن من الصراخ، قام أحد الفرسان، وأوقف حصانه ، ووضع نوعا من العصىّ أمام وجه الهندى، كما لو كان يصوب فى اتجاهه، وعندئذ، حدث شيء رهيب أمام عينى ، لقد خرج لسان نار من العصا، وصحبه صوت يصم الآذان. وكان أن تمدد الهندى فى

وقد سقط جثة هامدة».

فصرخ الصبى الصغير:«كانت بندقية لاشك فى ذلك».

- «نعم لقد عرفتها فيما بعد. وبعد هذا الحدث المكدر، لم أعد أرى هنديا، وطوال فترة طويلة كان معسكرهم قد تهدم، وأعتقد أننى لن أرى نارهم تشتعل أبدا، وكنت مخطئا. فذات ليلة، والمكان يمتلىء بالضباب الكثيف، استيقظت على ضوء خافت مألوف لى. كانت أصوات تتحدث لغة أفهمها. كان بعض الهنود جالسين حول النار يتناقشون. فاكتشفنى أحدهم وقال لرفاقه: «انظروا ، غليون هندى، لاشك أن «مانيتو» هو الذى أرسله لنا فلنحمله»

عندئذ حملنى الهنود ، فحدثت لى مغامرتى الكبرى...

فجرجاه الصبى الصغير قائلا:« آه. احك لى ».

توقف الغليون فترة ، بدا عليه وكأنه غارق فى ذكرياته:

-«إذا حكيت لك هذه الحكاية ، فستكون نهايتى، وسأتحول إلى مجرد دخان لأننى بحت لإنسان بأكبر سر لى. . ولكننى حكيت لك كل الحكايات الهندية الأخرى التى أعرفها، وأنت بدورك ستحكيها للأطفال الآخرين، إننى واثق من ذلك، ولهذا ، أرجوك أن تنصت جيدا، للحكاية الأخيرة.

لقد حملنى الهنود فى كل مكان ذهبوا إليه ، ولم تكن هذه الرحلات ممتعة البتة، إذ أن الموت كان يتربص بهم فى كل مكان، الموت الذى تبصقه بنادق «الوجوه الشاحبة» الطويلة.

كان الهنود يعانون الجوع والبرد. فلم يكن لديهم متسع من الوقت

للصيد، ولا كان بمقدورهم إشعال النار حتى لايكشف الدخان عن مكمنهم ، كانت النساء والأطفال يموتون، مثلما مات أكثر الهنود بسالة: «عين الصقر» و«السهم ذو الصفير» و«الغيمة الحمراء» و«موكاسان الصامت» وكثيرون كثيرون جدا.

وذات يوم ، قلت فى نفسى لقد بلغ الهنود المنهكون طرف ختام حياتهم، كانت الجبال، بقممها العالية، تقف أمامهم ، دون أن يمكنهم بلوغها بسهولة، وكان الجنود البيض يطوقونهم من كل جانب، وأصابعهم على زناد بنادقهم الممدودة نحوهم، وهم يشكلون حلقة ضيقة ، لايمكن للفأر - نفسه - أن يأمل فى الانفلات إلى خارجها.

وفى هذه الليلة ، وعندما أضاء القمر وجوه ذوى البشرة الحمراء، قام زعيمهم «الدخان الأخير» وخطب فيهم الخطبة التالية :

«لقد غربت شمس دامية خلف الجبل هذه الليلة، وأخشى أن يكون فألا سيئا، لقد أراد «مانيتو» أن ينعى إلينا نبأ استسلامنا فى معركتنا الأخيرة غدا، وانهزامنا فيها.

نحن نعلم أن الحق معنا، سنحارب من أجل بلدنا، نحن الهنود، ضد «الوجوه الشاحبة» الذين يريدون الاستيلاء على وطننا، وحرماننا من حريتنا.

وللأسف ، فلم يساعدنا - حتى الآن - أن الحق معنا ، لقد استقبلنا «الوجوه الشاحبة» ورحبنا بهم كأنهم إخوة لنا، لكنهم دفعوا ثمن ضيافتنا لهم بأن أثاروا الاضطراب فى أفكارنا، ونشروا الأمراض التى خربت قرى ومعسكرات بأكملها، ولكن كان يجب أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك. لقد سعت «الوجوه الشاحبة» لسرقة ما

نملكه من أراضى الصـيـد، تلك الأراضى التى كـانت ملكا لنا منذ أزمنة سحيقة، لقد طردونا من منطقة لأخرى، دون أن نملك أية وسيلة للدفـاع عن أنفسنا أمـام أسلحـتـهم. والآن يا إخـوتـى ، فلنكف عن التراجع. فـإذا كان علينا أن نموت، فليكن موتنا غدا، فى مـعـركتنا وتلاحمنا رجلا برجل. لكن حزنا كبيرا يثقل علىّ:

مـا مصـيـر نسـائنا وأطفـالنا، إن أعـداءنا لن يتركوهـم على قيـد الحـيـاة، ربمـا يجب علينا أن نسـتـسلم بـأمل أن يرق قلب الرجـال البيض أمام شعب عاجز وأعزل؟».

وعندمـا أنهى الزعـيم كـلامـه ، قـام رجل هندى يدعى«الكشـاف العظيم» وقال:

«لقـد شـعـرت بألم شـديد وأنا أسـمـع كلمـات زعـيـمنا «الدخـان الأخير» ولكنها مليئة بالحكمة حقا. إن أجسادنا قد أنهكها التشرد وأرواحنا مفعمة بالحزن، لفكرة أننا لن نعود أبدا إلى أرض أجدادنا ، إلى أرض الوطن».

وقد صدق «الدخان الأخير» عندما قال إننا لانزال أحرارا– حتى الآن ، وهو يدعونا للذهاب إلى المـعـركة غدا، ونحن نعلم إلى أى حد هى معركة غير متكافئة. ولكن هل نخضع لرحمة «الوجوه الشاحبة» هل نلقى أسلحتنا؟ لا . إن هذا يعنى أننا نوافق على قضاء ما يتبقى لنا من أيامنا فى بيوتهم الحجرية الكبيرة التى يسمونها السجون . لقد سبق أن سجنونى فى إحدى هذه القـلاع مرات عديدة . ولكنى نجحت – دائما – بفضل أحذيتى الموكاسـان الصـامتة –فى الإفلات من بين الحراس واستعادة حريتى.

ولذا، فإننى أسـألكم ، لماذا لانتـصـرف بنفس الطريقـة الآن، لقد

طفت البلد الهندى كله طول حياتى، فأنا أعرف ممرا سريا، يمكننا أن نهرب - خلاله - من «الوجوه الشاحبة» سأقودكم خارج الحصار، وبعدئذ سنذهب عبر هذا الوطن - الذى هو وطننا - إلى أن نجد فيه ركنا لايستطيع أحد أن يطردنا منه. والسلام».

أثر فيهم خطاب« الكشاف العظيم» تأثيرا هائلا. وفى هذه الليلة، ما أن اختبأ القمر خلف قمم الجبال، حتى غادر الهنود المطاردون هذه الأرض، عابرين من خلال عيون الشباك التى مدها لهم ذوو «الوجوه الشاحبة» وهم يتتبعون الممر السرى الذى قادهم إليه «الكشاف العظيم».

وأذكر أننى وجدت نفسى فى أحد القوارب . بلغ الهنود - أخيرا - «النهر العجوز»، الذى كانوا يهبطون- الآن- فى مجراه نحو الجنوب، وللأسف الشديد، فلم يكونوا قد اكتشفوا - بعد- أراضى الصيد التى كان يمكن لهم أن يقيموا ويعيشوا فيها فى سلام . كانت «الوجوه الشاحبة»، تطاردهم فى كل مكان ولكن، بفضل سعة حيلة «الكشاف العظيم» ومعرفته بالبلاد، تمكنوا - حتى هذه اللحظة- من الهروب من مطارديهم. وكان الأمر يبدو - غالبا - كأنه معجزة. وهكذا عبروا كل جنوب البلاد، ثم عبروا لما وراء «بلد الثلوج» عبر منطقة المضايق والبحيرات، حيث توقفوا بالقرب من «المساقط الهادرة» طوال محنتهم ، لم ينفصلوا أبدا عنى. مرت السنوات لكن الأعداء لم يتركوهم أبدا وشأنهم، كانوا يتعقبونهم بلا هوادة، وأخذ عدد «الوجوه الشاحبة » يتزايد فى البلد الهندى، بينما كانت نيران الهنود تنطفىء الواحدة تلو الأخرى. وحده الإله «مانيتو» يعلم كم من المعسكرات رأيتها - خلال هذه الأعوام - وقد أصبحت أرضا خلاء،

وكم من الطواطم، قد انتزعت من جذورها، كم من البيوت قد تبعثرت. وحده الإله «مانيتو» يعلم كيف أخذ «الكشاف العظيم» - على رأسى حفنة من الهنود الشجعان -يبحث- بلا كلل، عن مكان لايكون الرجل الأبيض قد وطئه بعد .

كان «الكشاف العظيم» يعتقد أحيانا أنه قد نجح فى العثور على هذا المكان وتحت قيادته، استطاع الهنود البواسل الانتصار فى معركة «الخليج الضائع» الشهيرة، عندئذ استطاعوا الاستقرار فى هذا المكان ، والعيش في سلام . ولكن ذلك لم يدم أكثر من بضعة شهور . ومرة أخرى أجبرهم صوت النفير، هذا الصوت المعروف لهم جيدا، على مغادرة المكان.

كان طريقهم هو الطريق الحتمى نحو «بلاد الظلمات»، حيث كان أسلافهم ينادونهم، الواحد بعد الآخر.

وهكذا أغلق «الكشاف العظيم» عيون «الصقر الأخير» وواصل وحيدا - الدرب الذى لانهاية له، وكل ما تبقى له هو سهامه، وقوسه ، وأنا. ورأيت - مرة أخرى - البحيرات ، والأنهار والمراعى الشاسعة الممتدة بلا حدود. عندئذ ، وجد «الكشاف العظيم» نفسه - مرة أخرى فى المكان الذى يلتقى فيه الجبل بالمراعى ، حيث تلمس الغابة الثلجية الصحراء القاحلة الحارقة».

والتزم الغليون الصمت.

فسأله الصبى الصغير: «وهناك»؟

- «وهناك ، تركنى «الكشاف العظيم» وقبل أن يغادرنى ، قال لى:

- «سأهيم على وجهى عبر البلد الهندى حتى نهاية العالم، بحثا

عن مكان يستطيع فيه ذوو البشرة الحمراء الحياة في سلام، وسعادة. وعندما أكتشفه، سأقوله لأشجار الغابة، ولأعشاب المرعى، ولمياه الأنهار، والبحيرات، ولصخور الجبال والوديان ، للشمس والليل، للنجوم والسحب، والريح، وسأرجوهم أن ينقلوا رسالتي لشعبي. وداعا».

وإثر هذا الوداع الأخير، تبدد الغليون الهندي، وأصبح نفثة من دخان ، فقفز الصبي نحو المائدة. لكن بدلا من الغليون الهندي، لم ير سوى حفنة من الرماد، ذات بريق أحمر تحت ضوء النار الخافت.

فهمس قائلا: «كان ذلك -إذن - سر الغليون الهندي المقدس!»

وهو يفكر في كلمات الغليون الهندي الأخيرة.

وأخذ عليه نفائسه الثمينة، ورتب فيها - بعناية - كل ما تبقى من رماد الغليون الهندي، وعندما كان يلتقط بأصابعه جزيئات الغليون الهندي الثمينة والصغيرة، كان لديه الانطباع بأن كل جزء منها يعيد عليه إحدى الأساطير التي كان الغليون الهندي السحري قد حكاها له خلال ثلاث ليال مضت.

المحتويات

الليلة الثالثة

آفاق الترجمة

النظرية الأدبية المعاصرة

تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور

مدن الآخرين

ترجمة: أحمد عبد المعطى حجازى

صحراء التتار

رواية : دينو بوتزاتى ترجمة : موسى بدوى

الحب

رواية: مرجريت دورا ترجمة : د. فوزية العشماوى

أساطير

تأليف رولان بارت ترجمة : سيد عبد الخالق

نشيد بحرى

شعر : فرناندو بيسوا ترجمة: المهدى أخريف

هبة الطوطم

أساطير الهنود الحمر ترجمة : راوية صادق

★

رقم الإيداع : ١١٦٣٤ / ٩٥

الترقيم الدولى : 3- 494 -235 -477

هبة الطوطم

الكلمة أقوى من الحجر، فما حكاه الإنسان ذات يوم عن الآلهـة والأبطال والكائنات، لا يزال بعضه يعيش في الخرافة. فهي تعني - لدى البدائيين - مضمون الفكر والعقيدة، بنظرة عميقة في ماهية الأشياء، وفي الطبيعة والعالم.

إن الأسطورة - كما يقول ستروس - تمتلك خاصية اللغة (التزامن) وخاصية الكلام (التتابع). ورغم أنها تشير إلى وقائع في زمان بعيد، فإن النمط الذي تصفه بلا زمن. وجوهر الأسطورة لا يكمن في بنيتها، بل في الحكاية التي تجعل الخلفية اللغوية لها في حالة حركة دائماً.

يتحدد التفكير البدائي، بالتمثلات الانفعالية والسحرية، مقتصراً على الضرورات وإشباع الدوافع والنزعات. وعليه، نجد أن نمط الحكاية متشابه لكن تختلف التفاصيل، كما تتعارض مع التاريخ، لأنه نسق مفتوح.

تعود أهمية هذه الحكايات أنها تقدم لنا تراث الهنود الحمر الشفاهي، دون وسيط، كما تناقلته قبائلهم، فتعرض لنا الصورة الأخرى لشعب مقدام تعرّض للإبادة، وتكشف لنا الحوافز الخفيّة التي تحرّك ضيف مناقشاتنا دائماً: الفكر البشري. ★

Red Indians' Legends

